تشرشل

اسم الكتاب : تشرتشل

اسم المؤلف : يوسف ابو الحجاج الأقصري

اسم الناشر : مكتبة زهران ـ دار الراوي

رقم الايداع : 15476 / 2017

الترقيم الدولي : 978-977-349-085-0

لا يجوز نشر الكتاب أو جزء منة بكافة الوسائل المرئية والمسموعة أو على الإنترنت إلا بالرجوع للناشر واخذ موافقة خطية منة ومن يخالف ذلك يعرض نفسة للمسائلة القانونية

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظه

مذكرات الرجل الثعلب

تشــــرشـــــل

يوسف أبو الحجاج الأقصري

تقديم

بين يديك عزيزي القارئ مذكرات السير ونستون تشرشل الذي شغل منصب رئيس لوزراء المملكة المتحدة في عام 1940 حتى 1945 أبان الحرب العالمية الثانية ثم تولى المنصب ذاته من عام 1951 حتى عام 1955.

ويعد احد ابرز القادة السياسيين الذين شهدوا أبرز الحروب التي اندلعت في القرن العشرين.

قضى تشرشل سنوات حياته الأولى ضابطا بالجيش البريطاني ومؤرخا وكاتبا بل وفتانا أيضا وهو رئيس الوزراء الوحيد الذي يحصل على جائزة نوبل في الأدب وكان أول مواطن أجنبي تمنحه الولايات المتحدة الأمريكية المواطنة الفخرية.

ينحدر تشرشل من سلالة عائلات الدوقات الأرستقراطية بمارلبورو وهي أحد فروع عائلة سبنسر الأشهر في بريطانيا وكان والده اللورد راندولف تشرشل سياسي صاحب شخصية كاريزمية وتولى منصب وزير الخزانة وكانت والدته جيني جيرودر عضوه بارزه في المجتمع البريطاني.

أُرسل تشرشل في مهام للجيش البريطاني وشارك في حرب البوير الثانية بصفته ضابطا بالجيش البريطاني وذاع صيته كأشهر مراسلي الحروب.

تقلد العديد من المناصب السياسية الحكومية حيث ترأس وزارة

الصناعة والتجارة ووزارة الداخلية، وأميرا للبحرية البريطانية حتى عصفت به معركة هربرت هنري اسكويت وبعيدا عن الحروب تولى تشرشل قيادة حملة عاتيه في الثلاثينيات حذر فيها من الخطر النازي وكان تشرشل مصابا بلعثمة في لسانه مزمنة طوال حياته.

كان سياسيا داهية فأقام علاقات جهنمية مع الولايات المتحدة الأمريكية ولا سيما في الفترة ما بين 1939 و 1945 كان لها الأثر البالغ في وصول الأغذية الأساسية والنفط والذخائر لقواته عبر ممرات النقل البحري التي تسيطر عليها أمريكا شمال الأطلس وهو صاحب ميثاق الأطلسي، وأوروبا أولا، وإعلان الأمم المتحدة.

كان تشرشل عادة ما يتخذ في اسم العقيد واردن اسما مستعارا له ومات بعد عمر طويل ويقال أن جنازته كانت أكبر جنازة رسمية غرتها البشرية في ذلك الوقت بحضور ممثلي من 112 دولة وحضرت المملكة مراسم الدفن على غير العادة الملكية ودفن في كاتدرائية سانت بول يوم 30 يناير سنة 1965.

كتب مذكراته التي نعرض لها بإيجاز نظرا لكونها تحتاج إلى مجلدات لعرضها كاملة أنها رحلة في عقل وفكر سياسي داهية ذاهبه استطاع أن يرى ويقدم الكثير خلال حياته المعمرة التي استمرت نحو تسعون عاما شهد خلالها أهم أحداث القرن العشرين.

تمنياتي برحلة قراءة ممتعة مع مذكرات تشرشل...

بطاقة تعارف

الاسم: ونستون ليونارد سبنسر تشرشل.

الولادة: 30 نوفمبر 1874 م.

مكان الميلاد: أوكسفورد شاير- إنجلترا.

الإقامة: دبلن- قصر بلانيهام المملكة المتحدة.

المواطنة: إنجليزي- المملكة المتحدة.

الديانة: مسيحي- إنجيلي.

الأحزاب: حزب المحافظين البريطاني من عام 1900 حتي عام 1924.

الزوجة: -1 كليمنتن تشرشل.

2- ديانا تشرشل.

3- راندولف تشرشل.

اللغات التي يجيدها:- الإنجليزية- الفرنسية.

المعارك التي شهدها: حرب البوير الثانية- الحرب العالمية الأولى والثانية.

أشهر الجوائز: نوبل للآداب عام 1953.

الوفاة: 24 يناير 1965 عن عمر يناهز التسعين عاما.

مكان الدفن: كنيسة سان مارتن.

الفصل الأول

جهل المنتصرين
1919 - 1929

لم يبدأ تشرشل في مذكراته بكتابه مولده أو نشأته أو صباه ولكنه بدأها بالحديث عن الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولي.

يقول تشرشل في بداية مذكراته التي خصصها للحديث عن الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى.

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، كان هناك اعتقاد شامل، في العالم كله، بأن السلام سيسود العالم، وكان ممكنا تحقيق هذه الأمنية القلبية لدى الشعوب، وذلك بواسطة التزام الثبات على المعتقدات العقائدية الصحيحة، والمنطق السليم، وكان شعار «حرب من أجل إنهاء الحرب» يتردد على كل لسان وقد اتخذت الإجراءات اللازمة لتحويل هذا الشعار إلى حقيقة واقعة. وقد تمكن الرئيس ولسن، عن طريق نفوذ الولايات المتحدة من جعل مفهوم عصبة الأمم، يطغى ويدخل العقول. وشكلت الوكالة البريطانية في فرساي هذه الفكرة وكونتها وحولتها إلى ألة ستبقى دائما مقياساً لطريق تقدم الإنسان. وكانت جيوش الحلفاء، المنتصرة، بالنسبة لهزيمة الأعداء مضطرة إلى مجابهة مصاعب داخلية، لا تعرف كيف تقضي عليها، لكن القوة التوتونية المتكتلة في أوروبا الوسطى قد أضحت مطروحة أمامهم كما إن روسيا التي هشمتها المطارق الألمانية

كانت هي الأخرى مضطربة نتيجة للحرب الأهلية التي أوقعتها في قبضة الأحزاب البلشفية أو الشيوعية.



وفي صيف عام 1919 وقفت الجيوش الحليفة على ضفاف الراين ورؤوس جسورهم الممتدة داخل المانية المهزومة، المنزوعة السلاح، والجائعة.

واجتمع قادة الدول المنتصرة في باريس ليبحثوا في أمر المستقبل ويخططون له. وأمامهم كانت خريطة أوروبا كي يعيدوا رسمها حسبما يروه ويتفقوا عليه، لقد أصبح التكتل التوتوني تحت رحمتهم بعد اثنين وخمسين شهرا من الألم والمخاطر. ولم يكن في إمكان أية دولة من دول الأربع، أن تعارض مشيئة المنتصرين وألمانية أصحبت تحت رحمة المنتصرين الذين كانوا يترنحون من العذاب الذي قاسوه أثناء الحرب. لقد كانت الحرب حرب شعوب لا حكومات. فقد امتزجت جميع طاقات الحياة داخل اتونها الملتهب.

وفي اجتماع قادة الحرب في باريس، كانت التيارات العنيفة تتجاذبهم من كل صوب. فقد ولت أيام معاهدات (أو تراخت وفينا)، وعندما كان الساسة والديبلوماسيين الأرستقراطيين، سواء أكانوا من الفريق المنتصر أم المهزوم، يجتمعون ليدخلوا في نقاش لطيف مهذب، بعيدا عن هتافات الديمقراطية وصخبها، كي يصلوا بالنتيجة لوضع الأنظمة التي لا خلاف حولها في الأساس. وكانت الشعوب التي تشربت بالتعاليم والدعاوات تطالب بإنزال أقصى العقوبات بالمنهزمين، ثأرا لملايين الضحايا من البشر.. والويل للذين يفرطون بمكاسب الجنود ويضيعونها على طاولة المؤتمر...

كان زمام القيادة في يد فرنسا التي اسكتت به بفضل جهودها وخسائرها الفادحة، وبفضل المليون والنصف من الضحايا من الجنود الذين لاقوا

حتفهم دفاعا عن الأرض الفرنسية. فقد شاهدت كنيسة نوتردام، خلال قرن من الزمن، خمس مرات وميض المدافع الألمانية، وسمعت ضجيجها الرهيب خلال أعوام 1814 و 1815 و 1870 و 1914 و 1918. وخلال السنوات الأربع الرهيبة، وقعت تحت الاحتلال العسكري الروسي ثلاث عشرة مقاطعة فرنسية، وقد دمر العدو مساحات كبيرة من الأراضي الفرنسية، ولم تخل مزرعة واحدة أو عائلة واحدة من العائلات الفرنسية التي تعيش بين فردان وطولون من مأساة لفقدان عزيز، أو رجوعه مشوها من الحرب.

لقد كان الفرنسيون يعيشون في رهبة مستديمة من الإمبَراطورية الألمانية الجبارة. وكانت ذكرى الحرب الوقائية التي أراد بسمارك شنها عام 1875 لا تزال عالقة في أذهانهم بالإضافة إلى التهديد الذي أدى إلى سقوط حكم دكلاسيه عام 1905. وكانت خطب غليوم، النارية، وتهديداته التي كانت تقابل بالسخرية في إنكلترا وأميركا، كانت تدخل الهلع في قلوب الفرنسيين الذين عاشوا خمسين عاما تحت ظل الإرهاب الألماني وتهديداته. ولقد جنوا ثمرة الدماء والتضحيات، فزال الخطر والظلم، وحل محله السلم والأمن.

لكن الخوف من المستقبل كان لا يزال قائما، فالشعب الفرنسي لا يبلغ بعدده ثلثي الشعب الألماني، الذي يزداد نموه سريعا. ولن يمض وقت طويل حتى يتضاعف عدد القادرين على حمل السلاح في المانيا. وقد جابهت المانيا العالم كله وحاربته منفردة تقريبا، وكادت أن تبلغ النصر، وكان المراقبون يعلمون أن نتيجة الحرب كانت، أكثر من مرة، تميل بفضل بعض الحوادث العرضية وحسن الحظ، نحو الحلفاء.

ويواصل تشرشل حديثه قائلاً: وعندما عادت الجيوش الألمانية، يوم الهدنة، إلى وطنها قال الجنرال فوش، القائد الأعلى للقوات الحليفة: «لقد حاربوا بشجاعة، لذلك يجب أن تتركوهم يحتفظوا بسلاحهم»، وفي نفس الوقت طلب أن تصبح حدود فرنسا على نهر الراين، وقيل وقتها. وربما سُتجرد المانيا من السلاح، وقد يتلاشى جهازها العسكري وتُجرد قلاعها من سبل الدفاع، وربما سيُفرض الفقر على المانيا بعد أن تفُرض عليها أعباء ضخمة من التعويضات. لكن هذه بأكملها ستبقى ظروفا طارئة وستزول بعد عشر سنوات أو بعد عشرين سنة. وستنطلق من جديد صيحة القبائل الألمانية بمجموعها وترتفع نيران بروسيا المحاربة مرة أخرى. لكن الراين ذلك النهر الكبير الشديد العمق، سيكون بمثابة الدرع الواقعي الذي تركن وراءه فرنسا وتشعر بالاطمئنان لأجيال قادمة طويلة. لكن أراء العالم الآخر الناطق باللغة الإنكليزية، ومشاعره كانت تختلف عن ذلك، وهذا العالم له قيمته وأهميته الكبرى، فلولا معاونته لها لما استطاعت النجاة. وهكذا جاءت الاتفاقات في معاهدة فرساي منسجمة مع وضع المانيا، بلدا سليما غير مجزأ، فبقيت المانيا أكبر مجموعة عنصرية في قارة أوروبا. وعندما استمع المارشال فوش إلى نص اتفاقية الصلح في فرساي، علق بقوله: «أنها ليست سلاما، بل هدنة لمدة عشرين سنة»



يقول تشرشل: كانت البنود الاقتصادية في تلك المعاهدة سخيفة إلى حد جعلت منها بنودا غير صالحة. فقد وجب على المانيا أن تدفع مبالغ هائلة كتعويضات وكان هذا المطلب ليس إلا تعبيرا عما يشعر به المنتصرون من غضب ومن فشل لدى الشعوب في تفهم الحقيقة الواقعة

وهي أن ليس في وسع أي شعب أن يقوم بدفع هذه الجزية التي تتفق مع متطلبات الحرب العصرية.

وكانت الشعوب غارقة في الجهل لأبسط القواعد الاقتصادية، وكان قادة الشعوب، بدافع من حرصهم على الأصوات الانتخابية، لا يتجرؤون على توضيح هذه الحقيقة، لكن بعض الأصوات الضعيفة ارتفعت لتوضح أن دفع تلك التعويضات لن يتم إلا عن طريق الخدمات أو عن طريق شحن البضائع بواسطة القطارات أو البواخر. وعند وصول تلك البضائع إلى البلاد التي فرضتها فستطغى على الصناعة المحلية، وكانت الطريقة الوحيدة لسلب شعب مهزوم، هي في نقل كل ما هو قابل للحركة، لكن الأرباح الناجمة عن عمليات كهذه لا تتناسب مع نفقات الحرب، ولم يكن في وسع أي زعيم أن يجرؤ على الجهر بهذه الحقيقة المؤلمة للجماهير الناخبة، لذلك أستمر الحلفاء بتبجحهم بأنهم سيستمرون في عصر المانيا حتى «يسمع صرير أنيابها» وبالتالي تختنق. وكان لهذا أثر كبير في ازدهار العالم، وفي أوضاع العنصر الألماني.

لكن هذه البنود من المعاهدة لم تنفذ، فقد حصل العكس تماما، فبعد أن صادر الحلفاء موجودات المانيا بمبلغ الف مليون جنيه، قاموا هم أنفسهم فيما بعد وعلى رأسهم بريطانيا وأميركا بإعطاء المانيا قرضا بمبلغ الف وخمسمائة مليون جنيه، وذلك لترميم ما دمرته الحرب في بلادها وبأسرع وقت ممكن، كل هذا ولم يزل ساسة الشعوب المنتصرة يذكرون أن المانيا ستدفع لآخر بنس كل التعويضات رغما عنها.

أن التاريخ سيصف هذه العمليات بالجنون. لقد ساعدوا على تنمية اللعنة العسكرية و «الزوبعة الاقتصادية»، وبدأت المانيا بالاستدانة من

جميع الجهات وتبتلع بسهولة جميع المساعدات الممنوحة إليها بسخاء. إن هذه هي قصة محزنة من الغباء المعقد الذي استنزف فيها الكثير من الجهد والفضائل.



ويواصل تشرشل حديثه قائلاً: لقد استنزفت الحرب دماء فرنسا، وانتصر الشعب الفرنسي بعد أن ظل منذ عام 1870 يحلم بالثأر، لكن هذا الانتصار كلفه غاليا، ولكن الخوف من المانيا ظل يعكر صفو احتفالات الشعب الفرنسي بالنصر. ولا شك كان هذا الخوف المتأصل هو الذي دفع المارشال فوش إلى المطالبة بجعل نهر الراين فاصلا لفرنسا، وذلك كي يضمن سلامة فرنسا من جارتها القوية، لكن الساسة البريطانيون والأميركيون أصروا على تمسكهم بالنقاط الأربعة عشرة، التي تتعارض مع مطالبة فرنسا بضم جزء من الأراضي الألمانية إلى ممتلكاتها، بالإضافة إلى أن المطالبة تتعارض مع مبادئ القومية وحق تقرير المصير التي قامت معاهدة الصلح هذه على أسسها. وقد تمكن هؤلاء من كسب كليمنصو إلى صفوفهم حين تمكنوا من إقناعهم بأنهم سيقومون بضمان حدود فرنسا، وإقامة منطقة غير عسكرية ثم تجريد المانيا من السلاح بصورة كلية ودائمة، وسرعان ما وافق كليمنصو على هذه الضمانات بالرغم من معارضة المارشال فوش لها، ولم يلبث أن وقع ويلسون ولويد جورج وكليمنصو على معاهدة الضمان تلك. إلا أن مجلس الشيوخ الأميركي رفض أن يصدق على توقيع الرئيس ويلسون. وقد قيل لنا نحن بأنه يترتب علينا أن نكون على علم ومعرفة بنصوص الدستور الأميركي، نحن الذين كنا نرضخ لآراء الرئيس ويلسون ورغباته بما يتعلق بقضايا السلام.

لكن الشعب الفرنسي أسقط الرجل الصلب كليمنصو، في إحدى نزواته الخائفة الغضبة. وكما قال بلوتارك «أن الحدود نحو الرجال العظام، هو من ميزات الشعوب القوية»، وكانت ضربا من الحماقة أن تلجأ فرنسا إلى هذا الأسلوب، لا سيما في الوقت الذي أصبحت فيه شديدة الضعف، وجاء بوانكاريه إلى سدة الحكم، الرجل ذو الشخصية القوية، خلفاً لكليمنصو، فحاول أن يجعل من المنطقة المحيطة بالراين، أرضاً مستقلة تحت حماية فرنسا وإشرافها، إلا أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح. وكانت محاولته في غزو منطقة الروهر كمحاولة لفرض التعويضات على المانيا، لكن هذا الغزو أثار النقمة لدى الرأي العام البريطاني والأميركي، بالرغم من أتفاقه مع نصوص معاهدة فرساي. وكانت النتيجة أن تدهورت أوضاع المانيا الاقتصادية والمالية، وأدى ذلك إلى تدهور المارك الألماني بسبب التعويضات الباهظة التي دفعتها خلال الفترة من عامي 1919 و 1923. كما أن موجة الغضب والكراهية التي اجتاحت المانيا، نتيجة لغزو منطقة الروهر، دفعت بالمسئولين إلى طبع كميات هائلة من الأوراق النقدية، بقصد القضاء على النظام الاقتصادي برمته، وأصبح الجنيه الإسترليني يعادل ثلاثة وأربعين مليون مارك الماني. وقد أدى هذا التضخم الفظيع إلى تلاشي المبالغ التي وفرتها الطبقات الوسطى ومالت بطبيعتها نحو الحركة الاشتراكية الوطنية، وتشوه النظام الصناعي الألماني بأكمله نتيجة لنمو الاحتكارات. واختفى الرأسمال العامل من البلاد، وبالتالي أُلغيت القروض الداخلية والديون الصناعية القائمة على الرهونات والفوائد، لكن هذه لم تعوض خسارة الرأس المال العامل، وأسفرت النتيجة عن قروض خارجية تعطى لأمة مفلسة، وهي الصورة التي تبلور عنها الموقف في السنوات التالية.

أما بالنسبة لبريطانيا فقد تحول موقفها تجاه المانيا، تحول من العنف إلى العطف، ونشبت الخلافات بين لويد جورج وبوانكاريه واتسعت حدة الشقاق بين الشعبين قلباً وقالبا. ووجد العطف الإنكليزي على المانيا، أو الإعجاب بها، صدى حسنا قويا.

وما أن ظهرت عصبة الأمم إلى الوجود حتى تلقت ضربة قوية، إذ تخلت عنها الولايات المتحدة، وأصيب الرئيس ويلسون بالشلل، بعد أن كان مستعدا للكفاح من أجل مثله العليا وعقائده، وأصبح بعد ذلك كتلة من الحطام وأصيبت سياسته وسياسة حزبه بهزيمة ساحقة في معركة الرئاسة، وفاز الديمقراطيون في عام 1920 . وفي عشية فوز الديمقراطيين، سيطرت المفاهيم الانعزالية على الناحية الأخرى من المحيط الأطلسي، وكان على أوروبا أن تجني ما زرعته وتدفع ثمن ديونها، وفي نفس الوقت ازدادت التعريفة الجمركية وذلك للحيلولة دون دخول البضائع التي يمكن لوارداتها أن تسدد بعض الديون. وراحت بعد ذلك الحكومتان البريطانية والأمريكية تحطم وتغرق بواخرها ومنشأتها العسكرية، وذلك لأنه من غير اللائق أن ينزع السلاح من يد المغلوب ويبقى في يد الغالب.. كما اعترضت أميركا لدى بريطانيا عن أن الاستمرار في علاقتها الودية مع اليابان سيشكل بعض الخطر على مجرى العلاقات البريطانية، الأمريكية، مع أن اليابان كانت تحترم هذه العلاقات وتحافظ عليها بكل صدق، وبناء لهذا التحذير، اضطرت بريطانيا إلى قطع تلك العلاقات مع اليابان مما أدى إلى استياء الحكومة اليابانية، واعتبرت أن هذا التصرف يعتبر امتهانا من بلد أوروبي نحو شعب أسيوي صديق.

لقد كان باستطاعة اليابان أن تعتبر نفسها ثالث دولة بحرية بعد هزيمة

المانيا وروسيا فتتمتع بمركز مرموق. ورغما عن أن الاتفاق البحري يقضي بأن يخصص لليابان نسبة خمسه إلى ثلاثة من السفن المخصصة إلى الدولتين الكبيرتين، إلا أن هذه النسبة كانت مناسبة لإمكانيات اليابان المالية للسنوات التالية، وبالتالي راحت تراقب الانخفاض الكبير في الإنتاج الأميركي والبريطاني بالنسبة لإمكاناتها المالية ومسؤولياتهما الجسيمة. وبذلك يكون الحلفاء قد مهدوا لتجدد الحرب في أوروبا وأسيا، وباعتقادهم أن هذا قد يؤدي إلى السلام الدائم.

وفي أوروبا أخذ الخلاف الجديد الأكثر فظاعة يبرز إلى حيز الوجود، هذا الخلاف الرهيب الذي خلفته الحرب الأهلية الروسية وانتصار الثورة البلشفية الساحق، فبالرغم من أن الجيوش السوفياتية المتقدمة نحو بولنده، قد صدت في معركة وارسو، إلا أن المانيا وإيطاليا قد بدأتا تذعنان للدعاوي الشيوعية ومشاريعها. كذلك هنغاريا التي سقطت في قبضة الدكتاتور الشيوعي بيلاكون. وبالرغم من أن المارشال فوش لاحظ بحكمة بأن «البلشفية لم تتخطى حدود النصر»، إلا أن أسس الحضارة الأوروبية اهتزت في السنوات الأولى بعد الحرب، فالفاشية كانت ظل الشيوعية أو وليدها البشع، وبينما كان العريف هتلر يحاول تقديم خدماته على الضباط الألمان في ميونخ، ويحرص الجنود والعمال ويغذي في صدورهم الحقد على الشيوعية واليهود الذين ألقى بمسئولية الهزيمة عليهم، كان هناك مغامر آخر، بينتو موسوليني الذي قدم لإيطاليا نموذجا جديدا من الحكومة التي صرحت بأنها ستنقذ الشعب الإيطالي من الشيوعية، ورفع نفسه إلى قمة الدكتاتورية. وكما انبثقت الفاشية عن الشيوعية، كذلك النازية تطورت من الفاشية. وهكذا تمكنت هذه الحركات من الوقوف على قدميها وتمكنت بعد ذلك من جر العالم إلى صراع عنيف لا يمكن للمرء أن

يقول أنه انتهى بانتهائها...

يقول تشرشل: في هذه الصفحات، سأحاول أن أقص قصة أسوأ مأساة تعرض لها الجنس البشري في تاريخه المضطرب. أن المأساة المخيفة لم تقتصر على الضحايا وعلى الدمار الذي لابد منه في الحروب، ففي الحرب العالمية الأولى وقعت مجازر رهيبة، كما فقدت كنوز كثيرة من الثروات التي جمعتها الشعوب.. وإذا ما استثنينا الأعمال العنيفة التي حدثت أثناء الثورة الروسية، فإن الحضارة الأوروبية، بقيت ولم تزل حال انتهاء الحرب العالمية. كما أن الشعوب المتحاربة عادت لتعترف ببعضها البعض، وبقي الجميع يحترمون القوانين والأعراف الحربية، كما أن معاهدة الصلح كانت منسجمة مع المبادئ المتبعة في القرن التاسع عشر بين الشعوب المتحضرة.

كذلك يمكن القول أن الجهاز الدولي الذي أنشئ لحمايتنا كلنا، وخاصة حماية أوروبا نفسها ضد أخطار جديدة.

إلا أن الحرب العالمية الثانية، لم تكن كذلك. لقد زالت الروابط التي كانت تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان. لقد قام الألمان، تحت الحكم الهتلري باقتراف جرائم منكرة وحشية لا مثيل لها. ولا شك أن المجازر التي أودت بحيات ستة أو سبعة ملايين رجل وامرأة وطفل في معسكرات الاعتقال الألمانية وهي تطغى على جرائم جنكيز خان الهائلة، وتفوقها وحشية. وقد رسمت المخططات أثناء الحرب في الجبهة الشرقية لإفناء شعوب بأسرها على أيدي الجنود الألمان والروس. أما من ناحية الحلفاء أنفسهم فقد قاموا بغارات وحشية تفوق الغارات الألمانية عشرين مرة، بل كانت تزداد حدة يوما بعد يوم، إلى أن بلغت ذروتها في إلقاء القنبلة الذرية

على هيروشيما وناكازاكي وإزالتهما من الوجود.

والآن بعد أن خرجنا من جو الخراب المادي والمعنوي، نجد أننا لا نزال نواجه نفس المشاكل والأخطار التي تخلصنا منها بأعجوبة، هذا إذا لم نقل إنها أشد وأدهى.

ويواصل تشرشل حديثه قائلاً: سأحاول أن اكشف للقارئ كيف كان بإمكاننا تجنب وقوع حرب عالمية ثانية، نظرا لكوني عشت هذه الأيام وعملت فيها. سأحاول أن أبين كيف أن ضعف الفضلاء قد أدى بالنتيجة إلى تقوية الأشرار، كما سأبين أن أجهزة الدول الديمقراطية تفتقر إلى مقومات الإيمان ما لم تندمج مع أجهزة أقوى وأكبر منها. أن مقومات الإيمان والثبات هي التي تتمكن من إحلال الأمن والسلام والطمأنينة في نفوس الجماهير. كما أني سأبين كيف أنه لا يمكن لأي سياسة أن تستمر لعشرة أو لخمسة عشرة سنة في آن واحد، وذلك في قضية الدفاع عن النفس والمحافظة عليها، وسنرى كيف أن أتباع سياسة المتردد قد تصبح عاملا أساسيا للخطر، وكيف أن الحل المعقول الذي ينبع من الرغبة في السلامة والحياة الهادئة قد يؤدي بنتيجة إلى مواجهة الكارثة. كما أننا سنرى أنه من الضرورة القيام بعمل دولي مشترك بين دول يرجع تآلفها إلى سنين سابقة، دون الالتفات إلى التيارات المتماوجة في السياسة القومية.

لقد كانت سياسة إبقاء المانيا مجردة من السلاح سهلة الحفاظ عليها، وإبقاء المنتصرين بسلاحهم الكامل لمدة ثلاثين سنة على الأقل، وبنفس الوقت بذل المحاولات لجعل مسألة التفاهم مع المانيا حقيقة واقعة، وإنشاء عصبة للأمم قوية قادرة على الحفاظ على المعاهدات وتطبيقها، ولا تغير أو تبدل دون اللجوء إلى المفاوضات والاتفاقات. وعندما تتعاون

ثلاث أو أربع دول قوية، وتطلب من شعوبها تقديم اقصى ما يمكنها من تضحيات، وتقوم هذه الشعوب بتضحياتها في سبيل الهدف المشترك، عند ذلك تصبح النتائج المطلوبة معقولة جدا، إلا أن قوة المنتصرين وعلمهم وثقافتهم كانت عاجزة عن الوصول إلى هذه النتيجة المتواضعة. فقد ظلوا يعيشون ليومهم دون التفكير بالغد، وعندما دقت طبول الحرب العالمية الثانية، كان من الواجب أن نكتب عن الأبناء الذين حاربوا وقُتلوا بكل إخلاص:

كتف إلى كتف، وجنبا إلى جنب

اجتازوا نور الحياة المشرقة.

الفصل الثاني

ظهور هتلر

يقول تشرشل في مذكراته: في شهر تشرين الأول عام 1918 كان العريف الألماني ادولف هتلر طريح الفراش في إحدى المستشفيات بعد أن أصيب بالعمى المؤقت من قنبلة الغاز، في إحدى المعارك التي شنتها القوات البريطانية بالقرب من كوفنر، وبينما كان طريح الفراش في المستشفى حلت الهزيمة بألمانيا وعمت الثورة البلاد.

كان هذا العريف أبنا لموظف من موظفي الجمرك نمساوي الأصل، وكانت الأحلام تراوده بأن يصبح فنانا عظيما، لكنه بعد أن فشل في الالتحاق بأكاديمية الفنون في فينا، اضطر إلى البقاء في العاصمة فقيرا سيء الحال. وما لبث أن غادرها إلى ميونيخ وعمل هناك كدهان، وكعامل مؤقت، وعاش حياة شقية يغذيها الحقد على العالم كله، والنقمة عليه لأنه حرمه من نعمة النجاح، إلا أن الشقاء والفقر لم يدفعا به إلى أحضان الشيوعية، بل ظل يقدس الولاء العنصري الذي كان يتملكه بالإضافة إلى إعجابه الشديد بألمانيا وبالشعب الألماني. وقد التحق بالجيش الألماني عند نشوب الحرب العالمية الأولى، وبقي لمدة أربع سنوات في الجبهة الغربية ملتحقا مع أحد الأفواج البافارية.

وعندما كان في مستشفاه في شتاء عام 1918. بدى له فشله السابق وكأنه اختلط مع الكارثة التي حلت بالشعب الألماني كله، فسادته نزعة عارمة من الحزن على نفسه وعلى شعبه، خاصة بعّد أن حلت الثورة وعمت

الفوضى جميع البلاد.

لم يتمكن ادولف هتلر من فهم أو من تفسير الأسباب التي أدت إلى هزيمة المانيا، إلا أنه كان متيقنا من ضروب الخيانة الشديدة التي طعنت الجيش الألماني من الخلف. وراح يفكر في تلك الأسباب العديدة التي أدت إلى الهزيمة من خلال تجاربه الشخصية، فهو قد اختلط بفئات عديدة متطرفة في فينا واستمع إلى قصص الغدر والخيانة الذي قام به عرق غريب آخر هو عدو لدود للشعب الجرماني العريق، ألا وهم اليهود. وهكذا تطورت نقمته الأولى المنصبة على الأغنياء والناجحين وتحولت إلى كراهية عارمة.

وعندما خرج من المستشفى، رأى بعينيه التي أبصرت النور من جديد نتائج ما خلفته الهزيمة وما يدور في المدينة من ملامح ثورة حمراء مرعبة، وشاهد السيارات تطوف بالمدينة، تلقي بالمنشورات وتطلق العيارات النارية على المتشردين من أبناء الشعب. ورأى زملاءه في الجيش يضعون الأشرطة الحمراء على أذرعهم، فوق بزاتهم العسكرية، ويهتفون بغضب شعارات غريبة تتنافى مع كل ما يعتقده ويؤمن به. وهكذا صدمته الحقيقة المرة، ورأى أن المانيا قد أصيبت بطعنة غادرة من الخلف، كان أبطالها من اليهود الذين امعنوا تقطيعا بها ليرغموها على الاستسلام بدسائسهم ومؤامراتهم ويؤيدهم في ذلك حلفاء لهم من البلاشفة ليتمموا تنفيذ مخططات ومؤامرات دولية يقوم بها المثقفون اليهود. وشعر بالواجب يحتم عليه بأن يخلص المانيا من هذا المرض الخبيث، والأخذ بالثأر من الذين الحقوا بها الإساءات العديدة، ثم النهوض بالشعب المتفوق إلى مستقبل أفضل.

وانطلق ادولف هتلر يصعد بخطى سريعة نحو القيادة والزعامة، يناصره

في ذلك ضباط فوجه. وفي مساء أحد الأيام من شهر أيلول عام 1919، ذهب لحضور إحدى اجتماعات حزب العمال الألمان في أحد المصانع، وسمع لأول مرة في حياته أناسا يتحدثون بما كان هو يؤمن به من خيانات اليهود ومجرمو شهر تشرين الثاني. الذين دفعوا بألمانيا إلى الهزيمة، فأنضم إلى هذا الحزب وخلال فترة بسيطة أصبح ادولف هتلر زعيم الحزب الأول. وغدا يحمل لقب الزعيم أو «الفوهرر» وأصدر جريدة تنطق باسم حزبه هي جريدة «الفولكشاير بيوختر».

إلا أن الشيوعيين لم يقفوا مكتوفي الأيدي، فحاولوا تحطيم حزبه وتفريق اجتماعاته الناجحة. واضطر هتلر إلى إنشاء حرس لصد الهجمات الشيوعية، ونشأت بذلك الوحدات الأولى لقوات العاصفة، وكان نشاطه محصورا في تلك اللحظة على بافاريا فقط، وكان الجميع في كافة أنحاء الرايخ الألماني كانوا يستمعون بشغف لتعاليم هذا الإنجيل الجديد. فقد كانت النقمة على الأوضاع الحالية تعم المانيا كلها. وأدت موجة الغضب التي عصفت بالشعب كله من احتلال فرنسا للروهر عام 1923 إلى انضمام الألوف من أبناء الشعب إلى الحزب الجديد الذي أصبح إسمه «الحزب الاشتراكي الوطني».

ومنذ البداية وضع لهتلر، أن السبيل الوحيد للوصول إلى الحكم هو في الثورة والعنف ضد حكم (ويمار) وجمهوريته التي خُلقت في عار الهزيمة.

وانضم إلى دعوة الفوهرر فئة ضمت بين صفوفها، غورنغ وهيس وروزنبرغ، الذين اتفقوا على وجوب استلام السلطة في بافاريا، وانضم إليهم الجنرال فون لودندورف الذي كان رئيس أركان الجيش الألماني أثناء الحرب الأولى وسار على رأس قوة مجهزة لاحتلال بافاريا. إلا أن رجال

الأمن من شدة احترامهم للجنرال لم يطلقوا عليه النار بل اكتفوا بالتصويب على المتظاهرين، وتمكنوا من اعتقال فئة كبيرة منهم ومن بينهم هتلر نفسه الذي حوكم وحكم عليه بالسجن لمدة أربعة سنوات، خفضت إلى ثلاثة عشر شهرا. وفي سجنه هذا تمكن من تأليف القسم الأكبر من كتابه «كفاحي» الذي أصبح فيما بعد من أهم الكتب التي أقبل على قراءتها قادة الدول الحليفة وزعمائها العسكريين.

وفي عام 1924 خرج هتلر من السجن وصرح أنه لن يتمكن من إعادة تنظيم حزبه قبل خمس سنوات. وفي عام 1928 لم يكن لحزبه في البرلمان الألماني سوى اثنى عشر مقعدا. ومن ثم ابتداء الرقم بالارتفاع إلى أن أصبح البرلمان في عام 1932 يضم 230 عضوا من الحزب، كما أصبحت الدولة الألمانية كلها خاضعة لنفوذ الحزب الاشتراكي الألماني، وبدأت حركة الاضطهاد بمختلف أنواعها وانصبت النقمة كلها على رؤوس اليهود انتقاما لما اقترفوه في السابق من جرائم وخيانات ودسائس.

وما أن أطل عام 1932 حتى وصل هتلر إلى سدة الحكم، أولا كمستشار لألمانيا. وكانت أولى أعماله أن أصدر أمرا يمنع فيه الحزب الشيوعي من العمل في البلاد. وبدأت حملة قوية عمت البلاد كلها لمصادرة الأسلحة من أيدي الشيوعيين. ونشبت الاضطرابات وبلغت ذروتها حين هب حريق في دار الرايشستاغ، فاستدعت فرق رجال القمصان السوداء للعمل وللمحافظة على الأمن. وفي نفس الليلة تم اعتقال أربعة الاف زعيم شيوعي ومن بينهم أعضاء اللجنة المركزية التابعة للحزب الشيوعي. وكان غورنغ الآمر لهذه الإجراءات كلها بعد أن أصبح وزيرا للداخلية، وبذلك يكون قد أمن هزيمة الشيوعيين خصوم الحزب الاشتراكي الأشداء لكي تكون مقدمة للفوز

بالانتخابات الجديدة المقبلة.

وفي الانتخابات فاز النازيون ب 288 مقعدا في البرلمان واقترع إلى جانبهم 000، 300، 17 ناخب. وبذلك تمكن هتلر من السيطرة نهائيا. وفي الحادي والعشرين من شهر أذار عام 1923 افتتح هتلر أول مجلس للرايشستاغ في الرايخ الثالث، وجلس حوله كبار القادة، وضباط جيش العاصفة والحرس النازي الخاص الذين يمثلون المانيا الجديدة. وفي الرابع والعشرين من الشهر ذاته وافق الرايشستاغ على منح هتلر سلطات استثنائية لمدة أربع سنوات.

ويواصل تشرشل حديثه قائلاً: بينما كان هذا التغيير المخيف يجري في المانيا، كانت حكومتنا مضطرة إلى التخفيض والتقنين انسجاما مع الأوضاع والأزمات المالية الراهنة التي حدت من تسلحنا. وبقيت حكومة مكدونالد بالدوين مصمة أذانها عن سماع أو رؤية الأخطار المحدقة بنا نتيجة التغيرات في أوروبا. ثم حاولت الحكومة أن تطبق قوانين معاهدة فرساي القاضية بنزع السلاح من المنتصرين، فقدمت عدة مشاريع ومقترحات إلى عصبة الأمم لتضمن تطبيق هذه القوانين. كما أصرت فرنسا على وجوب بقاء جيشها الذي تعتبره محور حياتها ووجودها.

وقد شجعت هذه المحاولات، الحكومة الألمانية، وادعت أن هذا السلوك إنما هو نابع من صميم المجتمع البرلماني الديمقراطي الضعيف والمنحط بطبيعته. وراح الألمان بدافع من هتلر الذي أوحى إليهم بهذه الأفكار، يبدون أكثر عجرفة وكبرا. وما كان من أعضاء الوفد الألماني الذين حضروا مؤتمر نزع السلاح، إلا أن انسحبوا من الاجتماع في تموز عام 1933. وحاول الحلفاء مراضاة الألمان بشتى الوسائل إلى أن توصلوا

إلى إقرار مشروع (مشروع هريو)، وهو يقضي بإعادة تنظيم جميع القوات العسكرية الدفاعية في أوروبا، وجعلها جيوشا محدودة العدد، وفرض المشروع على وجوب تخفيض عدد الجيش الفرنسي من خمسمائة الف إلى مائتي الف جندي، بينما يترفع عدد الجيش الألماني إلى هذا الرقم، إلا أن الجيش الألماني قد أصبح عدده يجاوز المليون متطوع مجهز بأحدث الأسلحة التي تنتجها المصانع الألمانية التي تم تحويلها إلى مصانع للسلاح. وكانت النتيجة الغير منتظرة هي في الأوامر الصادرة عن هتلر والقاضية بالانسحاب من كل مؤتمر ومن عصبة الأمم.

لقد كان في وسع عصبة الأمم أن ترد على تحديات هتلر وتهديداته العسكرية، وذلك بفرض العقوبات عن طريق القانون الدولي. كما أن الحكومة الأمريكية لم تكن تكترث لهذه التهديدات إلى أن حان الوقت بعد عدة سنوات، فوجدوا أنفسهم عند ذلك مضطرين للتضحية بأرواحهم لينقذوا أنفسهم من الخطر المميت.

ويواصل تشرشل حديثه قائلاً: وفي مطلع عام 1931 سافرت برحلة إلى الولايات المتحدة الأميركية لإلقاء سلسلة محاضرات هناك. وفي نيويورك تعرضت لحادث سيارة كاد أن يودي بحياتي. فقد نزلت من سيارتي من الجانب المعاكس وعبرت الشارع الخامس، وكانت أنظمة السير المطبقة في أميركا وخاصة فيما يتعلق بالسير المعاكس والأضواء الحمراء التي لم يكن معمولا بها في بريطانيا في ذلك الحين.

وفجأة وقع اصطدام عنيف كانت نتيجته أن لازمت الفراش في المستشفى لمدة شهرين وأنا محطم شر تحطيم. ومر هذا العام وأنا بصحة سيئة للغاية، إلى أن بدأت استعيد صحتي تدريجيا بعد ذلك.

لقد كانت السنوات ما بين عام 1931 و 1935 من أمتع سنوات عمري، فقد انصرفت إلى التأليف وإلى إلقاء المحاضرات، وقد كسبت الكثير من عائدات مقالاتي وكتبي التي لاقت رواجا كبيرا في بريطانيا العظمى وفي الولايات المتحدة الأميركية، كذلك في القارة الأوروبية كلها.

وفي عام 1932 اضطررت للسفر إلى ميونيخ وذلك لمتابعة تأليف أحد كتبي عن تاريخ حياة مارلبورو. وقد أمضيت في ميونيخ حوالي الأسبوع، ونزلت في فندق ريجينا. وهناك تعرفت إلى شخص يدعى الهر هانغستانغل الذي كان من المتحمسين لهتلر والذي كان على علاقات طيبة معه. وقد دعوته في أحد الأيام لتناول العشاء معنا بعد أن أعجبتني لباقته. وأثناء العشاء حدثنا كثيرا عن هتلر وعن نشاطاته وأراءه، وكنت أشعر وأنا أصغي إليه، أن الرجل كان واقعا تحت سحر هتلر دون ريب. وقد علمت أن الأوامر قد صدرت إليه بالاعتناء بي. وبدا أنه يرغب في إدخال السرور والبهجة إلى نفسي. لقد كان الرجل لطيفا إلى أبعد الحدود، ومن المقربين إلى الفوهرر، وقد دعاني إلى الاجتماع به وتطوع إلى أعداد الموعد معه، إذ أن الفوهرر يتردد كل يوم إلى الفندق في الساعة الخامسة مساء، وسيسره الاجتماع بي شخصيا.

وفي ذلك الحين لم اكن أي عداء لهتلر بالذات، ولم اكن أعلم الكثير عن عقيدته وفلسفته وشخصيته، بل كنت معجبا به، لأنه تمكن من النهوض ببلاده بعد الهزيمة المنكرة التي لحقت بها. وفي أثناء حديثي مع الهر هانغستانغل تطرقت إلى الحديث عن اليهود بشكل لاحظت أنه لم يكن راضيا عنه، وفي اليوم التالي عندما اجتمعت به للمرة الثانية قال لي أن الفوهرر لن يتمكن من الاجتماع بي، فهو لن يأتي إلى الفندق في هذا اليوم. وكانت هذه أخر مرة رأيت فيها «بوتزي» وهو اسمه الصغير. بالرغم من أنني

أمضيت عدة أيام أخرى في الفندق. وهكذا أضاع هتلر فرصته الوحيدة في مقابلتي، وفيما بعد تلقيت عدة دعوات من الفوهر، بعد أن أصبح في ذروة القمة، لكني كنت أعتذر عن قبولها، لأن أشياء عديدة حدثت أثناء ذلك.

أما في الشرق الأقصى، فكان الاستعداد للحرب ينبع من اليابان بصورة خاصة. فقد أثرت الأزمة الاقتصادية عليها بين عامي 1929 و 1931 بشكل كبير. فقد ارتفع عدد سكانها من خمسين مليونا إلى سبعين مليونا وازدادت أعداد مصانعها من خمسين إلى مئة وثمانية وأربعين مصنعا، كما ارتفعت نسبة المعيشة. وبقي أنتاج الأرز على ما هو فيما كان استيراده من الخارج باهظ التكاليف. واشتدت الحاجة إلى المواد الأولية وإلى الأسواق الخارجية فاضطرت بريطانيا وأربعون دولة أخرى إلى زيادة التعريفة الجمركية العالمية على البضائع المستوردة من اليابان، لمواجهة الكارثة الاقتصادية، خوفا من طغيان تلك البضائع على البضاعة الوطنية. فتحولت أنظار اليابان إلى الصين السوق الرئيسي لتصريف منتجاتها من القطن، وبالإضافة إلى كونها المورد الوحيد لاحتياجاتها الهائلة إلى الفحم والحديد. لذلك أصبحت السياسة اليابانية تقضي بفرض السيطرة على الصين ووضعها تحت إشرافها وسيطرتها واختلقت اليابان عذرا تافها وانقضت على منشوريا واحتلت منطقة سكة الحديد، ثم طاليت بحل المنظمات الصينية المعادية لليابان. إلا أن الحكومة الصينية رفضت هذا الطلب، فأنزلت اليابان قواتها إلى المنطقة الشمالية من شنغهاي، وقد قاوم الصينيون ببسالة لمدة شهر واحد، إلا أنهم اضطروا بعد ذلك إلى الانسحاب، وتقدمت القوات اليابانية متوغلة في داخل الصين إلى أن بلغت سورها العظيم، ومن ذلك الوقت بدأت الاستعدادات اليابانية تزداد وتقوى، خاصة قواتها البحرية.

الفصل الثالث

المنظر القاتم

يتحدث تشرشل في هذا الفصل عن هتلر وموسوليني فيقول:

لقد كانت فكرة احتلال النمسا تراود مخيلة هتلر منذ البداية، فقد كتب في كتابه كفاحي العبارة التالية وفي الصفحة الأولى منه (يجب على النمسا الألمانية أن تعود إلى الوطن الأم الكبير»، لذلك فقد كانت النظرات الأولى تتجه نحو فينا منذ تسلم الحكومة النازية السلطة في عام 1933 ...

إلا أن هتلر كان يخشى الاصطدام مع موسوليني الذي كان يطمح ويطالب بمصالحه في النمسا، خاصة وأن الدوتشي لم يكن متحمسا لوصول هتلر إلى سدة الحكم. لذلك فقد تحتم على المانيا أن تكون على حذر شديد في أعمالها ونشاطاتها السرية، وبالرغم من ذلك فقد بدأ الضغط على النمسا يظهر منذ الشهور الأولى. وراح الحزب النازي يطالب الحكومة النمساوية بشدة بوجوب إدخال أعضاء من الحزب النمسوي النازي في الوزارة وفي المراكز الحساسة في الدولة، وبدأ النمساويون النازيون يتلقون التدريبات العسكرية في معسكرات أعدت خصيصا لهم في بافاريا. وراحت الطائرات الألمانية تلقي المنشورات على سالزبورج واينزبروك، والتي كانت تنغص عيش الجمهورية الوادعة.

وفي عام 1934 وصل كبير مستشاري موسوليني في الشئون الخارجية إلى فينا، وكانت زيارته بمثابة تحذير للحكومة الألمانية، وما لبث أن صرح أن إيطاليا تؤيد استقلال النمسا وتحافظ عليه، ولم تمض أسابيع ثلاثة على

هذا الزيارة، حتى قامت الحكومة النمساوية بسلسلة من الإجراءات ضد الأحزاب الاشتراكية في فينا، وقامت بعد ذلك بحملة عنيفة لنزع السلاح من أيدي المنظمات الشبه عسكرية التابعة للاشتراكيين النمساويين، وأسفرت هذه الحملة عن اصطدامات عنيفة بين الأحزاب والقوات الحكومية، وأدت إلى انهزام الاشتراكيين، كما أدت إلى تقوية مركز إيطاليا في صد تسلل النازيين وتآمرهم. إلا أن عددا كبيرا من الاشتراكيين والشيوعيين انضموا إلى المعسكر النازي، كتعبير عن سخطهم الشديد. وأدى ذلك بمجموعة إلى تقوية النازيين والنازية.

وفي شهر حزيران من العام نفسه، طار موسوليني إلى البندقية لمقابلة الفوهر لأول مرة في حياته، وعندما نزل هتلر من طائرته فوجئ بمظاهرة عسكرية يرأسها الدوتشي بنفسه وهو يتألق ببزة عسكرية أنيقة. وكانت أول كلمة قالها موسوليني لمرافقه حين رأى هتلر «لم أحب شكل هذا الرجل». وقد جرى الاتفاق في هذه المقابلة على تخفيف حدة الضغط على حكومة النمسا، وقد اكد له هتلر ذلك بوعود قاطعة.

ولم تكن هذه التأكيدات أو هذا التوقف، بسبب من مداخلات موسوليني، بل بسبب انشغال هتلر بمشاغل داخلية محضة.

ويواصل تشرشل حديثه قائلاً: نشبت الخلافات بين هتلر وبين الذين حملوه إلى سدة الحكم. وكان جيش الصاعقة يمثل الفئة الثورية في الحزب، تحت قيادة روهم. وفي ربيع عام 1934 بلغ عدد أفراد هذا الجيش ثلاثة ملايين مجند من ذوي القمصان البنية. وشعر هتلر بالقلق نتيجة لهذا النمو الهائل، بالرغم من يقينه بولاء جميع أفراد هذا الجيش، وتعلقهم بشخصه، وكان يردد أمام قادة جيشه هذا بأنه سوف يقاوم ويقمع

أية محاولة لتغيير نظام الحكم القائم بمنتهى الشدة والبطش، وأن كل من يجرؤ على رفع رأسه ضد الدولة فسيحطمه بكل شدة وقسوة. وكانت هواجس هتلر ومخاوفه صحيحة، إذ أن (روهم) قائد جيش الصاعقة، بدأ محاولة للإطاحة بحكم هتلر. وفي كانون الأول من العام نفسه، عندما أعلنت الوحدة بين الحزب والدولة، غدا روهم عضوا في مجلس الوزراء وبحث في أمر دمج ذوي القمصان البنية مع بقية أفراد الجيش النظامي. إلا أن (روهم) خاف من التضحية بجيشه الذي مضى السنين الطويلة في إنشائه، ومن ذلك الوقت بدأ الخلاف يذر قرنية بين روهم ورئيس الأركان الجنرال فون بلومبرغ، الذي كان يبدي تذمره الشديد أمام الفوهرر من تصرفات ذوي القمصان البنية الحمقاء، وكان على هتلر أن يختار بين أمرين اثنين إما التضحية بقادة جيشه المنظم أو بقادة جيش الصاعقة الذي رفعه إلى قمة المجد. وأخيرا قرر التضحية بقادة جيش الصاعقة واستدعى (روهم) واجتمع به لمدة خمس ساعات حاول خلالها التفاهم مع (روهم) المتعصب الشاذ دون جدوى..

وكانت قد تألفت من جيش الصاعقة فرقا جديدة من ذوي القمصان السود، ليكونوا بمثابة الحرس الخاص للفوهر وللقيام بالمهام السرية الخطرة، وقد تولى قيادة هذه الفرق الجديدة هنريك هملر!

وهنا تختلف الأقاويل عن الأسباب التي جعلت هتلر يقوم بضربته القوية ضد (روهم) ورفاقه. فمنهم من كان يقول أنه بسبب وجود مؤامرة تحاك ضده، ومنهم من كان يقول أن الفوهر أراد القيام بحركة تطهير شاملة وهو لا يزال في أوج عظمته وجبروته، وعلى كل حال، فقد تطورت الأحداث في يوم الخامس والعشرين من شهر حزيران، إذ طلب هتلر من رجال الجيش البقاء

في ثكناتهم ثم قام بتوزيع السلاح والعتاد على أفراد الحرس الخاص من ذوي القمصان السود، وبنفس الوقت اصدر لذوي القمصان البنية ليكونوا على أهبة الاستعداد، وطلب من جميع قادة جيش الصاعقة الحضور إلى اجتماع يعقد في الثلاثين من شهر حزيران. وترددت شائعات، وصلت إلى هتلر، تقول أن (روهم) يحاول القيام بثورة. عندئذ قرر هتلر القيام بعمل سريع يقضي به على خصومه دفعة واحدة، فأمر غورنغ بالدخول إلى برلين والسيطرة عليها، وطار هو إلى ميونيخ ليقوم بمفاجئة خصومه شخصيا ويعتقلهم بنفسه يساعده في ذلك اثنا عشر رجلا من ذوي القمصان السود. وما أن وصل إلى مقر قيادة جيش الصاعقة، حتى فاجأ كبار القادة بنبأ اعتقالهم، ثم استقل سيارة يرافقه هذا العدد القليل من الحرس واتجه إلى ويبسي حيث كان (روهم). فوصل إلى هناك في تمام السابعة صباحا.

ترجل هتلر من سيارته واتجه إلى المنزل وحيدا دون سلاح واقتحم غرفة نوم (روهم) الذي أذهلته المفاجأة الشديدة، وتم اعتقاله مع عدد من أركان حربه. وعاد الجميع من الأسرى إلى ميونيخ، حيث وضعوا جميعهم في نفس السجن الذي اعتقل فيه هتلر قبل عشر سنين. وفي نفس اليوم بدأ تنفيذ حكم الإعدام بجميع المعتقلين دون استثناء واستمرت عملية الإعدام طيلة بعد الظهر، وقد أمر هتلر بتغيير الفرق التي كانت تقوم بمهمة الإعدام، بسبب الإجهاد العقلي الذي أصابهم نتيجة للوحشية التي تم فيها تنفيذ حكم الإعدام.

وفي برلين تمت نفس العملية التي جرت في ميونيخ، فقد قام غورنغ بتنفيذ حكم الإعدام بجميع الذين اعتقلهم، وبلغ عدد الذين اعدموا في ذلك اليوم سبعة الاف شخص!!

ورجع هتلر إلى برلين حيث اطل من شرفة دار المستشارية ليتلقى هتافات الجماهير، التي كانت تعتقد أن الفوهر كان ضحية مؤامرة رهيبة خرج منها سالما بفضل قوته وسرعة بديهته. وهكذا تمكن هتلر بفضل هذه المجزرة الرهيبة من تثبيت أسس حكمه وترسيخ عقيدته، كما حافظ على وحدة المانيا الاشتراكية الوطنية، لتحمل لعنتها تلك إلى العالم بأسره...

وأظهرت هذه المذبحة أن الفوهر لن يردعه أي شيء عن تنفيذ كل ما يريده، وبدت الأوضاع القائمة، بالنسبة للعالم الخارجي، أوضاعا لا يمكن وصفها بالأوضاع المتمدنة. وأصبح على هذا العالم أن يواجه حكما دكتاتوريا يقوم على الإرهاب وسفك الدماء.

نشطت الحركة بين بافاريا والحدود النمساوية في شهر تموز من عام 1934، وبدأ الإعداد للثورة وقلب نظام الحكم فيها. وفي صباح الخامس والعشرين من الشهر نفسه غدت الثورة واضحة إذ دخلت جماعة من المسلحين دار المستشارية، وقتلوا الرئيس دلفوس، كما استولت فصيلة أخرى من الثوار النازيين على دار الإذاعة وأعلنت حل حكومة الرئيس دلفوس، وتعيين رينتلين رئيسا جديدا. إلا أن هذا الانقلاب المفاجئ لم يعمر طويلا، إذ قام رئيس الجمهورية بالرد على الحركة الانقلابية، أيده في ذلك موسوليني من إيطاليا وأرسل ثلاث فرق عسكرية إلى ممر برينر، مما اضطر هتلر إلى التراجع، وطلب من وزير المانيا المفوض وبعض الذين اشتركوا في المؤامرة الرجوع إلى بلادهم فورا حيث فصلهم من الخدمة، وبذلك انهى المحاولة الأولى للإطاحة باستقلال دولة النمسا.

وقد قربت هذه الأحداث بين إيطاليا وفرنسا، فقد أدى هذا التهديد لاستقلال النمسا إلى إعادة النظر في العلاقات بين فرنسا وإيطاليا. كما

شملت موضوع توازن القوى وأوضاع فرنسا وإيطاليا بالنسبة إلى جنوب إيطاليا الشرقي. وكان هدف موسوليني الحفاظ على مصالح إيطاليا الاستعمارية في أفريقيا، بالإضافة إلى تقوية مركزه في أوروبا ضد التهديدات الألمانية.

أما فرنسا التي كانت ترغب منذ وقت طويل في الوصول إلى اتفاق رسمي حول إجراءات الأمن والسلامة في الشرق. إلا أن تردد بريطانيا في التورط بأية تعهدات وراء الراين، ورفضها عقد محالفات مع بولندا وتشيكوسلوفاكيا، كما أن مخاوف دول التحالف الصغيرة من نوايا الروس ومطامحها، بالإضافة إلى شكوك روسيا في الغرب. كل هذا أدى إلى فشل برامج فرنسا، إلا أن السيد بارتو وزير خارجيتها عزم على المضي في برنامجه وأتبع برنامجا يقضي بعقد اتفاق يضم المانيا وروسيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ودول البلطيق، تقوم فيه فرنسا بضمان حدود روسيا في أوروبا، وتضمن روسيا حدود المانيا الشرقية. إلا أن المانيا وبولندا عارضتا الفكرة، لكن بارتو نجح في إقناع روسيا بوجوب الدخول إلى عصبة الأمم.

وكان هدف فرنسا الأول هو البحث عن حلفاء جدد ضد المانيا، فاتجهت نحو روسيا محاولة أن تبعث فكرة توازن القوى التي كانت قائمة قبيل الحرب العالمية الأولى، إلا أن مأساة وقعت في شهر تشرين الأول حين دعى الملك الكسندر اليوغوسلافي لزيارة رسمية إلى باريس. وعندما نزل في مرسيليا، كان في استقباله المسيو بارتو والجنرال جورج، بينما كانت الجماهير محتشدة في الشوارع تهتف معربة عن فرحها الكبير. وفجأة ظهر شخص من بين الحشود وتسلق سيارة الملك واطلق عليه الرصاص من مسدس كان يحمله، وهجمت الحرس عليه وأمعنت فيه ضربا بالسيوف وقطعته إربا. وقد قتل الملك على الفور، وأصيب المسيو بارتو

والجنرال جورج بإصابات بالغة، ولم يتمكن الوزير بارتو من المقاومة فتوفي بعد بضع ساعات. وبوفاته أصيبت السياسة الخارجية الفرنسية بضربة قاصمة، وخلفه في الوزارة بيير لافال.

ويواصل تشرشل حديثه قائلاً: إن تاريخ لافال المشين اللاحق، ومصيره لن يحولا بيننا وبين الإعراب عن حقيقة قوته الشخصية وقدرته. فقد كانت وجهة نظره صافية وصلبة، فهو قد آمن بضرورة تجنب الحرب، خاصة بالنسبة لفرنسا، وهدف إلى إجراء ترتيبات مع حكام المانيا وإيطاليا، اللذين لا يحمل ضدهما أي ضغينة. وكان لا يثق بروسيا ونواياها، كما أنه كان لا يحب بريطانيا، بالرغم من مظاهر الصداقة التي كان يظهرها تجاهها، وكان يعتقد بأنها حليف لا نفع منه. لذلك قرر الابتداء بالتفاهم مع إيطاليا، سيما وأن الخوف من المانيا أصبح كبيرا جدا، إلا أنها كانت مستعدة للتساهل طمعا في كسب صداقة إيطاليا.. وسافر في كانون الثاني عام 1935 إلى روما حيث عقد عدة اتفاقات بين الدولتين لإزالة العقبات التي تعترض طريق التفاهم بينهما، وخاصة الاتفاق حول معارضة إعادة تسليح المانيا. وتعهدت فرنسا بالتساهل مع الإيطاليين في تونس، كما سلمت لإيطاليا مساحات شاسعة من الأراضي الواقعة على حدود ليبيا والصومال، وإعطاء إيطاليا نسبة 20% من عائدات سكة حديد جيبوتي- أديس أبابا، وكان من المقرر أن تكون هذه الاتفاقات بداية محادثات رسمية تشمل فرنسا وإيطاليا وبريطانيا العظمى، لإقامة جبهة تقف في وجه الخطر الألماني المتزايد، إلا أن الصدام بين الجنود الإيطاليين والحبشيين على حدود الحبشة والصومال الإيطالي، كان الحجة التي استخدمتها إيطاليا في المطالب التي وجهتها إلى الحبشة، وهكذا أدى مصير الحبشة إلى اضطراب فكرة التضييق على المانيا وحصرها في القارة الأوروبية.

الفصل الرابع

فقدان التوازن الجوي والعقوبات ضد إيطاليا

يتحدث تشرشل في هذا الفصل عن التسليح الألماني والموقف العسكري فيقول: لم تكن المانيا تعتقد أن في إمكانها إعادة تسليح جيشها تسليحا كاملا متفوقا قبل عام 1943، إلا أن الاكتشافات العلمية الحديثة، وخاصة اختراع الألة ذات الاندفاع الداخلي، وتقدم فن الطيران، جعلا من مسألة التفوق العسكري والقوة العسكرية أمرا يتوقف على جهود الدولة في ميدان العلم العسكري والقوة العسكرية أمرا يتوقف على جهود الدولة في ميدان العلم والمعرفة. وكانت المانيا تتمتع بإمكانات ضخمة في هذه الميادين، فتمكنت المانيا من خلق هيكل سلاح جوي في الجيش، بعد أن كان محروما من هذه القوة الجوية الهامة. ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت أمام أعيننا الحقيقة المرعبة فقد توصل هتلر إلى الرقم المعادل في عدد الطائرات، الذي وصلت إليه بريطانيا, ولم يتبق عليه إلا أن يصدر أوامره بزيادة الإنتاج والإسراع به كي يرفع من مستوى الطائرات الموجودة ويحسنها. وأصبحت لندن مهددة من الجو. ووجب علينا أن تأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة الثابتة في جميع القرارات التي تتخذها، إذ لم يعد في إمكاننا اللحاق بألمانيا، إلا أننا بذلنا مجهودات ضخمة جبارة، وحلقت في سماء العاصمة طائرات «الهاريكين» و «السبيتفاير» في عام 1935،

إلا أن العدد لا يزال ضئيلا، وعندما نشبت الحرب شعرنا بتفوق السلاح الجوي الألماني الذي بلغ بمجموعة ضعف سلاحنا الجوي الملكي.

وفي اليوم التاسع من شهر أذار عام 1935 أعلن هتلر بصورة رسمية إنشاء السلاح الجوي الألماني، كما أعلن عن التجنيد الإجباري في جميع البلاد. وفي نفس الوقت أعلنت فرنسا تمديد مدة الخدمة العسكرية إلى سنتين. وشرعت المانيا في تنظيم جيشها على أسس حديثة. كما أصبح الجيش تابعا للفوهرر مباشرة، وغدا القائد الأعلى له، وأصبح على كل جندي أن يحلف يمين الولاء لهتلر لا للدستور، كما أصبحت وزارة الحربية تابعة لأوامره مباشرة. واتخذت الإجراءات اللازمة لتدريب الشباب الألمان، فما أن ينشأ الولد حتى ينضم إلى شبيبة هتلر التي تضم جميع أولاد المانيا، ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الحرس النازي بعد أن يبلغوا سن الثامنة عشرة ويعملوا فيه لمدة سنتين. وعندما يصبح الشاب في سن العشرين يفرض عليه تأدية الخدمة العسكرية لمدة ستة أشهر يقضيها في شق الطرق وبناء المعسكرات وتجفيف المستنقعات، وبعد ذلك ينتقل للعمل مع القوات المسلحة.

وفي الخامس عشر من تشرين الأول عام 1935 افتتح هتلر كلية أركان الحرب الألمانية، وبدأ بذلك الأعداد الكبير لتدريب الجيش وتوسيع صفوفه..

كما استعديت الفئة الأولى من مواليد عام 1914 للخدمة العسكرية حيث تقرر أعداد وتدريب 596 الف رجل على فنون القتال. وهكذا قفز رقم الجيش الألماني إلى 700 الف رجل، إلا أن هذه الأرقام المخيفة لم تبلغ بعد عدد وقوة الجيش الفرنسي واحتياطيه الكبير. وكان بالإمكان حتى هذا التاريخ اتخاذ قرار من جانب عصبة الأمم لوقف هذه العمليات الرهيبة المخالفة لمعاهدات الصلح واتفاقاته. كما كان بالإمكان تقديم

المانيا إلى المحاكمة أمام هيئة دولية، تقدم فيه بيانا عن تسلحها وتسمح للجان الحلفاء بالتحقيق في هذه الأوضاع. أما في حالة رفضها الإذعان لهذه الإجراءات، تقوم الجيوش الحليفة باحتلال جميع المنافذ والمعابر على نهر الراين حتى يضمن الحلفاء تنفيذ المانيا لتعهداتها. وبذلك يصبح بالإمكان تأجيل وقوع الحرب العالمية الثانية إلى أجل غير مسمى...



كانت الضربة الثانية للسلام العالمي، بعد خسارة بريطانيا للتعادل الجوي، حين انتقلت إيطاليا إلى جانب المانيا. وبذلك تمكن هتلر من التقدم في طريقه نحو القتال، فبعد أن ساعد موسوليني النمسا على الحفاظ على استقلالها، قرر أن ينتقل إلى الجانب الآخر. ولم تعد المانيا وحيدة في الميدان العسكري بفضل أطماع ديكتاتورية إيطاليا لتوسيع رقعة إمبراطوريته التي شرع في إنشائها.

وقد ظهرت جلية استعدادات موسوليني لاحتلال الحبشة، بعد مؤتمر ستريزا. وكان من الواضح أن الرأي العام البريطاني سيعارض مثل هذا الاعتداء الصارخ. كما أن البعض كان يجد في هذه المعارضة تشجيعا لإيطاليا في المضي نحو المانيا، خاصة وهي الدولة المعتبرة من الدول الكبرى، فبانضمامها إلى المانيا ستخسر بريطانيا حليفا مهما.

ويواصل تشرشل حديثه قائلاً: ولا ازال أذكر الحديث الذي جرى بيني وبين المستر دف كوبر حول هذا التبدل في الميزان الأوروبي الذي جاء معاكسا لمصالحنا، وقد اقترح البعض أن تؤلف وفدا لمقابلة موسوليني يشرح له النتائج التي ستؤدي إليها حركته في بريطانيا. وبالطبع لم يؤلف هذا الوفد، فلم يكن هذا سيؤدي إلى أي نتيجة، فقد كان موسوليني يعتقد

أن بريطانيا أصبحت عجوزا ضعيفة لا تستطيع القيام بأي عمل حربي عدا الصراخ والضجيج.

وكانت وجهة نظري في هذا المسألة هي في حمل القضية إلى عصبة الأمم ضد إيطاليا، ومطالبة فرنسا بتأييدنا، إلا أنني حذرت من الضغط عليها، وذلك بسبب ارتباطاتها مع إيطاليا، وانشغالها في المشكلة الألمانية، كما أنني نصحت بعدم تزعم هذه القضية والتحمس لها، وذلك بسبب خوفي من المانيا ومن الأوضاع التي وصلت إليها أجهزتها الدفاعية... إلا أن الحكومة وقفت موقفا مكشوفا وصرحت بأن بريطانيا ستقف إلى جانب التزاماتها وإلى جانب ميثاق عصبة الأمم. وسافر بعد ذلك وزير الخارجية إلى جنيف ليجمع تأييد الدول الأعضاء في عصبة الأمم لفرض عقوبات على إيطاليا، إذا هي قامت بضرب الحبشة. وكانت هذه العقوبات تعني قطع المساعدات المالية، والمواد الاقتصادية عن إيطاليا، وتزويد الحبشة بها. وكانت هذه العقوبات شديدة الخطورة على إيطاليا التي تعتمد على استيراد البضائع التي تحتاج إليها في الحرب، من الخارج.

وفي الثاني عشر من شهر أيلول وصلت البارجتان البريطانيتان «هود» و «ريناون» إلى جبل طارق بالإضافة إلى سرب من الطاردات والمدمرات.

كما اتخذت عصبة الأمم قرارا بأغلبية خمسين صوتا يقضي باتخاذ إجراءات جماعية ضد إيطاليا، وعينت لجنة قوامها ثمانية عشر عضوا لتقوم بمحاولة أخيرة للوصول إلى حد سلمي. وعندما اصدر موسوليني بيانه التاريخي بقوله: «أن إيطاليا ستواجه العقوبات بالنظام والاقتصاد والتضحية» إلا أنه أضاف أن إيطاليا إذا وجدت أن هذه العقوبات ستعرقل برنامجه لغزو الحبشة فسيشن الحرب على كل دولة تقف في طريقه، وقد

أضاف معلقا على قرار عصبة الأمم بقوله «خمسون دولة، نعن هذا الدول كلها تقودها دولة واحدة!



ويواصل تشرشل حديثه قائلاً: أثار سفك الدماء في ابسينيا، والكراهية للفاشية وتطبيق العقوبات من قبل عصبة الأمم، هياج الطبقات العاملة في بريطانيا، وحزب العمال البريطاني. ولم يكن النقابيون وعلى رأسهم المستر أرنست بيفن ميالين إلى المهادنة والسلام، واجتاحت الرغبة العازمة في محاربة الدكتاتور الإيطالي، وتطبيق أقصى العقوبات عليه، وتدخل الأسطول البريطاني إذا لزم الأمر. وكان عدد كبير من أعضاء مجلس العموم يشاطر النقابات رأيها في هذا الصدد. واستقبال مستر لانسبوري من رئاسة الكتلة البريطانية لحزب العمال، وتولى الميجور اتلي الرئاسة خلفا له.

وفي هذ الوقت حل البرلمان وأجريت انتخابات جديدة، واعلن رئيس الوزراء أن العقوبات تعني أولا الحرب لكنه كان مصمما على أن لا تكون هناك حرب، إلا أنه مصمم في نفس الوقت على العقوبات. وتجنب عصبة الأمم، بطلب من بريطانيا، فرض العقوبات خوفا من استفزاز إيطاليا وإكراهها على الحرب. فاكتفت بمنع بعض السلع من الوصول إلى إيطاليا وبعض المواد الحربية، ولم تقطع الزيت عنها واستمر في الوصول إليها بكل حرية. إذ أن قطعه يعني الحرب بصورة قاطعة. وكان من جملة السلع الممنوعة، تصدير الألومنيوم. إلا أن هذا المعدن كانت إيطاليا تنتجه بشكل ضخم يفوق حاجاتها. وبالإجمال كانت العقوبات المفروضة لا تعتبر عقوبات بالمعنى الصحيح، يقصد منها شل حركة المعتدين ومنعهم من العدوان.

أما بالنسبة لبريطانيا فقد كان بإمكانها منع إيطاليا من المرور في قناة

السويس، وأن تخوض معركة بحرية مع الأسطول الإيطالي، بالرغم من أن بوارجنا كانت قديمة، وأن الأسطول يفتقر إلى المدافع المضادة للطائرات كما يفتقر إلى الغطاء الجوي الضروري. إلا أنه باستطاعتنا قطع الإمدادات والموصلات الإيطالية مع الحبشة. وكنت واثقا من أن موسوليني لم يكن ليجرؤ على الاشتباك مع قواتنا، فقد كان العالم كله ضده في ذلك الوقت، وكان من المنتظر أن يتعرض حكمه للخطر، في حالة خوضه غمار الحرب مع بريطانيا، إلا أننا قد اقطعنا شوطا بعيدا في هذه المرحلة، ومن العار أن تتراجع الآن. لكن الحقيقة كانت ظاهرة في حب الحكومة الحاضرة للسلام والحفاظ عليه، هذا الحب الذي جر العالم إلى حرب أكثر فظاعة.

لقد أدى سقوط البلاد الحبشية وضمها إلى الممتلكات الإيطالية، إلى نتائج إيجابية في المانيا، فقد بدا الأعجاب بموسوليني وطريقته الفذة السريعة التي أنهت فيها إيطاليا الحملة على الحبشة. وكان الرأي العام السائد أن بريطانيا خرجت من هذا الأزمة مقهورة ضعيفة. وقال أحد ممثلينا في بلغاريا: «إن إشارات الاحتقار لبريطانيا أصبحت ظاهرة سافرة في جميع الأوساط.

وهذا مما جعل المانيا تتصلب في مواقفها للتفاوض لإيجاد تسوية في أوروبا الغربية وتسوية أكبر لجميع الشؤون الأوروبية والعالمية». وكانت هذه الأقوال صحيحة تماما. فقد تولت حكومة جلالته، دون تفكير بالأمر، زعامة خمسين دولة للتعبير عن الشجاعة لوقف إيطاليا عند حدها. وما أن واجهت الحقائق القاسية حتى تراجعت الحكومة عن موقفها الشجاع وتخاذلت. وبذلك أصابت عصبة الأمم بخيبة أمل كبيرة وألحقت بها أشد الأضرار.

الفصل الخامس

هتلر يضرب

يتحدث تشرشل في هذا الفصل عن عصبة الأمم وهتلر فقال:.

لقد كان الاحتلال الوحشي للحبشة، الصدمة القوية التي أحسن بها الشعب البريطاني من اتفاق (هور- لافال) وفشل عصبة الأمم من العوامل التي غيرت أوضاع حزب العمال وحزب الأحرار بالإضافة إلى الرأي العام الحسن النية. وبدت فكرة قبول نشوب الحرب ضد الطغيان الفاشي والنازي تلاقي صدى حسنا في النفوس، حتى الذين يحبون السلام ويعتزون بالمهادنة. وبالرغم من معارضة حزبي المعارضة لجميع الإجراءات المؤدية إلى إعادة التسلح، إلا أن مجال الاتفاق كان واسعا، ولو حاولت حكومة جلالته أن ترتفع إلى مستوى الأحداث، لتمكنت من تزعم جبهة شعبية متحدة، تقودها في طريق حملة قوية للتأهب والاستعداد لمواجهة هتلر، إلا أن الحكومة بقيت متمسكة بسياسة الاعتدال وأنصاف الحلول. وقد اذهلني عدم اهتمامها بالبحث عن توحيد الانسجام الذي يسود صفوف الشعب. ولو أنها حاولت البحث عن هذا التوحيد، لقوت بذلك مركزها وكسبت قوة كانت ضرورية للبلاد.

أما بالنسبة لألمانيا، فقد أدى تسليحها من جديد إلى اقتراب موعد الحرب العالمية، واصبح نشوبها أمرا مؤكدا. فبعد أن تأخرنا عن توقيف هتلر عند حدوده، وبعد أن فرض هتلر الخدمة الإجبارية في الجيش، متحديا بذلك جميع المعاهدات. وبعد أن غفرت بريطانيا له هذا التحدي

العجيب، وعقدت معه اتفاقا وسمح له بإعادة بناء أسطوله البحري الذي يضم عددا من الغواصات يوازي عدد الغواصات البريطانية. وبعد أن صرحت المانيا بنفسها أنها آصبحت تملك سلاحا جويا يضاهي السلاح الجوي الملكي البريطاني بدأت الآن تدخل عامها الثاني في الاستعداد والعمل النشيط لإنتاج العتاد الحربي الرهيب. وأصبحت بريطانيا وأوروبا كلها، وأميركا التي كانت تعتقد أنها بعيدة عن الخطر، تواجه الآن قوة ضخمة منظمة، بالإضافة إلى التصميم على خوض حرب ضروس ضد سبعين مليونا من البشر.

وكانت من جملة بنود معاهدة فرساي، البنود القائلة بعدم السماح لألمانيا بإقامة تحصينات دفاعية على الجهة اليسرى من نهر الراين، وإلى خمسين كيلو مترا من الجهة اليمنى من النهر. كما أنها منعت أي وجود لقوات عسكرية المانية في هذه المنطقة. كما أن معاهدة لوكارنو التي نصت على حفظ الحدود القائمة بين المانيا وبلجيكا، وبين المانيا وفرنسا. وتعهد الفرقاء بعدم القيام بأي هجوم عبر هذه الحدود، وإذا ما خرقت إحدى الدول هذه الاتفاقات، فإن عملها هذا يعتبر عملا عدوانيا لم يسبقه استفزاز، ويتوجب على الدول المعتدى عليها أن تقوم بأعمال إنفراديه، وتنقل المشكلة إلى عصبة الأمم، وأن تطلب معونة الدول الأخرى الموقعة على هذه الاتفاقية.

وفي نفس اليوم الذي عهد فيه تسليم هذا الاقتراح لعقدة كميثاق يعمل به لمدة خمسة وعشرين عاما اعلن هتلر أنه قرر احتلال منطقة الراين، وزحفت القوات الألمانية فورا لتأخذ مواقعها على طول المنطقة وعرضها.

وهبت فرنسا تطلب العون من حلفائها، وتشكو أمرها إلى عصبة الأمم.

وكان من حق فرنسا أن تطالب بريطانيا بتنفيذ اتفاقها القاضي بحماية حدودها ضد أي اعتداء من المانيا، نتيجة للضغط الذي قمنا به في السابق لإجلائها عن منطقة الراين، وكان المسيو سارو، رئيس الوزراء، يرتأي إعلان التعبئة العامة فورا، إلا أنه لم ينفذ هذا الرأي قبل الحصول على موافقة بريطانيا عليه أولا. إلا أن حكومة جلالته أقنعت فرنسا بوجوب الانتظار، حتى تقوم الدولتان بعمل مشترك، بعد أن يتمكنا من دراسة الوضع دراسة شاملة وافية، أما الرد الغير رسمي، الذي أجابت به لندن، فقد بعث في نفسي القشعريرة، إذ سارع المستر لويدجورج إلى القول، أن جريمة هتلر الكبرى كانت في الاستفزاز لا في خرقه الفاضح للمعاهدة، وأنه كان يأمل بأننا سنبقي رؤوسنا منخفضة. كان الاستفزاز في الظاهر، هو فشل الحلفاء في نزع السلاح، اكثر مما فعلوا.

لقد أخطأت الحكومة الفرنسية في انصياعها لمشيئة بريطانيا وعرضها للمشكلة على عصبة الأمم، وهي التي أصبحت ضعيفة لا قيمة لها بعد فشلها الذريع في مهزلة العقوبات. فلو نفذت الحكومة الفرنسية تعبئتها العامة، وجهزت مائة فرقة لكانت تمكنت من حمل هتلر على التراجع والانسحاب، فقد كانت فرنسا في ذلك الوقت من القوة بحيث تتمكن وحدها من إرغام الألمان على الانسحاب.

وعندما اجتمع هتلر بقادته العسكريين بعد نجاح حملته في احتلال منطقة الراين، كان في رأيه أن يصارحهم بأن مخاوفهم السابقة كانت كاذبة، لكنه برهن لهم بعمله هذا أن أحكامه وأراءه الخاصة أهم وأقوى من أحكام القادة العسكرين، ولهذا أحنى القادة رؤوسهم له باحترام. وكانت الفرحة تغمرهم، كألمان مخلصين، حين رأوا أن بلادهم قد بدأت تستعيد

مكانتها السابقة في القارة الأوروبية بهذه السرعة الهائلة. بالإضافة إلى أن أعداءهم السابقين قد اصبحوا ممزقين مشتتين، وأعلن الفوهرر هتلر للعالم: لقد حققت المانيا جميع مطامحها الإقليمية..

وأصيبت فرنسا بالتفكك وسيطر على البلاد الخوف من الحرب، والرغبة في اجتنابها. مرت سنتان على الاستيلاء على منطقة الراين، لم تضع المانيا خلالها أية دقيقة من وقتها، إذ بدأت التحصينات تظهر على طول الخط في تلك المنطقة. وأخذت المصانع الألمانية تعمل ليلا ونهارا لتجعل من صناعة المانيا كلها صناعات حربية، وتحول الشعب بأسره إلى ألة للحرب.

وافتتح هتلر عام 1936، مشروع السنوات الخمس لإعادة تنظيم الاقتصاد الألماني وأعداده لمرحلة الاكتفاء الذاتي أثناء الحرب. كما حقق في الخارج «التحالف القوي» الذي كتب عنه كتابه «كفاحي» وبين أهميته لسياسة المانيا الخارجية، فتفاهم مع موسوليني وتم تشكيل محور (برلين-روما).

كانت سياسة هتلر العدوانية لا تعتمد على القوة العسكرية، بل تعتمد على الخلافات الناشبة بين فرنسا وبريطانيا، وعلى شدة خوفهما بالإضافة إلى عدم اكتراث الولايات المتحدة الأمريكية. وكانت أعماله وتحدياته الأولى عبارة عن مغامرة يعرف أنه لن يتمكن من الصمود لنتائجها، إذا ما شعر بأن لدى الحلفاء قليلا من الجدية الصادقة. وكان احتلاله لمنطقة الراين وإقامته للتحصينات فيها أولى هذه المغامرات التي نجح فيها نجاحا كبيرا.

أما في اسبانيا فقد تدهور النظام البرلماني فيها عام 1936 إلى حد أدى لنمو حركة جديدة تتجه إلى إقامة نظام شيوعي أو حتى فوضوي

في البلاد، ومن ثم إلى قيام ثورة عسكرية مبيته. وكانت التعاليم الشيوعية وكتبها المدرسية التي ألفها لينين نفسه، تقول بأن الواجب يقضي بضرورة التعاون مع جميع الأحزاب والحركات اليسارية في البلاد، ودعمها للوصول إلى الحكم. عندئذ يصبح من السهل الانقلاب عليها ونسفها من الداخل، وإقامة الدولة الماركسية. وكانت هذه التجربة التي نجحت في روسيا، تحدث في اسبانيا. إلا أن الجيش الإسباني كان محتفظا بقوته، لذلك فقد سار مع الحركات الشيوعية، بينما كان يبيت ضدها مؤامرات عكسية.

وكانت أعمال العنف والقتل بين الفرقاء المتخاصمين تنتشر انتشار الوباء في البلاد، وازداد الوباء الشيوعي حدة جعل من مسألة حمل الخصوم السياسيين من بيوتهم وقتلهم دون محاكمة أمرا طبيعيا، وقد حدثت حوادث كثيرة من هذا النوع في العاصمة مدريد بالذات. وبلغت هذه الحوادث حدتها حين قتل الزعيم الإسباني المحافظ السنيور سوتيلو، وكانت هذه الحادثة إشارة الانطلاق للقادة العسكريين لابتداء العمل. وكان الجنرال فرانكو قبل شهر من هذا الحادث قد ارسل إلى وزير الحربية الإسبانية رسالة قال فيها أنه إذا لم تتمكن الحكومة من المحافظة على الضمانات العادية للحياة، فإن الجيش سيضطر للتدخل فورا... وعندما تمرد الجنرال فرانكو وحمل راية الثورة، انضمت إليه فرق الجيش كلها، وأصبح السيد المطلق على الكثير من الولايات. أما البحارة الإسبان فقد هبوا لفورهم وقتلوا ضباطهم وانضموا إلى ما سمي بعد ذلك بالجانب الشيوعي، وقد استطاع الشيوعيين أن يسيطروا بعد أن انهارت الحكومة وراحوا يطبقون نظرياتهم وتعاليمهم. وبدأت الحرب الأهلية المخيفة، وقام الشيوعيون بجرائم عديدة وقتلوا خصومهم السياسيين، أما قوات فرانكو فقد قامت بدورها بقتل العديد من الشيوعيين وانتقمت للضحايا. وسارت هذه القوات

تحتل وتنتقم من كل شيوعي تجده.

ووقفت الحكومة البريطانية موقف عدم التدخل، واقترحت كذلك فرنسا مشروعا بعدم التدخل، وترك الفريقين يحلان مشاكلهما دون مساعدات خارجية. وأيدت الحكومة الإيطالية والألمانية والروسية هذا المشروع. وقد حافظت بريطانيا العظمى على هذا الاتفاق، إلا أن المانيا وإيطاليا من جهة، وروسيا من جهة آخرى، سارعت إلى خرق هذا الاتفاق، وراحت ترسل بالإمدادات العسكرية لفريق من الفرقاء المتخاصمين. وراحت الطائرات الألمانية تغير على المدن الصغيرة بشكل وحشي. ولم تلبث فرنسا هي الأخرى إن راحت تبعث بطريقة سرية بأسراب الطائرات للدفاع عن الجمهورية.

وفي الثامن والعشرين من أيار عام 1937، اعتزل المستر بلدوين منصب الحكم، بعد تتويج الملك جورج السادس. وقد نال لقب اللوردية تقديرا لخدماته الطويلة، وقد خلفه في الحكم المستر نافيل لين وزير المالية السابق، والذي كان يقوم فعليا بأعباء الحكم طيلة السنوات الخمس الماضية. وكان من اقدر الوزراء يتمتع بمزايا ومواهب جمة. وقد رحبت بتسليمه مقاليد السلطة، لأنه كان من الشخصيات المرموقة النابضة بالحيوية، بالإضافة إلى كفاءته.

ويواصل تشرشل حديثه قائلاً: إن باستطاعتي إجراء مقارنة بين الشخصين المستر تشمبرلين والمستر بلدوين، اللذين عرفتهما مدة طويلة وكان مقدرا لي أن أعمل معهما. فقد كان ستاتلي بلدوين يتمتع بشخصية حكيمة بعيدة النظر، إلا أنه كان يفتقر إلى المقدرة على التنفيذ واتخاذ القرارات. وكان بعيدا عن شؤون الحرب والجيش والشؤون الخارجية، فقد

كان لا يعرف شيئا عن أوروبا، وإذا عرف شيئا فكان يكره ما يعرفه عنها، إلا أنه كان بدقة مجرى السياسات الحزبية البريطانية. وكان قد ترشح خمس مرات عن حزب المحافظين باعتباره زعيما للحزب، ففاز في ثلاث مرات. أما رباطة جأشه فكانت صامدة قوية، فقد كان يتمتع بموهبة فذة في الصمود تجاه الأحداث والانتقادات المعادية، وكان ماهرا في تحوير الأحداث إلى خدمته، وانتهاز اللحظة المناسبة عندما تحين.

أما المستر نافيل تشمبر لين فقد كان يقظا، متشبثا برأيه، وشديد الثقة بنفسه إلى حد المبالغة، وكان على عكس زميله يعتقد في نفسه المقدرة على تفهم جميع المسائل المتعلقة بأوروبا، بل وفي العالم. وقد حافظ على سياسة تضييق الخناق على الانفاق الحربي طيلة عهده في الوزارة سواء حين كان وزيرا للمالية وحين أصبح رئيسا للوزارة. وكان العدو اللدود لجميع إجراءات الطوارئ. وقد سن قوانين وأحكام على الشخصيات السياسية المعاصرة لعهده، سواء في داخل بريطانيا أم في العالم الخارجي، وكان يشعر بأنه قادر على التعامل مع جميع تلك الشخصيات. وكانت آماله وأمانيه في أن يحصل على لقب بطل السلام، لذلك عمل مخلصا لتحقيق هذه الغاية، وقد عرض نفسه بذلك لأشد الأخطار كما عرض البلاد أيضا. لكنه وقع في تيارات لم يتمكن من تقدير قوتها، فواجه أزمات لم يتمكن من حلها أو من حلها أو من الابتعاد عنها ولا الصمود في وجهها.

لقد كنت اؤثر العمل مع المستر بلدوين في تلك السنين التي سبقت الحرب العالمية الثانية، على العمل مع تشمبرلين. إلا أنني كنت أشعر أن أيا من الاثنين لم يكن راغبا في التعاون معي إلا عند الضرورة القصوى.

وفي ذات يوم من عام 1937 قابلت سفير المانيا في بريطانيا الهر

فون ريبنتروب. وكنت قد كتبت مقالا شرحت فيه أن الهر ريبنتروب قد أسئ فهمه نتيجة لخطابه الذي القاه مؤخرا. وقد التقيته في إحدى الحفلات، وطلب مني أن أقوم بزيارته في السفارة، لنتحدث سويا. وقد استقبلني في دار السفارة، حيث قضينا ساعتين في الحديث. وكان ريبنتروب طيبا دمث الأخلاق، دبلوماسيا إلى أبعد الحدود. وقد قال لي أن المانيا لا تريد إلا كسب صداقة إنكلترا، وقال أنه كان في استطاعته أن يصبح وزيرا لخارجية المانيا، إلا أنه طلب من هتلر أرساله سفيرا إلى إنكلترا، كي يتمكن من العمل لتحقيق فكرة عقد اتفاق أو محالفة بين إنكلترا وألمانيا، وقد كان في وسع المانيا أن تصبح حارسا للإمبراطورية البريطانية، وبالطبع ستطلب استعادة مستعمراتها السابقة، إلا أن ذلك لا يعتبر أمرا أساسيا. لكن ما تطلبه المانيا هو أن يسمح لها بإطلاق يدها في أوروبا الشرقية. إذ أن من حق المانيا أن تحصل على مداها الحيوي، لتضمن العيش لشعبها الذي يتكاثر عدده. لذلك فمن الواجب على المانيا أن تهاجم بولندا وممر دانزيغ. ولا يمكن للرايخ الكبير يحيا، وهو يضم سبعين مليونا من البشر، بدون روسيا البيضاء وأوكرانيا. ولا يمكن للرايخ الألماني أن يكتفي بأقل من هذا. لذلك فمطلبه الوحيد هو أن لا تتدخل بريطانيا في شؤونه تلك. وكانت في الغرفة، حيث جلسنا، خارطة ضخمة معلقة على الجدار، وكان يشير إليها السفير رينتروب ليبين لي ما يقوله.

وبعد أن أنهى حديثه، أجبته برأيي الصريح ردا على كل أقواله. ومما قلته: (إن الحكومة البريطانية لن توافق على إطلاق يد المانيا في أوروبا الشرقية. فبالرغم من علاقاتنا السيئة مع روسيا السوفياتية، وبالرغم من عدائنا الشديد للشيوعية الذي لا يقل عن عداء هتلر لها، فإنه لو ضمنا سلاما لتسيطر على شرقي أوروبا ووسطها».

والتفتت فون ريبنتروب إلي فجأة وهو يقول: «إذن، فلابد من الحرب، ولن يكون هناك أي سبيل لتجنبها، فالفوهرر مصمم، ولن يقف شيء في طريقه».

وأجبت السفير بقولي: «عندما تتحدث عن الحرب، فستكون حربا عامة شاملة، وهنا يجب علي أن أنبهك بأن لا تستهين بقوة إنكلترا، فهي بلاد عجيبة، يصعب على الأجانب فهمها. ولا يمكنك أن تحكم عليها من موقف حكومتها الحاضر. فعندما تعرض للشعب قضية عادلة، فستعرف عندئذ بنفسك أن هذه الحكومة بالذات بالاشتراك مع الشعب سيقومان بأعمال عظيمة غير متوقعة... لذلك لا تستهن بقوة إنكلترا أبدا، فهي حادة الذكاء، وإذا ما أردتموها حربا عالمية، فستحرض إنكلترا العالم كله ضدكم، تماما كما حدث في الحرب الأولى».

وهنا ظهر الغضب على وجهه، فهب من مقعده واقفا وهو يقول: «ربما تكون إنكلترا ذكية كما تقول، لكنها هذه المرة لن تتمكن من تحريض العالم ضد المانيا». وانتقلنا بالحديث إلى مواضيع أخرى أكثر سهولة. وعندما جرت محاكمة فون ريبنتروب بعد انتهاء الحرب، ذكر حديثنا هذا، لكن بصورة مغلوطة، وأصر على استدعائي للشهادة. ولو طلب ذلك لما زدت أو أنقصت حرفا واحدا عما كتبته هنا..

الفصل السادس

المستر أيدن
في وزارة الخارجية- واستقالته

يتحدث تشرشل في هذا الفصل عن المستر ايدن وزير الخارجية فيقول:
المستر إيدن وزير الخارجية في إنكلترا يتمتع بمكانة خاصة. ومع أنه يعامل بمنتهى الاحترام واللباقة، إلا أن أعماله ومهمه المتعلقة بالشؤون الخارجية تبقى دائما تحت المراقبة، إن لم يكن من جميع أعضاء وزارته، فمن المنتقدين منهم على الأقل، كما أنه يتوجب عليه تقديم تقارير كاملة لزملائه. كما أنه يتحتم على وزير الخارجية إطلاع رئيس الوزراء على جميع الأسرار مهما كانت.

وفي هذه الحقبة من الزمن كان المستر أيدن وزيرا للخارجية في حكومة المستر بلدوين الذي كان معروفا بميله الشديد إلى السلام والحياة الهادئة، كما أنه لم يكن يسهم إسهاما فعالا في السياسة الخارجية. أما بالنسبة للمستر تشمبرلين فكان الوضع مختلفا، فهو يريد الإشراف الفعلي على وزارة الخارجية وكانت له أراء ووجهات نظر قوية في الشؤون الخارجية. لذلك فقد أكد رغبته منذ البداية في بحث هذه الشؤون والنظريات مع جميع السفراء الأجانب. ولهذا السبب أدى توليه منصب رئيس الوزراء إلى تغير ملحوظ في وضع وزير الخارجية المستر أيدن. بالإضافة إلى بعض الأمور الأخرى التي كانت تباعد بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية. لقد

كان رئيس الوزراء راغبا في إجراء شبه تفاهم مع الدكتاتورين الأوربيين، وكان اعتقاده أن هذا يقوم في تجنب كل ما يسيء إليهما بالإضافة إلى روح التفاهم الخالصة.

أما (أيدن) فقد نال شهرته من جراء تحريضه لجميع دول أوروبا ضد موسوليني لدرجة أنه كان يريد المضي في فرض العقوبات ولو أدى ذلك إلى نشوب الحرب وكان (أيدن) يؤمن أشد الإيمان بفرنسا، كما أنه كان يرغب في إقامة علاقات متينة مع روسيا السوفياتية، لأنه كان يشعر بخطر هتلر، وكان يخاف ضعف تسلحنا وانعكاسه على سياستنا الخارجية. لذلك كنت واثقا أن الخلاف سيدب بين هذين الرجلين، خاصة بعد تأزم الأوضاع العالمية واشتدادها.

وكان رئيس الوزراء يجد في اللورد هاليفاكس، زميلا ينسجم مع سياسته الخارجية كل الانسجام. وكنت أفضل، والحالة هذه، لو اعتمده وزيرا للخارجية منذ تكليفه بتأليف الوزارة، وأن يعهد بوزارة الحربية إلى المستر أنتوني أيدن. وهكذا بدأت الخلافات تذر قرنيها إلى أن توسعت شقة الخلافات في الفترة الواقعة ما بين صيف عام 1937 ونهاية العام، إلى أن اضطر بعد ذلك المستر أيدن إلى تقديم استقالته في شهر شباط من عام 1938.

لقد كانت سياستنا الخارجية تجاه المانيا. من أهم أسباب الخلاف بين رئيس الوزراء ووزير خارجيته المستر أيدن. فقد قرر المستر تشمبرلين أن يتابع سياسة التقرب من الديكتاتورين، واستدعى في شهر تموز من عام 1937 سفير إيطاليا الكونت غراندي للاجتماع به في دوانغ ستريت. وكان المستر أيدن يعلم مسبقا موضوع الحديث، لذلك لم يحضر الاجتماع هذا. وقد أفصح المستر تشمبرلين عن رغبته في تحسين العلاقات مع

إيطاليا، واقترح عليه السفير أن يبعث برسالة إلى موسوليني يطلب إليه ذلك، ويناشده العمل في هذا الاتجاه. وسارع المستر تشمبرلين إلى كتابه هذه الرسالة، أثناء المقابلة، وبعث بها دون مراجعة وزير الخارجية الذي كان في مكتبه على بعد بضعة خطوات من مكان الاجتماع. ولم تسفر هذه الرسالة عن أي نتيجة إيجابية بالطبع، بل ظلت علاقاتنا مع إيطاليا في تدهور بسبب تدخل هذه في شؤون اسبانيا الداخلية.

وكان المستر تشمبرلين، يشعر بأن رسالته تتلخص في خلق جو من العلاقات الودية بين الدكتاتورين، وخيل إليه أنه قادر على ذلك. وكان راغبا في أن يعترف بحق إيطاليا في احتلال الحبشة كخطوة أولى نحو التقارب وكمقدمة لإيجاد حل شامل لجميع الخلافات. كما أنه كان يرغب في التنازل لهتلر عن بعض المستعمرات البريطانية. وفي نفس الوقت لم يكن يرغب في العمل على تحسين أوضاع التسلح في بريطانيا. أو في إيجاد تعاون وثيق مع فرنسا سواء في الشؤون العسكرية أم في الشؤون السياسية. أما المستر أيدن فكانت نظرته تقضي بأن أي تعاون مع إيطاليا، يجب أن يشمل جميع الشؤون المتعلقة بالبحر الأبيض المتوسط، بما في ذلك مشكلة اسبانيا. وكان يريد أن يجعل من مسألة الاعتراف بحق إيطاليا في الحبشة وسيلة للمساومة معها أثناء المفاوضات. لذلك وجد أن الاعتراف بهذا الحق أولا ثم الرغبة في إجراء التفاوض لا يدل على الحكمة وبعد النظر.

وفي الخريف اشتدت هذه الخلافات، واعتبر المستر تشمبرلين أن وزير الخارجية يقف عقبة في طريق التفاهم مع الدكتاتورين وفي الشروع في إجراء المحادثات مع المانيا وإيطاليا، كما شعر المستر أيدن أن رئيسه متسرع جدا في محاولته التقرب من الدولتين المذكورتين لا سيما في الوقت الذي كانت

فيه بريطانيا على أشد ما تكون من الضعف من الناحية العسكرية.

على الرغم من خلافاتي مع الحكومة، فقد كنت أشعر بالعطف نحو وزير الخارجية المستر أيدن. فقد ظهر لي أنه أكثر الوزراء شجاعة وتصميما، على الرغم من أنه أثناء عمله كسكرتير خاص وكوكيل لوزارة الخارجية، من قبل، كان مجبرا على أن يكيف نفسه مع أمور عديدة كنت أهاجمها شخصيا، إلا أنني كنت أشعر أنه في قرارة نفسه يعارضها ويستنكرها، كما أنه بدا لي عنصرا طيبا وممتازا. وكان يدعوني مرارا إلى وزارة الخارجية، وكثيرا ما كنا نتبادل الرسائل بانطلاق وحرية. ولم يكن هذا الأمر مستغربا، فقد كان المستر أيدن شأنه شأن بقية الوزراء، يرغب دائما في الاتصال بالشخصيات البارزة في البلاد ليستمزج رأيها في شؤون الساعة وفي القضايا الدولية.

وكنت قد انتهيت إلى وجه نظر مشابهة مع وجهة نظر أيدن فيما يتعلق بنشاط دول المحور حول تدخلهم في الحرب الأهلية الإسبانية. وكنت دائما أؤيده عندما يقف موقفا صامدا في مجلس العموم، مهما كانت أهمية المواضيع المطروحة، فقد كنت عارفا بالصعوبات التي يواجهها من بعض أعضاء الوزارة وخاصة رئيس الوزارة بالذات، وكنت على يقين من أن تشجيعي له سيبعث في نفسه روح الأمل والقوة. وما أن نشبت أزمة جديدة في البحر المتوسط، حتى عالجها بعزم ومهارة، واستطاع الوصول إلى حل أتبعته الوزارة على الفور. فقد حدث أن أغرقت غواصات إيطالية عدة سفن تجارية، بينما أدعت إيطاليا أن الغواصات ليست إيطالية بل إسبانية. ودعي مؤتمر الدول البحرية إلى الانعقاد في (نيون) في العاشر من شهر أيلول.

وذهب وزير الخارجية يرافقه فانسيتارت واللورد شاتفيلد، لورد

الاميرالية الأول. وقرر المؤتمر إيفاد غواصات بريطانية فرنسية تقوم بعمل دوريات في البحر المتوسط، وتحمل أوامر مشددة بإغراق كل غواصة تقابلها. وفي الحال اختفت أعمال القرصنة.

ويعتبر هذا الحادث دليلا ظاهرا على أهمية العمل المشترك بين بريطانيا وفرنسا، إذا نفذ بصدق وقوة تجاه الديكتاتورين الأوروبيين. أن مثل هذه السياسة كان في مقدورها لا أن تمنع نشوب الحرب بل أن تؤجل وقوعها على الأقل. فالحقيقة الماثلة أمامنا هي أن سياسة التهدئة كانت تزيد من حدة عدوان الديكتاتورين، وتزيد شعبيتها، وأن أي هجوم إيجابي معاكس من قبل الديمقراطيات الغربية سيؤدي فورا إلى التخفيف من حدة هذا العدوان. وقد بقيت هذه النظرية سائدة طيلة عام 1937، أما بعد ذلك فقد تغيرت الأوضاع وتبدلت كل التبديل.

وشعر أيدن بقلق يتزايد يوما بعد يوم من بطء تسلحنا، وما كان منه إلا أن قابل رئيس الوزراء وشرح له مخاوفه وشكوكه، وكان رد رئيس الوزراء عليه بأن نصحه أن يعود إلى منزله ويتناول قرصين من الأسبرين.

أما الخلاف الحقيقي فنتج عن مسألة مختلفة تمام الاختلاف عن المسائل السابقة. ففي مساء الحادي عشر من شهر كانون الثاني عام 1938، قام وكيل وزارة الخارجية الأمريكية، المستر سمنر ويلس بزيارة السفير البريطاني في واشنطن. وكان يحمل معه رسالة سرية من الرئيس روزفلت إلى المستر تشمبرلين. فقد شعر الرئيس الأميركي بخطورة الوضع الدولي المتدهور، وأحس بالقلق المتزايد فاقترح دعوة بعض ممثلي دول معنية إلى اجتماع لبحث المشاكل الحالية، لكنه أراد قبل تنفيذ هذا الاقتراح، أن يستشير الحكومة البريطانية في وجهة نظرها حول هذا

الاقتراح. وطلب أن يكون الرد جاهزا قبل السابع عشر من كانون الثاني، وأشار في رسالته إلى أنه إذا وجد اقتراحه هذا قد حظي بموافقة حكومة جلالته القلبية وتأييدها المطلق، فعندئذ، وفي هذه الحالة فقط، سيباشر اتصالاته مع حكومات فرنسا والمانيا وإيطاليا. والحقيقة كانت خطوة هائلة وفوق ما يتصوره الإنسان.

وعندما قام السفير البريطاني بنقل هذه الرسالة إلى لندن، أوصى حكومته بضرورة الموافقة عليها بأسرع وقت ممكن. وتلقت وزارة الخارجية برقية واشنطن ووزعت نسخا منها في الثاني عشر من كانون الثاني إلى منزل رئيس الوزراء في الريف. وفي صباح اليوم الثاني حضر رئيس الوزراء إلى مكتبه، وأرسلت الوزارة بردها على رسالة الرئيس روزفلت، حسب تعليمات رئيس الوزراء. أما المستر أيدن فكان في إجازة قصيرة يمضيها في جنوب فرنسا. وكان رد المستر تشمبرلين، أنه يقدر هذه الثقة التي وضعها الرئيس روزفلت حين استشاره في موضوع اقتراحه المتعلق بإزالة حدة التوتر في أوروبا، إلا أنه يريد أولا أن يشرح له الموقف بالنسبة إلى الجهود التي يقوم بها للوصول إلى اتفاق مع المانيا وإيطاليا، لا سيما إيطاليا بصورة خاصة.

ومضى يقول في رده: إن حكومة جلالته مستعدة، بتفويض من عصبة الأمم أن أمكن، للاعتراف باحتلال إيطاليا للحبشة، إذا ما وجدت أن الحكومة الإيطالية، على استعداد هي الأخرى لتبرهن عن رغبتها في الإسهام في أعادة الثقة والعلاقات الودية» وأنهى المستر تشمبرلين رسالته بقوله أنه يعرض هذه الحقائق ليرى الرئيس روزفلت ما إذا كانت اقتراحاته تتعارض والمجهود الذي تبذله بريطانيا، وما إذا كان الرئيس يرى أنه من

الأفضل تأجيل اقتراح مشروعه الأميركي هذا.

وكانت خيبة الأمل كبيرة لدى الرئيس روزفلت لهذا الرد. وقد قال للسفير البريطاني بأنه سيجيب على رسالة تشمبرلين برسالة يبعثها له في السابع عشر من الشهر الحالي، أما أيدن، وزير الخارجية، فقد قطع إجازته وعاد إلى لندن على وجه السرعة، بعد أن علم من موظفيه المخلصين في الوزارة، ما جرى أثناء غيابه، وقد انزعج أيدن من هذا الحادث كثيرا، فقد عمل طويلا لتحسين العلاقات بين بريطانيا وأميركا. وحاول أن يخفف من تأثير الرد فأبرق إلى المستر رونالد ليندسي، حول الموضوع.

ووصلت رسالة الرئيس روزفلت إلى لندن في الثامن عشر من الشهر الحالي، وفيها قال الرئيس أنه يوافق على تأجيل اقتراحاته لأن الحكومة البريطانية تفكر في إجراء مفاوضات مباشرة، وأضاف معربا عن قلقه الشديد من اقتراح تشمبرلين حول اعتراف بريطانيا باحتلال إيطاليا للحبشة. وقال إن مثل هذا الاعتراف سيترك أثرا سيئا على سياسة اليابان في الشرق الأقصى، وعلى الرأي العام الأميركي أيضا. وقد أضاف المستر كوردل هل، الذي قام بتسليم الرسالة إلى السفير البريطاني، بقوله: «أن هذا الاعتراف سيبعث على الازدراء، وسيرسم صورة واضحة للمساومة القذرة التي سيتم تنفيذها في أوروبا على حساب المصالح الأميركية في الشرق الأقصى والتي تهم أميركا كثيرا»

وقامت اللجنة الوزارية للشؤون الخارجية بدراسة رسالة الرئيس روزفلت، وبعد سلسلة من الاجتماعات أرسلت إلى واشنطن رسالتين مضمونهم أن رئيس الوزراء يرحب كثيرا برسالة الرئيس روزفلت إلا أنه لا يتحمل أي مسئولية في حال فشلت العروض الأميركية. كما أنه يلفت نظر الرئيس

روزفلت إلى أنه ربما قد أساء فهم موقف حكومة جلالته بالنسبة إلى الاعتراف. وقد شرح في الرسالة الثانية حقيقة موقفنا. فقد كنا عازمين على تقديم اعتراف كهذا ليكون جزءا من تسوية عامة مع إيطاليا.

وعندما قام السفير البريطاني بتسليم المستر سمنر ويلس الرسالتين قال له: «أن الرئيس روزفلت يعتبر مسألة الاعتراف هذا كدواء مر، إلا أنه يجب علينا أن نشربه معا، كما أنه يريد أن نشرب هذا الدواء معا وفي آن واحد».

وهكذا رفض المستر تشمبرلين اقتراح الرئيس روزفلت، علما أن نفوذ الولايات المتحدة كان ضخما مع ما يمكن لها أن نستعمله من قوة جبارة!

وفي ساعة متأخرة من ليل العشرين من شباط، جاءني الخبر إلى غرفتي القديمة في شارنويل بأن المستر أيدن قد قدم استقالته من الوزارة. وهنا يتحتم عليَّ أن أعترف بأني حزنت كثيرا، وشعرت باليأس يسيطر عليَّ. لقد مررت بظروف عصيبة طيلة حياتي، وفي سنين الحرب، وفي أحلك ساعاتها المرعبة لم أشعر بالقلق الذي يحرمني طعم النوم. ففي أزمة عام 1940 حيث كانت المسؤوليات الضخمة ملقاة على عاتقي، وفي السنوات الخمس التي تلتها، كنت فريسة للقلق والفزع، إلا أني كنت أمضي إلى فراشي وأغرق في سبات عميق، واستيقظ في الصباح نشيطا، لا أشعر بتعب الليل الفائت بل أمضي إلى عملي لأواجه المشاكل الضخمة وأحاول أن أعالجها. أما اليوم وفي ليل العشرين من شهر شباط عام 1938، وفي هذه المناسبة فقط، شعرت بالأرق، ولم أنم طوال الليل، وبقيت حتى الصباح في فراشي أفكر بكثير من الأسى والخوف بذلك الشاب القوي الذي صمد بوجه تيارات مخيفة من الانشقاق والاستسلام، ومن الحسابات الخاطئة. والدوافع الضعيفة.

الفصل السابع

اغتصــــاب النمســــا

يقول تشرشل عن اغتصاب هتلر للنمسا:-

عندما تنهزم دولة من الدول أثناء الحرب، فإنها تبقى محتفظة بكيانها وجهازها وسرية وثائقها. وقد استطعنا أن نحصل على أسرار العدو بكامله، بعد أن خضنا غمار الحرب إلى نهايتها. وكان بإمكاننا أن نتأكد من صحة المعلومات التي توفرت لنا في السابق، وما قمنا به أثناء الحرب على ضوء تلك المستندات والوثائق التي حصلنا عليها في النهاية. ففي شهر تموز عام 1936، كان هتلر قد أصدر أوامره بإجراء الاستعدادات ووضع الخطط لاحتلال النمسا عندما يحين الوقت المناسب. وقد دعيت هذه العملية عملية «اوتو» وقد كشف عن مخططه هذا في الخامس من شهر تشرين الثاني عام 1937 عندما قال لقادة القوات المسلحة بأنه يترتب على ألمانيا أن تضمن لنفسها «مداها الحيوي» وهذا المدى يمكن ضمانه في شرقي أوروبا، أي بولندا وروسيا البيضاء وأوكرانيا. أما احتلال هذه البلدان فيعني حربا رئيسية وإبادة للشعوب التي تعيش في تلك المناطق. لذلك وجب على ألمانيا أن تصفي حسابها أيضا مع «العدوين المكروهين» إنكلترا وفرنسا اللتين تعتبران أن قيام العملاق الألماني وسط أوروبا سيكون غير محتملا. ولكي تستغل ألمانيا ما وصلت إليه من تفوق في الميدان العسكري، وما بعثه الحزب النازي من حماس وطني صادق، فإن من الواجب عليها أن تقوم بالهجوم في أول فرصة ممكنة، لكي تقضي على

هاتين العدوتين، قبل أن تتمكنا من الاستعداد.

لقد كان هناك سببان أخران دفعا بهتلر إلى اغتصاب النمسا خلاف ما ذكره في كتابه «كفاحي» من رغبته في ضم جميع الشعوب التوتونية إلى الرايخ. فاحتلال النمسا يعني فتح أبواب تشيكوسلوفاكيا من جهة، ومداخل جنوب شرق أوروبا من جهة أخرى.

أما داخل النمسا فكانت الحركة النازية تنمو مع كل انتصار يحققه هتلر سواء في داخل ألمانيا أم في خارجها. وقد صدرت تعليمات خاصة إلى (فون بابن) لكي يبقى على أحسن العلاقات مع الحكومة النمساوية بالإضافة إلى محاولته الحصول على اعتراف رسمي من الحكومة بالحزب النازي النمسوي كمؤسسة مشروعة. وأتقن (فون بابن) دوره وعمل بذكاء كبير داخل النمسا، وقد رضخ الكثير من الزعماء النمساويين لضغطه ومكائده. وكانت الحركة السياحية التي تعتمد عليها النمسا، قد تأثرت إلى حد كبير نتيجة للاضطرابات الداخلية ولأعمال الإرهاب ولحوادث القنابل التي كانت تهز أسس الجمهورية النمساوية.

وساد الاعتقاد أن الوقت قد حان لاستلام زمام الأمور عن طريق إدخال زعماء الحزب النازي النمساوي إلى الحكم عن طريق الوزراء، بعد أن تم الاعتراف به مؤخرا.

وفي الثاني عشر من شهر شباط عام 1938 استدعى هتلر المستشار النمساوي الهر (فون شوشنيغ) إلى مقره في برختساغادن. وحضر المستشار برفقة وزير خارجيته (غيدو شميدت). وبين أيدينا الآن نسخة عما كتبه شوشنيغ عن هذه المقابلة التي جرت بينه وبين هتلر، وننقل النص الحرفي لهذا الحوار.

وقد بدأ هتلر بالسخرية من التحصينات العسكرية التي أقامتها الحكومة النمساوية على الحدود وقال أنها لا تتطلب أي مجهود سوى عملية عسكرية بسيطة لإزالتها من الوجود. ثم استطرد قائلا:

هتلر: لن احتاج إلا لإصدار أمر، وستختفي هذه الخيالات الضخمة التي وضعتوها على الحدود، في ليلة واحدة. ولا أظن أنكم تصدقون أن في إمكانهم الوقوف أمامي أكثر من نصف ساعة. ومن يعلم، فقد أصل إلى فينا فجأة كعاصفة من عواصف الربيع. وعندئذ ستختبرون تجربة جديدة. لكني أريد أن أوفر عليكم هذه التجربة، التي ستكلفكم الكثيرين من الضحايا.

فبعد الجيش النظامي، سيصل جيش الصاعقة، ثم النازي، وعندئذ لن يتمكن أحد من أن يمنعهم من الثأر، حتى أنا نفسي. فهل تريد أن تجعل من النمسا اسبانيا أخرى. إن كل ما أريده أنا هو تجنيبكم كل هذا.

شوشنيغ: سأوقف عملية التحصينات الدفاعية على الحدود في الحال، كما أني واثق من أنك تستطيع أن تزحف على النمسا. ولكن، يا سيدي المستشار، أن زحفكم هذا سيؤدي إلى سفك الكثير من الدماء وربما سيؤدي إلى حرب عالمية، فأنت تعلم أننا لسنا وحيدين في العالم!

هتلر: أنه لمن السهل أن تقول كل هذا وأنت جالس على كرسيك المريح، إلا أن وراء هذه الأقوال الكثير من الويلات والدماء. فهل أنت على استعداد لتحمل مسئولية كلامك؟ هل تعتقد أن في هذا العالم من يستطيع أن يقف بيني وبين ما قررت أن أنفذه. أتقصد إيطاليا؟ لقد تفاهمت مع موسوليني ونحن الآن على خير ما نكون. إنكلترا؟ لن ترفع اصبعا واحدا من أجلكم! فرنسا؟ لقد غامرت، منذ سنتين، عندما زحفت لاحتلال منطقة الراين

بمجموعة من الكتائب. ولو قابلت فرنسا هذا الزحف بالهجوم لاضطررت إلى الانسحاب. أما الآن فقد أضاعت فرنسا الفرصة على نفسها.

وقد حدثت حصلت تلك المقابلة الأولى في تمام الساعة الحادية عشرة صباحا. وبعد الغذاء استدعى النمساويون إلى غرفة صغيرة كان بانتظارهم فيها ريبنتروب وباين، حيث قاما بتسليمهم الإنذار الخطي الذي لم يكن يقبل أي مناقشة. وقد تضمن الإنذار تعيين. سايكس- انكوارت وهو نمساوي نازي، وزيرا للأمن في الحكومة النمساوية. كذلك تضمن الإنذار عفوا شاملا عن جميع النازيين المعتقلين، ثم ضم الحزب النازي النمساوي رسميا إلى الجبهة الوطنية التي تشرف عليها الدولة.

وبعد ذلك استقبل هتلر المستشار شوشنيغ وقال له: «سأكرر عليك، أن هذه هي فرصتكم الأخيرة. وأني منتظر تنفيذ الشروط خلال ثلاثة أيام».

وفي مذكرات «يودل» عن نفس هذه الحادثة العبارة التالية: «وقد تعرض هون شوشنيغ وغيدوا شميدت إلى أعنف ضغط سياسي وعسكري، إلى أن وقع البروتوكول في تمام الساعة الحادية عشر مساء» وعندما عاد فون بابن مع شوشنيغ قال له: «هذه هي طريقة الفوهر، وقد اختبرتها بنفسك، ولكن في المرة المقبلة سيكون الفوهرر شخصا أخرا، أنه للحقيقة ساحرا كبير»

ومضت المهزلة بأن أرسل موسوليني برسالة شفوية إلى شوشينغ يقول له أن ما جرى في برختسغادن كان مشرفا وعادلا. ثم أكد له أن موقف إيطاليا من النمسا لن يتغير أبدا، كذلك أعرب له عن إخلاصه وصداقته الشخصية له. وفي الثالث من شهر (مارس) أذار بعث شوشنيغ برسالة سرية إلى موسوليني يعلمه فيها أنه قد عزم على إجراء استفتاء شعبي عن

الوضع السياسي. وبعد أربع وعشرين ساعة جاءه الرد من الملحق العسكري لبلاده، يخبره باجتماعه بموسوليني ويحذره من مغبة هذا الاستفتاء الذي وصفه بأنه «خطيئة» وقال إن كانت النتيجة مرضية فسيقول الناس أن الاستفتاء لم يكن نزيها، أما إذا لم يكن مرضيا فسيصبح وضع الحكومة حرجا للغاية. وإذا كانت النتيجة مرضية فلن تكون ذات نفع على الإطلاق، إلا أن شوشنيغ لم يأخذ بنصيحة موسوليني وتحذيره، فقد أعلن في اليوم التاسع من شهر أذار عن رغبته في إجراء استفتاء عام في جميع البلاد صباح الأحد القادم في الثالث عشر من الشهر الجاري.

وفي بداية الأمر، بدا أن (سايكس- انكوارت) قد قبل بالفكرة. إلا أنه في صباح يوم الحادي عشر تلقى شوشنيغ مكالمة هاتفية من مركز الشرطة في فيينا تقول أن الحدود الألمانية في سالزبورغ قد أقفلت، وسحب موظفي الجمارك الألمان وقطعت مواصلات السكك الحديدية. ووصلت رسالة ثانية من القنصل إلى (سايكس- انكوارت) ليخبره أن غورنغ طلب منه أن يلغي الاستفتاء خلال ساعة. وإذا لم يصله الرد بالإلغاء خلال المدة المذكورة فسيفترض أن سايكس- انكوارت قد منع من استخدام الهاتف للاتصال به.

وعندما علم شوشنيغ أن الجيش لا يمكن الاعتماد عليه، أبلغ سايكس- انكوارت أن الاستفتاء قد الغي. وبعد ربع ساعة عاد هذا يحمل إليه خبرا سجله على ورقة كتب فيها:

«لا يمكن إنقاذ الوضع إلا باستقالة شوشنيغ في الحال، وإذا لم يعين سايكس- انكوارت خلال ساعتين مستشارا، فإن غزو المانيا للنمسا سيتلوه فورا».

وفي خلال هذا الوقت انتظر شوشنيغ وصول الرئيس ميكلاس ليقدم

له استقالته. وعندما دخل إلى مكتب الرئيس جاءته رسالة من الحكومة الإيطالية تقول أنه ليس في إمكانها تقديم النصح مرة أخرى أو أن تقوم بأي عمل من أجلهم. ورفض الرئيس تعيين المستشار النازي، وقرر أن يجبر الألمان على القيام بأعمال عنيفة معيبة. لكنهم كانوا على أتم الاستعداد لارتكاب هذه الأعمال، فأصدر هتلر أوامره بالزحف على النمسا ومباشرة عملية «اوتو».

وفي محاكمات نورمبرغ قدمت هذه المحادثة الهاتفية التي دارت بين هتلر وبين الأمير فيليب هيسي، مبعوثه الخاص إلى الدوتشي التي قدمت كوثيقة هامة، وجدنا أن ننقلها بنصها الحرفي:

هيسي: لقد وصلت لتوي من قصر البندقية. وقد وافق الدوتشي على الموضوع بروح ودية. وهو يرسل إليك بالتحيات والاحترام. وقد وصلته المعلومات من النمسا ومن شوشنيغ بالذات. وأعلن أن تدخل إيطاليا هو مستحيل، وهو لن يعدو أن يكون إلا كذبة كبيرة أو «بلفة» وليس في إمكانه أن يقوم بها. وهكذا أفهم شوشنيغ أن سوء الحظ قضى بذلك، ولا يمكن تبديل الأمور الآن. ولم يلبث أن أعلن موسوليني أن أمر النمسا لا يهمه على الإطلاق.

هتلر: حسنا، أخبر موسوليني، أني لن انسى عمله هذا.

هيسي: نعم.

هتلر: أبدا، مهما حصل. وأنا لا زلت مستعدا لإجراء معاهدة مختلفة معه.

هيسي: نعم، وقد أخبرته بذلك أيضا.

هتلر: وعندما تنتهي عملية النمسا، سأكون مستعدا للمضي معه إلى آخر الطريق. ولن يهمني شيء.

هيسي: نعم أيها الفوهرر.

هتلر: اسمع، سأعقد أي معاهدة. ولن اخشى بعد الأن عما سيترتب من الناحية العسكرية إذا ما اشتبكنا في صراع ما. ويمكنك إبلاغه شكري العميق، ولن انسى مطلقا عمله هذا.

هيسي: نعم، أيها الفوهرر.

هتلر: لن أنساه مطلقا، مهما حدث. وإذا ما احتاج إلى أي مساعدة أو حين يجد نفسه في أي خطر فليثق بأني سألازمه مهما حدث، ولو كان العالم كله ضده.

هيسي: نعم، أيها الفوهرر.

ولا شك عندما قام بإنقاذه من الحكومة المؤقتة الإيطالية عام 1943 قد وفى هتلر بوعده.

ويواصل تشرشل حديثه قائلاً: لقد كانت أمنية العريف النمساوي، أن يدخل إلى فيننا دخول المنتصرين. وفي يوم السبت في الثاني عشر من شهر أذار، أعد الحزب النازي استقبالا حافلا للبطل (هتلر) المظفر. إلا أنه لم يصل أي شخص إلى العاصمة، بل وصل ثلاثة من الجنود البافاريين الذين قدموا لإعداد الترتيبات للازمة للجيش المحتل، فرفعوا على الأكتاف هتلر. وبدأت الأخبار تتسرب ببطء، فقد توقف الجيش عند الحدود مترددا، ثم بعد ذلك عند بينز. وبالرغم من الأحوال الجوية المؤاتية وسهولة المواصلات، فقد تحطمت معظم الدبابات. وبانت نقائص المدفعية الثقيلة وعيوبها، التي سدت الطريق من لينز إلى فيينا المتوقفة عن الحركة. وقد القى باللوم على الجنرال (فون ريخناو)، وهو من أقرب المقربين إلى الفوهرر، الذي كشف التقصير الفاضح في تجهيزات الجيش الألماني.

وقد استاء الفوهرر كثيرا حين مر في شوارع لينز ورأى هذه الفوضى في حركة السيارات، وأمر بفصل الدبابات الخفيفة لتستمر في مسيرها،

وهكذا دخلت العاصمة في صباح يوم الأحد، ثم نقلت السيارات المصفحة والمدفعية الثقيلة وغيرها في شاحنات ضخمة لتصل إلى فيينا في الموعد المحدد وتشترك في الاستعراض. ولا شك أن صورة هتلر، لا تزال ماثلة أمام أعيننا، حين عبر بسيارته شوارع فيينا بين ألوف الجماهير المحتشدة، منهم المتحمس له ومنهم الخائف منه. إلا أن الفوهرر لم يكن راضيا عن فشل آلياته الثقيلة، وراح يوزع التهم على جنرالاته الذين ردوا عليه بأنهم حذروه من مغبة هذا الهجوم لأن لم يكن مهيئا بعد للاشتراك في صراع كبير. إلا أن الجميع سيطروا على أعصابهم، فاحتفظوا بالمظاهر، وسارت الاحتفالات الرسمية والاستعراضات في مواعيدها. وبانتهاء الاستعراض وقف هتلر وأعلن حل الجمهورية النمساوية، وضمها إلى الرايخ الألماني.



ويواصل تشرشل سرد هذه الأحداث قائلاً: في هذه اللحظة كان الهر فون ريبنتروب يستعد لمغادرة لندن لاستلام مهام منصبه الجديد كوزير للخارجية. وقد دعى المستر تشمبرلين، في هذه المناسبة إلى حفلة غذاء تقام على شرف السفير بمناسبة سفره. وكنت من جملة المدعوين. وكانت زوجتي تجلس قرب السير الكسندر كادوغان على مقربة من طرف الطاولة. وبينما كنا نتناول الطعام جاء رسول من وزارة الخارجية يحمل رسالة إلى السير الكسندر، الذي ما أن قرأها حتى هب واقفا من مكانه، ثم تقدم من رئيس الوزراء وسلمه الرسالة. وقد لاحظت أن الرئيس قد غرق في قراءة الرسالة، التي بدت هامة للغاية، بينما عاد السير الكسندر إلى مكانه بكل هدوء. وكانت محتويات الرسالة، كما علمت بعد ذلك، أن هتلر قد غزا النمسا في هذه اللحظة، وأن قواته تتقدم نحو العاصمة. وبعد قليل، قامت السيدة تشمبرلين ودعت الحضور إلى شرب القهوة في غرفة الجلوس،

وبدا في هذه الدقيقة أن المستر تشمبرلين وزوجته أرادا إنهاء المأدبة بأسرع وقت، فسيطر شعور من الخوف والقلق على الحضور، وقاموا ليودعوا شيف الشرف.

أما فون ريبنتروب فكان محتفظا بهدوئه ووقاره، كأنه غير عالم بما يحدث في تلك اللحظات. وتقدمت من السيدة ريبنتروب، وقلت لها «أرجو أن تتمكن المانيا وإنكلترا من الحفاظ على صداقتهما» وقد أجابتني بلهجتها الرقيقة.. «أرجو أن تحرصوا على أن لا تفقدوا هذه الصداقة» وتأكد لي أن السفير وزوجته كانا على علم بما جرى، وأنهما يحاولان إبعاد الرئيس تشمبرلين عن عمله وعن جهاز الهاتف. إلا أنه اضطر إلى أن يقول للسفير «أنا آسف جدا، لاضطراري للذهاب لأمر هام جدا» ثم غادر الغرفة على الفور. وبقي فون ريبنتروب وزوجته، حتى اضطر الجميع بعد ذلك إلى مغادرة المنزل. وكانت هذه أخر مرة شاهدت الهر ريبنتروب قبل أن يشنق.

وتحرك الروس هذه المرة، ليدعوا إلى مؤتمر عام لبحث الوضع العام. واقترحوا إعادة البحث في مشروع تنفيذ الميثاق الفرنسي- السوفياتي، ضمن حدود عصبة الأمم، في حال تكررت تهديدات المانيا للسلام. إلا أن باريس ولندن استقبلتا هذا الاقتراح بكثير من البرود. فقد كانت فرنسا منشغلة بأشياء أخرى. وكان المستر تشمبرلين لا يزال على تشاؤمه وانهيار معنوياته، ولم يكن ليتفق معي حول تفسير الأخطار المتوقع حصولها وإمكانية تجنبها أو معالجتها حين تحدث. فقد كنت في ذلك الوقت أحبذ هذه الفكرة، أي فكرة قيام تحالف فرنسي- بريطاني- روسي، وكنت متأكدا أن هذا هو الحل الوحيد لكبح جماح النازيين.

الفصل الثامن

تشـيكوسـلوفاكيـا

يتحدث تشرشل في هذا الفصل عن عداء هتلر لتشيكو سلوفاكيا قائلاً:

عندما كان هتلر متجها في سيارته نحو فيننا، التفت إلى الجنرال فون هولدر وقال له «لا شك أن خطواتنا هذه ستقلق التشيكيين». وأدرك هولدر على الفور ما قصده هتلر بكلمته تلك، وظهرت له نواياه المقبلة.

وقد سمعنا أن (غورنغ)، يوم دخلت الجيوش الألمانية أراضي النمسا، قال للوزير التشيكي المفوض في برلين، مؤكدا له بصورة قاطعة بأنه ليس لألمانيا أية نوايا سيئة ضد تشيكوسلوفاكيا. كما أعلن المسيو (بلوم)، رئيس وزراء فرنسا يوم الرابع عشر من شهر أذار، في حديث له مع الوزير المفوض في برايس، أعلن له بكل جدية ووقار، أن فرنسا ستقوم بالتزاماتها تجاه تشيكوسلوفاكيا دون أي قيد أو شرط. إلا أن جميع هذه التأكيدات لم تستطع أن تغير شيئا من الحقيقة الرهيبة.

ومن جهة ثانية، حاولت بريطانيا الوصول إلى اتفاق مع إيطاليا حول البحر الأبيض المتوسط، رغبة منها في وقف المانيا عند حدها، كما أن مثل هذا الاتفاق سيقوي من مركز فرنسا، ويمكنها هي من مراقبة ما يجري من أحداث في أواسط أوروبا. وقد حاول موسوليني أن يتخذ لنفسه مركزا قويا للمساومة خاصة بعد أن اطمأن لسقوط أيدن. فقرر الاتفاق مع بريطانيا، وتم توقيع الاتفاق الإنكليزي الإيطالي في السادس عشر من شهر نيسان عام 1938، الذي يقضي بالسماح لإيطاليا بالعمل

في الحبشة وإسبانيا على هواها، مقابل حسن نيتها في أواسط أوروبا. وكانت وزارة الخارجية كثيرة التشكك في هذه الاتفاقات. وقد قال مؤرخ حياة تشمبرلين، فيلينغ، أنه كتب في رسالة شخصية خاصة: «لو رأيت مسودة الاتفاقية التي قدمتها وزارة الخارجية، لقلت أنها كافية لأن تجمد دبا قطبيا!».

وكنت من ناحيتي أشاطر وزارة الخارجية مخاوفها تلك. وكان هتلر من جهته يراقب الوضع باهتمام، فهو يعلم أن موسوليني بحاجة إلى مساعدته حين تطلق يده للعمل في الحبشة، وهذا ما سيفرض عليه قبول ما ستفعله المانيا في تشيكوسلوفاكيا. وراحت الدوائر الرسمية تدرس البيانات الإنكليزية والفرنسية، وشعرت بارتياح لعزم الدولتين الغربيتين على أقناع التشيكيين بوجوب التروي حفاظا على السلام في أوروبا. وفي هذه الأثناء، بدأ الحزب النازي بزعامة ها نلاين، بوضع لائحة بمطالبة المتضمنة الحصول على الحكم الذاتي في المناطق المجاورة لألمانيا.

وسارع الوزيران البريطاني والفرنسي إلى زيارة الوزير التشيكي لإقناعه و «للأعراب عن أملهما الصادق في أن تمضي الحكومة التشيكية إلى هذا الحد، رغبة منها في تسوية النزاع وحسمه».

وفي شهر أيار، وصلت التعليمات من المانيا، إلى الألمان في تشيكوسلوفاكيا، بزيادة الاضطرابات. وكان موعد الانتخابات قد حان، وبدأت الحكومة الألمانية تساعد الفوضى، بحملة مركزة من حرب الأعصاب، والإشاعات القائلة أن القوات الألمانية تتجمع على الحدود التشيكية. ولم تؤد التطمينات التي أذاعتها حكومة المانيا، إلى تهدئة التشيكيين الذين أعلنوا هم أيضا التعبئة العامة في صفوفهم.

لقد كان هتلر متيقنا أن إنكلترا وفرنسا لن تدخلا الحرب دفاعا عن تشيكوسلوفاكيا. إلا أن هذا الهجوم المطلوب لم يكن بالأمر السهل، إذ يترتب على المانيا أن تقذف نحوا من خمس وثلاثين فرقة عسكرية لتتمكن من اختراق الخطوط الدفاعية التشيكية، فالجيش التشيكي يعتبر من أحدث الجيوش كفاءة وتجهيزا. هذا بالإضافة إلى أن روسيا السوفياتية مرتبطة مع تشيكوسلوفاكيا، وهي تتربص بألمانيا في حال محاولتها الهجوم على الأراضي التشيكية.

إلا أن هتلر، بالرغم من اعتقاده بناجح فكرته بالاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا، فقد حاول أن يطمئن قادته الذين عارضوا فكرته تلك، بأن قال لهم بأنه لن يبدأ هجومه إلا حين يتأكد أن فرنسا وإنكلترا لن تتدخلا في هذه المعركة. إلا أنه في الثاني عشر من شهر أيلول وفي خطاب ألقاه في اجتماع لشبيبة الحزب في نورمبرغ، هاجم الحكومة التشيكوسلوفاكية بعنف، ولم تلبث الحكومة هذه أن ردت عليه في اليوم التالي بأن فرضت الأحكام العرفية في بعض المناطق من الجمهورية.

إنذار لتفينوف

ويواصل تشرشل حديثه عن انذار لتفينوف قائلاً: في الحادي والعشرين من شهر أيلول ألقى لتفينوف في جلسة الجمعية العامة لعصبة الأمم إنذارا رسميا هذا نصه:

«إن جمهورية تشيكوسلوفاكيا، تعاني في الأيام الحاضرة من تدخل إحدى الدول الأجنبية المجاورة، في شؤونها الداخلية، كما أنها تتعرض لتهديد سافر بالهجوم عليها. ولذلك سيجد هذا الشعب الذي نعتبره من أعرق الشعوب الأوروبية حضارة، والذي كافح طويلا من أجل الحصول

على استقلاله، سيجد هذا الشعب نفسه مضطرا على حمل السلاح من أجل الدفاع عن كيانه واستقلاله. وقد تلقيت منذ أيام سؤالا من الحكومة الفرنسية، عن موقف بلادي في حال تعرضت تشيكوسلوفاكيا لهجوم أجنبي مفاجئ. وقد وجهت إلى الحكومة الفرنسية جواب بلادي الصريح التالي:

«إننا سنقوم بالتزاماتنا وسنطبق ميثاق عصبة الأمم، وسنقدم كل مساعدة ممكنة لتشيكوسلوفاكيا، وذلك بالتعاون مع فرنسا. كما أن وزارة الحربية على أتم الاستعداد للاشتراك في أي مؤتمر يُعقد بين فرنسا وتشيكوسلوفاكيا لدراسة الوسائل المناسبة لمواجهة الأحداث.»

كما أن حكومتي قد تلقت من الحكومة التشيكوسلوفاكية سؤالا حول موقف الاتحاد السوفياتي وهل هو على استعداد لتقديم المساعدات بموجب الاتفاق السوفياتي- التشيكي، إذا قامت فرنسا هي الأخرى بالوفاء بالتزاماتها. وكان جواب حكومتي على ها السؤال واضحا بالإيجاب.»

ولم يلق هذا البيان الصريح أذنا صاغية لا من حكومة بريطانيا العظمى ولا من حكومة فرنسا. فقد تجاهلت الدولتان هذا العرض، ولم يحسب أي حساب لهذه الدولة الكبرى. وقد أثرت هذه المعاملة المنطوية على الكثير من الازدراء، وتركت أثرا كبيرا على عقلية ستالين وتفكيره، وقد كلفنا الازدراء والتجاهل الكثير من التضحيات الغالية فيما بعد.

وألقى هتلر في السادس والعشرين من الشهر ذاته، خطابا هاجم فيه بعنف تشيكوسلوفاكيا ورئيسها، إلا أنه كان معتدلا تجاه فرنسا وبريطانيا العظمى، ومما قاله في خطابه، أنه يجب على تشيكوسلوفاكيا أن تتخلى فورا عن بلاد السوديت، وأنها إذا ما تخلت عن هذه المناطق، فسيعتبر القضية منتهية تماما ولن يعود يهمه أمر تشيكوسلوفاكيا على الإطلاق.

وأضاف بقوله أن هذا المطلب هو أخر مطلب إقليمي له في قارة أوروبا. وفي الساعة الثامنة من الليلة نفسها صدر البلاغ التالي عن وزارة الخارجية البريطانية: «بالرغم من المحاولات المبذولة من جانب بريطانيا لتسوية المشكلة التشيكوسلوفاكية، وإذا ما حدث أن تعرضت البلاد إلى هجوم الماني عليها، فإن فرنسا ستسارع إلى مساعدتها. كما أن بريطانيا العظمى والاتحاد السوفياتي سيقفان بلا شك، إلى جانب فرنسا.»

وشعرت أن ساعة القتال قد اقتربت، فقد كان عدد الجيش التشيكي مليونا ونصف المليون من الجنود المجهزين بأحدث الأجهزة، تساندهم أليات جبارة رائعة التنظيم. وبدأت تعبئة الجيش الفرنسي في الحال، كما أصدرت (الاميرالية البريطانية) الأوامر بتعبئة الأسطول.

ويواصل تشرشل حديثه قائلاً: وفي هذه الأثناء، بدأ الصراع بين هتلر ومستشاريه. فقد بدا لهم أن الأزمة قد تفاقمت بشكل خطير. فهناك نحو من ثلاثين إلى أربعين فرقة مدرعة قد احتشدت على طوال الحدود الشرقية لألمانيا، كما أن الجدار الغربي للبلاد قد سدته الحشود الفرنسية التي كانت تفوق قوة المانيا بنسبة ثمانية إلى واحد. كذلك الجيوش السوفياتية التي راحت تشق طريقها عبر بولنده ورومانيا.. وفي الحال قام فريق من الجنرالات الألمان بمؤامرة لاعتقال هتلر و «إنقاذ المانيا من هذا المجنون»

وفي هذا الوقت، أبرق المستر تشمبرلين إلى هتلر، دون أن يستشير أحدا، مقترحا عليه زيارته وطار المستر تشمبرلين إلى المانيا وقد اقتنع أن حل المشكلة التشيكية هو في فصل منطقة السوديت عن تشيكوسلوفاكيا، ولذلك سيقنع هتلر ويتخلى عن هجومه. وفي ميونيخ، حيث نزل المستر تشمبرلين، ولحق به المسيو ديلادييه رئيس وزراء فرنسا، وموسوليني، ولم توجه دعوة إلى روسيا لحضور هذا الاجتماع، كما لم يسمح للتشكيين بالحضور أيضا.

وقد أبلغت الحكومة التشيكوسلوفاكية بأن مؤتمرا سيعقد في اليوم التالي يضم ممثلين عن الدول الأوروبية الأربع فقط. وانعقد المؤتمر عند الظهر من اليوم نفسه واستمر حتى الساعة الثانية من صباح اليوم التالي، وتم الوصول إلى أتفاق بين «الأربعة الكبار»، وأعدت مذكرة وقع عليها الجميع في الجلسة نفسها، وكانت المذكرة تتضمن قبولا بكل ما تطلبه المانيا وموافقة تامة على وجوب الجلاء عن منطقة السوديت خلال عشرة أيام، كما تقرر تعيين لجنة دولية للأشراف على تخطيط الحدود النهائية.

وهكذا بدأت عملية تقطيع تشيكوسلوفاكيا. ولم تنتهي المشكلة عند هذا الحد، فقد وجهت بولندا إنذار إلى الحكومة التشيكوسلوفاكية يقضي بتسليم منطقة «تشين» الواقعة على الحدود بين البلدين، وذلك خلال أربع وعشرين ساعة، ولم يكن هناك من سبيل لرفض هذا المطلب القاسي. كما جاء المجريون يطالبون هم أيضا بحصتهم من الغنيمة.

ويواصل تشرشل حديثه قائلاً: ليس من السهل، بعد أن مررنا خلال تلك السنوات القاسية أن نصور للأجيال القادمة حقيقة المشاعر المتأججة في نفوس البريطانيين نتيجة لاتفاق ميونيخ. فقد انقسم الرأي بين أفراد أسر المحافظين وأصدقائهم إلى حد كبير جدا لم أر مثيلا له في حياتي. وكان الرجال والنساء الذين تربطهم ببعضهم البعض علاقات متينة ينظرون إلى بعضهم البعض نظرات كلها احتقار وغضب. ونحن لم نكن لنهتم كثيرا أنذاك بالرغم من نظرات السخرية والهزء التي يقابلنا بها أنصار الحكومة. واهتزت أركان الحكومة، إلا أنها ظلت متماسكة. ولم يصمد إلا وزير البحرية المستر داف كوبر، الذي قدم استقالته محافظا على كرامته حين أمر بتعبئة الأسطول. ففي الوقت الذي كان المستر تشمبرلين يسيطر على الرأي العام البريطاني سيطرة تامة، كان المستر كوبر يندفع ليعلن إلى

الرأي العام معارضته التامة لموقف رئيسه.

وألقى المستر كوبر خطاب استقالته، في مجلس العموم أثناء مناقشة موضوع اتفاق ميونيخ. وتحدث الوزير لمدة أربعين دقيقة بحرية تامة مرتجلا خطابا وطنيا سيطر فيه على مشاعر خصومه ومعارضيه من نواب الحزب. وصفق له نواب العمال والأحرار المعارضين للحكومة، طويلا وهتفوا له محيين. وكانت هذه الحادثة بداية انشقاق في حزب المحافظين.

ولا زلت أذكر حين قمت في المجلس وأعلنت «أننا قد منينا بهزيمة منكرة لم يسبق لها مثيل» فقد ثارت ضدي عاصفة ضخمة في المجلس مما اضطرني إلى التوقف عن الكلام لفترة قبل أن أعود إلى متابعة كلامي. فقد كان هناك شعور من الإعجاب بما يبذله المستر تشمبرلين من جهود صادقة للمحافظة على السلام، وخاصة محاولاته الشخصية التي قام بها في هذا الصدد. وهنا لابد لي من ذكر الأخطاء وسوء التقدير للحقائق الراهنة التي وقع فيها تشمبرلين في محاولاته، وإن كنت لا أعارض الدوافع التي حدت به إلى اتخاذ المواقف التي وقفها والتي تحتاج إلى الكثير من الشجاعة الأدبية والتي كان المستر تشمبرلين يتمتع بها. وقد مدحت فيه الشجاعة بعد عامين في خطابي الذي القيته بمناسبة وفاته.

لقد كان في إمكان الحكومة أن تعتمد حجة أخرى، بالرغم من أنها تعرض بسمعة الحكومة نفسها. فلم يعد أمر عدم استعدادنا لدخول الحرب بالأمر الخفي، لكن هل كان هو أسرع مني للإدلال على هذه الحقيقة؛ لقد سمحت بريطانيا للقوة الجوية الألمانية أن تتفوق عليها. وكانت جميع مراكزنا معرضة للهجوم، دون أي حماية، ولم يكن في بلد من أكبر بلدان العالم وأكثرها كثافة في السكان، سوى مائة مدفع مضاد للطائرات. وهذا

المثل من ابسط الأدلة على الواقع الأليم.

لقد أدى أتفاق ميونيخ إلى سلب الحلفاء جيشا قويا، هو الجيش التشيكوسلوفاكي المجهز بإحدى وعشرين فرقة نظامية، بالإضافة إلى فرق الخط الثاني التي تبلغ ست عشرة فرقة. أما خط دفاعها المحصن، فقد كان يتطلب في هذه الأثناء، ثلاثين فرقة المانية أي ما يعادل قوة الجيش الألماني الرئيسية بأسرها. وقد ذكر الجنرال الألماني يودل أن ثلاث عشرة فرقة المانية، بقيت في الغرب عندما جرى توقيع اتفاقية ميونيخ. وكانت الخسارة الفادحة حين قضت تلك المعاهدة بسلخ جزء هام من الأراضي التشيكية بما فيها مصنع سكودا البالغ الأهمية الذي كان يعتبر أهم مصنع في أوروبا الوسطى، وكان إنتاجه بين شهر آب 1938 وأيلول 1939 معادلا لما تنتجه جميع المصانع البريطانية من سلاح. وبذلك أصبح هذا المصنع ملكا خاصا لهتلر قدمناه له على طبق من فضة.

الفصل التاسع

براغ، البانيا، وضمانة بولندا

يقول تشرشل في مذكراته:

في شهر كانون التاني عام 1939. سافر فون ريبنتروب إلى وارسو لمواصلة هجومه الدبلوماسي المركزي على بولندا. فابتلاع تشيكوسلوفاكيا يجب أن يتبعه حصرا بولندا. والمرحلة الأولى تقضي بعزلها عن البحر وتأكيد سيادة المانيا في دانزيغ، ومد سلطتها على سواحل البلطيق حتى ميناء ميميل الليتوني. أما الحكومة البولندية فقد قاومت بشدة هذا الضغط، بينما كان هتلر يترقب الفرصة المناسبة لبدء العمليات العسكرية.

وفي شهر أذار انتشرت الشائعات عن تحركات مريبة تقوم بها الجيوش الألمانية في المانيا والنمسا، خاصة في منطقة فيينا سالزبورغ وقد قالت الشائعات أن أربعين فرقة قد أصبحت جاهزة للمعركة. وفي نفس الوقت كان السلوفاكيون، بعد أن تأكدوا من أن المانيا ستقوم بمعاونتهم، يخططون لفصل بلادهم عن الجمهورية التشيكوسلوفاكية, وأحست بولندا بشيء من الارتياح، بعد أن زال الخطر عنها مؤقتا، وأعلن وزير خارجيتها في وارسو أن حكومته تعطف على مطالب وآمال السلوفاكيين.

وفي بريطانيا ساد الشعور بالتفاؤل الضال على الرغم من المحن التي كانت تقاسيها تشيكوسلوفاكيا في ذلك الحين نتيجة للضغط الهائل من المانيا.

أما الصحف البريطانية التي سبق وأيدت اتفاقية ميونيخ، فلم تفقد ثقتها في السياسة التي جرت إليها البلاد. وقام وزير الداخلية وألقى خطابا في العاشر من شهر أذار أعرب فيه عن أمله في مشروع (خمس سنوات من السلم) يؤدي بعد ذلك إلى خلق «العصر الذهبي». وكان البحث جاريا لإنشاء علاقات تجارية مع المانيا. وقامت الصحيفة الأسبوعية الشهيرة «بنش» بنشر صورة كاريكاتورية لجون بول، وهو يستيقظ من كابوس مرعب. وفي نفس اليوم الذي نشرت فيه هذه الصورة، وجه هتلر أخر إنذار إلى الحكومة التشيكية التي أصبحت ضعيفة واهنة بعد أن ضاعت خطوطها الدفاعية المحصنة نتيجة لاتفاقية ميونيخ وهجمت الجيوش الألمانية على العاصمة براغ واحتلتها دون مقاومة. ولا زلت أذكر أني كنت في غرفة التدخين، أجلس مع المستر أيدن حين طالعتنا صحف المساء بهذا النبأ الهام. وقد ذهلنا من هذا العدوان السافر المفاجئ الذي لم نكن نتوقعه. ولم نصدق أن حكومة جلالته، بما لديها من أجهزة قوية للاستخبارات لم تعلم من قبل بمثل هذا الهجوم المفاجئ.

وفي اليوم الرابع عشر من أذار أعلن السلوفاكيون استقلالهم. واجتازت القوات المجرية التي تؤيدها بولندا، اجتازت الحدود إلى المناطق الشرقية من تشيكوسلوفاكيا التي سبق وطالبت بها. ووصل هتلر بعد قليل إلى براغ ليعلن فرض حماية المانيا على تشيكوسلوفاكيا ويعلن ضمها إلى الرايخ الألماني.

وكان رد المستر تشمبرلين على هذا العدوان في خطاب ألقاه في مجلس العموم يوم الخامس من شهر أذار حيث قال: «في تمام الساعة السادسة من هذا الصباح تم احتلال القوات الألمانية لبوهيميا، كما أصدرت الحكومة

التشيكوسلوفاكية أوامرها بعدم المقاومة، ثم قال عن الضمانة البريطانية لحدود تشيكوسلوفاكيا: «لقد تبدلت الأوضاع كلية عندما أعلن مجلس الدابيت السلوفاكي انفصاله واستقلال سلوفاكيا وأدى بالتالي هذا الإعلان إلى نهاية الدولة التي ضمنا حدودها بسبب من الانشقاق الداخلي. لذلك فإن حكومة جلالته تجد نفسها غير مرتبطة بذلك الالتزام...»

وكان من المقرر أن يلقي رئيس الوزراء المستر تشمبرلين خطابا في برمنغهام بعد يومين. وكنت أتوقع أن يكون هذا الخطاب متسامحا، إلا أني فوجئت بتغير شامل لم أكن انتظره. وقد ادرك تشمبرلين الخطأ الذي وقع فيه كما ادرك أنه خدع نفسه، وفرض هذا الخطأ على الرأي العام البريطاني. فبدل موقفه المسالم السابق مديرا له ظهره، وقام ليكشف أمام العالم عن حقيقة شخصيته القاسية الصلبة. قام المستر تشمبرلين ليلقي خطابا عنيفا هاجم فيه هتلر بشدة متهما إياه بالتنكر لجميع الوعود التي قطعها على نفسه في مؤتمر ميونيخ وذكر جميع التأكيدات التي أكدها هتلر حين قال «إن هذا هو آخر مطلب إقليمي لنا في أوروبا» وقال رئيس الوزراء:

«لقد كانت غالبية الشعب البريطاني مقتنعة، بعد مؤتمر ميونيخ، بوجوب التقيد بسياسة الحفاظ على السلام، أما الآن فلا يسعني إلا أن أشارك هذا الشعب خيبة أمله المريرة وسخطه الشديد لتحطيم تلك الآمال. إذ كيف يمكننا جمع هذه النقائض بين تأكيدات هتلر السابقة وأحداث هذا الأسبوع؟ وسنطمئن إلى أن هذا الهجوم لن يتلوه الهجوم الجديد على دولة صغيرة أخرى؟ وهل سيكون هجومه هذا كخطوة أولى نحو فرض سيطرته وأن خطوة هتلر التالية هي الهجوم على بولندا وابتلاعها.

(وفي حال وجود أي اعتداء من شأنه أن يهدد استقلال بولندا، فإن

حكومة جلالته ستجد نفسها مضطرة في الحال إلى مساعدة الحكومة البولندية بكل ما في وسعها. وقد أكدت حكومة جلالته ذلك إلى الحكومة البولندية).

«وأود في هذه المناسبة أن أقول، أن حكومة فرنسا قد فوضتني أن أوضح موقفها لموقفنا من هذه المسألة الهامة. وقد أبلغت جميع حكومات الدومينيونات بهذا القرار.»!!

ولم يكن الوقت يسمح لتبادل التهم بين الأحزاب في المجلس، وأيد جميع الزعماء الضمانة التي قدمتها الحكومة إلى بولندة. وقلت معلقا على هذا القرار «لن نجد أية وسيلة أخرى سوى أن نعمل هذا، فقد كان هذا العمل ضروري بعد أن وصلنا إلى هذا الحد. ولكن هذه الضمانة تعني حتما نشوب حرب عالمية.

وهكذا نصل الآن في هذه القصة من الأحكام الخاطئة التي ارتكبها رجال أكفاء من ذوي النيات الحسنة. ولا شك، بعد أن وصلنا نتيجة لتلك الأخطاء إلى هذا المأزق، لنضع المسؤولين عن زمام الأمور مهما كانت نياتهم حسنة، يتحملون وزر أعمالهم أمام التاريخ. وبنظرة إلى الوراء سنجد ما سبق وقبلناه أو ما سبق وتخلينا عنه: لقد كانت المانيا منهوكة القوى مجردة من السلاح بفضل معاهدة صارمة. وبعد ذلك قامت المانيا لتتسلح من جديد وتتحدى تلك المعاهدة، ثم تخاذلنا فتفوقت علينا المانيا في ميدان الطيران الحربي، ثم احتلت منطقة الراين بالقوة واحتلت بناء تحصينات خط سينفريد، ثم أنها أقامت معاهدة محور بينها وبين إيطاليا، ثم انقضت على النمسا وابتلعتها. ثم تخلينا نحن عن تشيكوسلوفاكيا، وساعدنا على تحطيمها حين وقعنا معاهدة ميونيخ وسلمنا بذلك خط

دفاعها المحصن إلى الألمان بالإضافة إلى مصانع السلاح في سكودا التي انتقلت بموجب تلك المعاهدة إلى أيدي الألمان ليقوموا بتزويد أنفسهم بالسلاح. ثم تجاهلنا وساطة ومساعي الرئيس روزفلت لإقامة سلام في أوروبا.

والآن جاءت بريطانيا لتقدم ضمانتها لبولندا، تلك الدولة التي ساعدت على تقطيع أوصال تشيكوسلوفاكيا قبل ستة أشهر فقط. وسنضطر الآن لكي ندافع عنها وأن نهاجم المانيا التي أصبحت أكثر قوة ومناعة مما كانت عليه عام 1938 حين تراجعنا. أما الآن فقد عقدنا العزم على مجابهة المانيا. لكن هذا القرار قد اتخذناه في أسوأ الظروف، وعلى أسس غير مقنعة والتي ستؤدي بحياة الملايين من البشر.

ودفع البولنديون ثمن مقاطعة (تشين) التي استولوا عليها من تشيكوسلوفاكيا. فعندما استقبل فون ريبنتروب سفير بولندة في برلين، كانت لهجته جافة حادة أكثر من المرات السابقة، فقد نجم عن احتلال بوهيميا وأنشاء دولة سلوفاكيا، وصول الجيش الألماني إلى حدود بولندا الجنوبية. وقد قال له السفير البولوني، أن رجل الشارع العادي لا يمكنه فهم السبب الذي دعا المانيا إلى حماية سلوفاكيا بشكل يعتبر عملا عدوانيا موجها ضد بولندة، كما طلب السفير معلومات عن المحادثة التي جرت بين فون ريبنتروب ووزير خارجية ليتوانيا، وبالأخص فيما يتعلق بمرفأ ميمل. ولم يأت الرد على سؤاله هذا إلا بعد يومين حين أحتلت المانيا هذا المرفأ.

ولم يعد بالإمكان صد الهجوم الألماني على أوروبا الشرقية. إذ أن المجر قد وقفت إلى جانب المانيا. كما أن بولندا حين تخلت عن تشيكوسلوفاكيا

أصبحت غير مستعدة للتعاون مع رومانيا، كما أنها ورومانيا لا ترضيان بمرور القوات الروسية عبر أراضيها للوقوف في وجه المانيا. وكان محور الموضوع يدور حول التفاهم مع روسيا بالذات!!

وفي السادس والعشرين من شهر أذار ألقى موسوليني خطابا عنيفا بين فيه بشدة مطالب إيطاليا من فرنسا بشأن البحر الأبيض المتوسط. وفي السابع من نيسان نزلت القوات الإيطالية في البانيا ولم تلبث أن احتلت البلاد كلها بعد مدة وجيزة. وهكذا أصبحت البانيا نقطة ارتكاز للجيوش الإيطالية للاعتداء على اليونان، وبالإضافة إلى تهديدها ليوغوسلافيا وشل حركتها.

وفي الخامس عشر من نيسان بعث الرئيس روزفلت رسالتين شخصيتين إلى هتلر وموسوليني طلب منهما التعهد بعدم القيام بأي عدوان جديد لمدة عشر سنوات أو خمس وعشرين سنة.. وقد رفض موسوليني أن يقرأ الرسالة تلك. إلا أنه قال بعد أن قرأها: «أنها نتيجة لمرض شلل الأطفال».

ولم يكن ليعلم أنه سيعاني هو نفسه فيما بعد من الام مبرحة أشد من الام شلل الأطفال.

وفي شهر أذار من السنة نفسها، شاركت في وضع مشروع قرار إلى المجلس نطلب فيه تأليف حكومة جديدة. وقد شاركني في وضع هذا المشروع حوالي ثلاثين نائبا محافظا من بينهم المستر أنطوني أيدن. وظهرت حركة قوية تدعوا إلى تأليف حكومة جديدة قوية، واستمرت طوال الصيف. وكانت الشعارات تنادي بإدخالنا إلى مثل هذه الحكومة. وشعر السير ستافورد كريبس، الذي كان مستقلا في موقفه، احس بقلق شديد من الأخطار التي تهدد الوطن. وقام بزيارتي وزيارة عددا من الوزراء ودعي

إلى تأليف حكومة «تضم الجميع»، ولم يكن باستطاعتي أن أفعل شيئا في هذه الحال، إلا أن وزير التجارة، المستر ستانلي، كان متحمسا لهذه الفكرة، فكتب إلى المستر تشمبرلين عارضا منصبه الوزاري إذا كان هذا يسهل إعادة تأليف وزارة جديدة وعلى أسس جديدة. وقد اكتفى المستر تشمبرلين باستلام رسالته دون التعليق عليها.

وتبنت الصحف هذه الفكرة على مرور الأيام، وتزعمت الدايلي تلغراف ولمانشستر غارديان هذه الحملة وراحت تطالب بوزارة جديدة، وقد دهشت لهذا الحماس في المطالبة بوزارة جديدة، وصرت أرى في الشوارع اللافتات ترتفع وتحمل شعارات «تشرشل يجب أن يعود». وبدأت التظاهرات السلمية تجوب العاصمة وتتجمع أمام المجلس تطالب باشتراكي بالوزارة. ولم اكن في ذلك الحين على اطلاع بهذه الأساليب من الإثارة، إلا أنه لو طلب مني المشاركة في الحكم لما ترددت في ذلك. وقد شاء الحظ أن يحالفني في هذه الفترة، فسارت الأمور بطريقها الصحيح لتؤدي إلى النتيجة المرتقبة والمخيفة.

الفصل العاشر

على حافة الحرب

ويواصل تشرشل الحديث في مذكراته عن تلك الفترة الزمنية قائلاً:

وأخيرا وصلنا إلى النقطة الحاسمة، التي تدهورت فيها جميع علاقاتنا مع ألمانيا، والتي راحت تهدد بالانقطاع. ونحن الآن نعرف أن هذه العلاقات لم تكن صادقة بين بريطانيا منذ اليوم الذي جاء فيه هتلر إلى سدة الحكم. فقد كان هتلر يحاول إكراهنا بشتى الوسائل والطرق على قبول الوضع الحاضر والسماح له بإطلاق يده في شرق أوروبا بينما كنا نقوم بدورنا في تهدئة الخواطر بكل إخلاص. وها قد جاء الوقت الذي فقدت فيه حكومة تشمبرلين كل أمل في تسوية الوضع المتأزم. وما أن اقتنعت الوزارة أن ألمانيا جادة في طريق الحرب، حتى سارعت إلى عقد المحالفات ومنح الضمانات دون تفكير بما قد تجره هذه الضمانات علينا من اعباء مرهقة، بالإضافة إلى إمكاناتنا المحدودة في تقديم العون لتلك البلاد. وهكذا منحت ضمانات أخرى بالإضافة إلى الخدمات السابقة، إلى كل من اليونان ورومانيا وعقدت حلفا مع تركيا.

وترتب بالتالي، على الحكومة، أن تدرس إمكانية تطبيق الوسائل العملية لتنفيذ هذه الضمانات نحو بولندا ورومانيا. وقد كانت هذه الضمانات غير ذات قيمة، من الناحية العسكرية، ما لم تكن ضمن برنامج من الاتفاقات يعقد مع روسيا. وحاولت الوزارة أن تنفذ هذا التحالف مع روسيا فطلبت من السفير البريطاني في موسكو أن يبدأ سلسلة من المحادثات مع

المسيو لتفينوف. ولم أكن انتظر اية نتيجة من هذه المحادثات بسبب معاملتنا الجافة لروسيا في السابق. وبالرغم من ذلك فقد قدم الروس مشروعا لعقد تحالف بين بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي يقضي بتقديم العون إلى دول أوروبا الشرقية التي تتعرض للغزو الألماني. وكانت العقبة الكبرى التي عرقلت هذا التحالف، هو خوف تلك الدول الصغيرة من التعاون مع روسيا الذي يقضي بدخول الجيوش السوفياتية إلى اراضيها للدفاع عنها ضد ألمانيا، والسبب في ذلك خوفها من قلب نظام الحكم الحاضر وضم تلك البلاد إلى النظام الشيوعي السوفياتي التي كانت تعارضه تلك البلاد. ووقعت البلاد في حيرة من أمرها، هل تخاف الغزو الألماني أكثر أم العون الروسي. وكان هذا التردد السبب في شل حركة السياسة البريطانية والفرنسية في تلك المنطقة.

وقف المستر تشمبرلين مذهولا أمام هذه المشكلة الجديدة، وبدأ طريقة المماطلة والتسويف. ولو أنه قبل هذا العرض الروسي لتغير وجه التاريخ وسارت الأمور بطريقة تختلف عما وصلت إليه، وعلى الأقل، لن تكون النتيجة باسواء مما أصبحت عليه بالفعل.

وساد الصمت، وأعدت انصاف الحلول والتسويات والمساومات. وأصيب المشروع بضربة قاصمة، ومنيت محادثات ليتفينوف بالفشل الذريع، وبدا له أن التفاهم مع الدول الغربية أصبح مستحيلا، وفقدت الثقة بين الروس والغرب، وشعروا بوجوب اتباع سياسة خارجية مختلفة تماما عن السابق، وذلك للحفاظ على سلامتهم. وصدر البيان الرسمي القاضي بعزل لتفينوف من منصبه في وزارة الخارجية، وتكليف مولوتوف، رئيس الوزارة، بمهام الوزارة بدلا منه. وهكذا تم اقصاء الوزير اليهودي الذي كانت ألمانيا تكره وجوده، وتعاون مولوتوف مع ستالين نفسه في رسم سياسة خارجية جديدة أكثر تحررا من السياسة السابقة، وأكثر انسجاما مع مصلحة روسيا

الخاصة. ولم يكن أمامهم إلا طريقا واحدا، هو تأييد هتلر المطلق.

***

ويواصل تشرشل سرد مذكراته قائلاً: كان خوفي شديدا من تراجع حكومة جلالته عن ضمانتها لبولندا في حال تعرضها لهجوم الماني واسع النطاق. ولكن المستر تشمبرلين كان قد عقد العزم على خوض معركة ضارية مهما كان هذا العزم مريرا بالنسبة له. ولكني لم أكن على معرفة وثيقة به كما أصبحت فيما بعد. وكان خوفي أن يقوم هتلر "ببلفة" جديدة أي كذبه أو خدعة من بنات أفكاره، كاختراعه لسلاح جديد رهيب يمكنه من تخويف مجلس وزارتنا المثقل بالأعباء. وكان الأستاذ ليندمان يحدثني دائما عن الطاقة الذرية، وقد طلبت إليه أن يطلعني على المعلومات الكافية حول هذا الموضوع، ففعل وبعثت برسالة إلى كنغزلي وود، وزير الطيران، هذا نصها: "قرأت في احدى الصحف قبل أسابيع، عن قصة الطاقة الهائلة التي يمكن بعثها من الاورانيوم، وقد توصلت الاختبارات الحديثة إلى اكتشاف هذه الطاقة بعد أن يتجزأ هذا النوع من الذرة بواسطة النيوترون. وقد أوحت هذه التجارب عن وجود قوة هائلة من المتفجرات التي يمكن أن تحتوي على قوة تدميرية مخيفة. ولكن يمكننا الاطمئنان إلى ناحية هامة، هو أن هذا الاكتشاف الجديد لا يمكن وضعه في موضع الاستعمال قبل عدة سنوات.

"وهناك دلائل تشير إلى أن القصص والروايات ستحاك حول إمكانية استخدام هذا الاختراع العلمي الجديد لاستخراج مواد متفجرة سرية منه، قادرة على محو لندن من الوجود. وستجري محاولات عديدة من قبل رجال الطابور الخامس لإقناعنا باستخدام هذه التهديدات لقبول عملية استسلام

من نوع جديد. لذلك رأيت من واجبي أن ألفت نظرك إلى ذلك.

"اما الخوف من أن يكون الألمان قد اكتشفوا مثل هذا السلاح الرهيب، فهذا لا يستند إلى أي أساس علمي صحيح. ولا شك في أن التلويح بهذا السلاح سيظهر وستنتشر الأقاويل المخيفة وستتضخم الإشاعات، وكل أملي أن لا تأخذ الجهات المسؤولة بهذه الإشاعات المضخمة."

لقد كان هذا التكهن صحيحا ودقيقا بنفس الوقت. فالألمان لم يجدوا الطريق الصحيح، بل تبعوا طريقا خاطئا وما لبثوا أن تخلوا عن فكرة البحث عن اختراع القنبلة الذرية، واستمروا في أبحاثهم لاختراع الصواريخ الموجهة والطائرات التي تطير دون طيارين، بينما كنت والرئيس روزفلت نتخذ المقررات الهامة التي ساتي على ذكرها في الوقت المناسب، لاتمام صنع القنابل الذرية على نطاق واسع.



في السابع من شهر تموز صرح موسوليني للسفير البريطاني بكلمة حول موقف بلاده من ألمانيا فقال: "قل لتشمبرلين، أنه إذا كانت بريطانيا راغبة حقا في الدفاع عن بولندا وحمل السلاح من أجلها، فإن إيطاليا لن تتأخر عن حمل السلاح والاشتراك مع حليفتها ألمانيا". أما موقف موسوليني المستتر فكان اهتمامه الشديد في تثبيت مركزه في البحر الأبيض المتوسط وشمال إفريقيا، وحصوله على نتائج مرضية من جراء تدخله في أسبانيا، واحتلاله لالبانيا. ولم يكن يرغب في الدخول في حرب أوروبية من أجل احتلال ألمانيا لبولندا. فبالرغم من تبجحه وإدعاءاته فكان يدرك في قرارة نفسه ضعف مركزه العسكري السياسي، وربما كان

على استعداد للدخول في الحرب عام 1942 بعد أن تزوده ألمانيا بالسلاح أما في عام 1939 فلا، ثم لا...

وفي الصيف، بعد أن اشتد الضغط على بولندا، أراد موسوليني أن يمثل الدور الذي مثله في ميونيخ، كوسيط للسلام. ألا أن هتلر كان قد عقد العزم على احتلال بولندا، وأوضح لتشيانو عن تصميمه لتسوية الوضع مع بولنده، وأنه سيضطر للدخول في حرب مع انكلترا أو فرنسا، وهو يطلب من ايطاليا الدخول معه في هذه الحرب، وقال: "وإذا قررت انكلترا الاحتفاظ بقوات كافية في بلادها، فعليها أن ترسل بفرقتين من المشاة إلى فرنسا مع فرقة مدرعة، وعليها أن تبعث بقاذفات القنابل إلى ألمانيا، أما الطائرات المقاتلة فيمكنها الاحتفاظ بها في بلادها، لأنها ستحتاج إليها هناك، لأن قواتنا الجوية ستهاجم انكلترا في الحال. وستحتاج إلى تلك المقاتلات للدفاع عن بلادها." أما عن فرنسا فقال أن تدمير بولندا لن يستغرق طويلا، وستتمكن ألمانيا من حشد جيوشها على خط ماجينو وستكون على أتم الاستعداد للدخول في معركة الحياة أو الموت..... ورجع تشيانو لينقل إلى رئيسه ما سمعه من هتلر، فلقاه مقتنعا هو الاخر أن الدول الديمقراطية ستخوض الحرب، كما وجده أكثر تصميما على البقاء خارجها.

* * *

ويواصل تشرشل حديثه قائلاً: وقامت محاولات جديدة للتقرب من روسيا، إلا أنها باءت جميعها بالفشل الذريع، وقد قال لي ستالين حين زرته في شهر اب عام 1942، عندما كنا في الكرملين، موضحا ناحية واحدة من موقف روسيا عندما قال "لقد تأكد لنا أن الحكومتين البريطانية والفرنسية غير عازمتين على الدخول في حرب مع ألمانيا إذا ما هاجمت

بولندا، وان رغبتهما في عقد الحلف الروسي – الفرنسي – البريطاني ليست كما تبدو في الظاهر، بل لرغبتهما في كبح جماح هتلر. وكنا على ثقة تامة أن هذا الحلف لن يوقف هتلر." وقد سأل ستالين أحد المفاوضين: "كم فرقة تستطيع فرنسا أن تقذف بها إلى الميدان ضد ألمانيا؟" وكان الرد "مائة فرقة" ثم سأل "وكم تستطيع انكلترا أن ترسل؟" وجاء الرد "فرقتين أولا، ثم فرقتين فيما بعد".

ثم سأل "هل تعلمون كم فرقة نستطيع أن نقذف إلى الميدان في حال دخلنا الحرب ضد ألمانيا؟" ولما لم يجبه أحد من المتفاوضين استطرد قائلا: "أكثر من ثلاثمائة فرقة!"....

وهنا أرى من الواجب أن أسجل نص الميثاق المعقود بين ألمانيا وروسيا، بعد أن فشلت المحاولات الغربية لاشتراك روسيا في حلف ضد ألمانيا، وبعد أن اتجهت روسيا نحو ألمانيا التي سارعت إلى عقد ميثاق عدم اعتداء هذا نصه.

"ترى الدولتان المتعاقدتان، أن من الواجب عدم القيام بأي عمل وقد احتفل بتوقيع هذا الميثاق باحتفال رسمي كبير، وقام ستالين ليشرب نخب هتلر وقال: "أنا أعرف أن الشعب الألماني يحب زعيمه حبا كبيرا. لذلك أحب أن أشرب نخبه".

نستخلص مما تقدم أن الاستقامة هي السياسة المثالية. وسنرى في هذا الكتاب أمثلة عديدة على هذه النظرية. فقد يبدو الساسة والدهاة، على خطأ في حساباتهم التي افترضوها. إلا أن هذا المثل يبقى أوضح من غيره. فبعد اثنين وعشرين شهرا أرغم ستالين وعشرات الملايين من الشعب الروسي أن يدفعوا ثمنا باهظا ومخيفا لما وقع....

الفصل الحادي عشر

الحـــــرب

يتحدث تشرشل في هذا الفصل عن إعلان هتلر للحرب قائلاً:

أصدر هتلر بيانه الأول في الحادي والثلاثين من شهر اب جاء فيه ما يلي:

1 - لما فشلت جميع الاحتمالات السياسية لتسوية الوضع على الحدود الشرقية بطريقة سلمية، ولما كانت الأوضاع الراهنة غير محتملة، فقد قررت أن أفرض الحلول بالقوة.

2 - يجب تنفيذ الهجوم على بولندا حسب الخطة المرسومة، وقد تقرر موعد الهجوم يوم الأول من شهر ايلول عام 1939 في تمام الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحا.

3 - من المهم أن يكون الاعتداء من جانب انكلترا أو فرنسا. بشكل واضح. وفي حال وقوع حوادث طفيفة على الحدود، يجب الاكتفاء بالعمل المحلي فقط.

وهكذا قامت ألمانيا بهجومها على بولندا في صباح الأول من شهر أيلول عام 1939، كما أصدرت حكومتنا أمرها بتعبئة جميع القوات المسلحة. وبعد ظهر ذلك اليوم طلب مني رئيس الوزراء أن أحضر لزيارته في دواننغ ستريت. وقد قال لي أنه لم يعد هناك من أمل في تجنب الحرب مع ألمانيا، لذلك فهو يقترح تشكيل وزارة صغيرة للحرب، تضم وزراء دون وزارات

معينة لتسيير دفة الحرب. وقال أن حزب العمال غير مستعد للاشتراك في حكومة ائتلافية. أما الأحرار فهم يطلبون المشاركة في الحكم. ثم طلب مني أن أكون عضوا في تلك الوزارة الحربية. وقد وافقت على هذا الاقتراح دون أي تعليق.

وفي المساء انعقد المجلس، وألقى رئيس الوزراء خطاب تهدئة استقبله المجلس استقبالا سيئا. وعلا الصراخ والهتافات، ولم يكن ثمة شك في أن المجلس استقبلنا استقبالا سيئا. وعلا الصراخ والهتاف، ولم يكن ثمة شك في أن التاسعة والنصف مساء، وأن هذا الإنذار سيعقبه إنذار ثان وثالث. وأعلنت الإذاعة أن رئيس الوزراء سيوجه كلمة إلى الشعب في الساعة الحادية عشرة والربع من صباح الثالث من أيلول، أي بعد أن تنتهي مهلة الإنذار الثالث.

وتوجه الرئيس بكلمته معلنا أن بريطانيا أصبحت في حالة حرب مع ألمانيا. وما أن أنهى كلمته، حتى سمعنا صوتا حادا غريبا ينطلق، سرعان ما اعتدنا عليه فيما بعد. وهبطنا إلى الملجأ المخصص لنا على بعد مائة ياردة من البيت، ويتألف من قبو يلجأ إليه السكان. وكانت دلائل المرح بادية على الوجوه، وهي عادة إنجليزية يتمسك بها الانكليز في أوقات الشدائد.

وبعد عشرة دقائق دوت الصفارة من جديد معلنة انتهاء الغارة، فصعدنا وتفرقنا إلى بيوتنا وتوجهنا إلى أعمالنا. وكان علي أن أتوجه إلى مجلس العموم الذي اجتمع عند الظهر حسب العادة وفي أثناء الجلسة تلقيت رسالة من رئيس الوزراء يطلب مني موافاته إلى مكتبة بعد انتهاء الجلسة. وقال لي المستر تشمبرلين أنه يعرض علي وزارة البحرية، مع مقعد في وزارة الحرب. وسررت جدا لهذا العرض، فقد كنت أمل أن يعهد إلي بمهمة

معينة محدودة قد عرضت علي هذه المهمة بالإضافة إلى مركزي السابق في الوزارة.

وما أن توليت مركزي في وزارة الحربية، حتى بعثت بكلمة سريعة إلى الأميرالية، أخبرهم فيها عن توليتي للقيادة فورا، وأبلغهم باني سأصل إلى الأميرالية في تمام الساعة السادسة. وكان المجلس رقيقا جدا إذا بعث بهذا الخبر الطريف إلى جميع الوحدات يقول "لقد عاد ونستون". وهكذا رجعت مرة أخرى إلى نفس الغرفة التي غادرتها حزينا منذ ربع قرن، عندما تنحيت عن وزارة البحرية بعد استقالة اللورد فيشر. وعندما جلست إلى مقعدي القديم، رأيت شنطة الخرائط القديمة التي أعددتها في سنة 1911، وفيها خريطة بحر الشمال التي كنت أطلب من دائرة المخابرات أن تسجل لي عليها تحركات الأسطول الألماني كل يوم، كي أكون على إطلاع دائم على تحركاته. وهكذا بعد مضي ربع قرن، عاد نفس الخطر القاتل يهددنا مرة أخرى، وها نحن نضطر مرة أخرى إلى حمل السلاح لنصرة بلد صغير تعرض للغزو وأن نقاتل دفاعا عن حياتنا وشرفنا ضد قوة وغضب شعب شجاع هو الشعب الألماني المحب للنظام، والبعيد عن الرحمة...

كان أول عمل قمت به في وزارة البحرية، تشكيل دائرة خاصة بي للأرقام، وعهدت إلى الأستاذ ليندمان، صديقي والمؤتمن لدي منذ سنوات بها. وقد اضطررت إلى إبقائه بصورة مستديمة مع نخبة من الرجال الأخصائيين والاقتصاديين الذين لا يهتمون بشيء سوى بالحقائق والوقائع. وقد استطاعت هذه المجموعة من الرجال الأكفاء أن تقدم أصدق الجداول والرسوم، وتشرح لي سير الحرب يوما بيوم.

ولم تكن ثمة هناك دائرة خاصة للإحصاء. فقد كانت الوزارات تقدم ما لديها حسب أرقامها وحساباتها. وكانت كل وزارة تتبع طريقة في الإحصاء تختلف عن طريقة زميلتها الأخرى، كما كانت الوزارات تتحدث بلغات واصطلاحات مختلفة، كثيرا ما كانت تخلق البلبلة وإضاعة الوقت. أما أنا فكانت مصادري كلها أكيدة وثابتة في المعلومات التي كنت أقدمها.



وفي مجلس الوزراء كنا نراقب عمليات التدمير السريعة لدولة ضعيفة، حسب البرنامج الذي أعده هتلر. فقد قذف بألف وخمسماية طائرة إلى بولندا كما أرسل جميع فرقة الآلية والمدرعة، التي اشتركت مع ست وخمسين فرقة أخرى من المشاة. ولم يكن البولنديون أكفاء لملاقاة هذا العدد الضخم، أو هذه المعدات الهائلة، كما لم يكونوا قد استعدوا ورسموا خطة حكيمة لحماية أنفسهم، فكل ما عملوه من استعداد عسكري أنهم وزعوا جيشهم على طول الحدود، بينما بقيت البلاد دون أية قوة احتياطية. وهكذا لم تصمد بولندا أمام الجيش الألماني إلا أسبوعين اثنين، وما لبث جيشها الذي يعد مليونين، أن فقد معظم محاربيه وأضحى لا قيمة له.

أما روسيا، فقد أرسلت بجيوشها في السابع عشر من شهر أيلول عبر حدود بولندا الشرقية الخالية من أي مقاومة، ثم سارت غربا، وفي الثامن عشر منه تلاقت مع الجيوش الألمانية في بريست ليتوفسك. وزادت بذلك عملية التدمير المخيفة ودافعت وارسو بشجاعة فائقة واستبسل ابناؤها، وبعد عدة أيام من القصف الجوي المستمر، من المدفعية الألمانية الثقيلة التي نقلت عبر الطرق الرئيسية الألمانية من الحدود الغربية، توقفت إذاعة وارسو عند البث، ودخل هتلر إلى المدينة الخربة. وانتهى كل شيء خلال

شهر واحد وأضحى الشعب البولندي الذي يبلغ عدده خمسة وثلاثين مليونا تحت رحمة الغزاة الذي أمعنوا فيه تقتيلا.

لقد شاهدنا تكتيكا جديدا من التعاون الوثيق بين القوات الجوية المغيرة والقوات البرية الزاحفة، والقصف العنيف للمدن وطرق المواصلات الرئيسية كذلك رأينا تسليح الطابور الخامس وبث العيون، وهبوط المظليين بصورة واسعة النطاق، كما رأينا الاندفاع الهائل لقوات ضخمة من الآليات والمدرعات التي لا يمكن مقاومتها... ولم تكن بولندا اخر من تحتم عليها أن تعاني مثل هذه المحنة.



ساد الجمود لفترة طويلة، العالم الغربي، بعد هجوم هتلر الساحق على بولندا، وعمت الدهشة لهذا التوقف الغريب، بعد أن أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على ألمانيا.. إلا أن التحرشات الألمانية، وعمليات الهجوم المباغت على السفن التجارية في البحر، قد أزعج حركة التجارة. وبدأت السفن التجارية، تغادر الموانئ يوميا على شكل مجموعات وقوافل وتزودت كل واحدة منها بمدفع مضاد وببحارة مدربين. وراحت كانسات الألغام تجوب البحار بالإضافة إلى القطع البحرية الصغيرة المجهزة بقنابل الأعماق ضد الغواصات وأدت عملها على خير ما يرام، وشعرنا بأن هجوم الغواصات الألمانية على السفن التجارية قد انتهى، وغدت البحار تحت أشرافنا وسيطرتنا. وكان من المتوقع أن يزداد عدد الغواصات الألمانية بعد مدة وجيزة، لأن بناء الغواصات كان يجري في جميع الموانئ الألمانية بسرعة هائلة، وكان علينا أن ننتظر بدء حرب الغواصات خلال سنة أو سنة ونصف على الأكثر. إلا أننا كنا ننتظر إكمال بناء مدمراتنا وقطعنا المضادة

للغواصات التي أصبحنا بفضلها نملك زمام الأمور لمواجهة الخطر بقوة.

وتلقيت رسالة من الرئيس روزفلت، وكنت قد قابلته مرة واحدة أثناء الحرب الأولى في حفلة عشاء، وقد أدهشتني حيويته وشبابه وحضور ذهنه. وقد كتب لي في رسالته الشخصية تلك: "لما كنا قد توصلنا إلى مراكز مشابهة أثناء الحرب العالمية الأولى، فأني أريد أن تعلم مدى سروري وغبطتي حيث علمت برجوعك مرة أخرى إلى الأميرالية. وربما تكون مشاكلكم قد ازدادت تعقيدا، إلا أن المشاكل الرئيسية لم تتغير. وفي هذه المناسبة أود أن أؤكد لك ولرئيس الوزراء عن استعدادي التام وترحيبي الكبير حين ترغبون الاتصال بي شخصيا بواسطة رسائل مغلقة، وأن تنقلا لي كل ما تريدان نقله وبوسعكما إرسال رسائلكما الشخصية ضمن حقيبتنا الدبلوماسية أو حقيبتكم".

واجبت على رسالته في الحال واستخدمت توقيع "شخص من البحرية" وبدأنا بذلك سلسلة من المراسلات الطويلة الخالدة التي بلغ عددها ألف رسالة، والتي استمرت حتى وفاة الرئيس روزفلت بعد خمس سنوات.



ويواصل تشرشل حديثه قائلاً: وقع في شهر تشرين الأول حادث أثر على الأميرالية بشدة. فقد جاء التقرير يقول أنه في ليل الرابع عشر من الشهر ذاته دخلت غواصة إلى ميناء سكابافلو، وأغرقت أحدى بوارجنا وهي في الميناء، بعد أن انطلقت الطوربيدات بشكل لا يحدق، وأصاب أحدهما قوس البارجة وأحدث فيه انفجارا كبيرا، ولم يصدق قبطان البارجة ما حدث لبارجته وهي راسية في الميناء مطمئنة. وظن أن الانفجار داخلي. ومرت عشرون دقيقة بين الطوربيد الأول والثاني الذي ألحقته بسيل كبير

منها فأغرقت البارجة بعد أن تحطمت شر تحطيم. وفي عشرة دقائق ابتلعتها المياه. وكان معظم البحارة في مراكز عملهم، لكن السرعة التي تم فيها إغراق البارجة جعل من المستحيل عليهم النجاة من الغرق المحتم.

ولا ريب أن هذه المأساة، كانت عملا بطوليا رائعا لقائد الغواصة الألمانية القبطان براميين. وقد اهتز الرأي العام البريطاني لهذا العمل الجريء. وكان في إمكان هذا الحادث أن يقتضي على أي وزير من الوزراء لو اعتبر مسؤولا عن الإجراءات الدفاعية التي اتخذت قبيل الحرب. أما لكوني حديث عهد في الوزارة، فقد تخلصت من هذه الأزمة ومن اللوم ومن استغلال المعارضة لهذا الحادث.

وجاءنا الخطر المميت الثاني. فقد أغرقت اثنتي عشرة سفينة تجارية عند مدخل موانينا خلال شهري أيلول وتشرين الأول، بالرغم من تنظيف تلك الموانئ من الألغام. وقد شكت الاميرالية على الفور، بإمكانية استخدام العدو للألغام الممغنطة. ولم تكن هذه الألغام جديدة علينا، فقد استخدمناها على نطاق ضيق في نهاية الحرب العالمية الأولى، لكن الإضرار الفظيعة التي يمكن أن تحدثها الألغام الأرضية، لم يكن فهمه شيئا سهلا، وكان من المتعذر علينا أن نجد طريقه لعلاج هذه المشكلة الجديدة قبل أن نرى نموذجا من هذه الألغام. وقد تطورت الأعمال وازدادت الخسائر، إذ بلغت الألغام خلال شهري أيلول وتشرين الأول نحوا من ستة وخمسين ألف طن، مما حدا بهتلر إلى الإشارة إلى هذا "السلاح السري" الجديد الذي لا يمكن اتقاؤه. وفي ذات ليلة، بينما كنت في شارتويل جاءني الأميرال باوند، وقد بدا عليه القلق والاضطراب وأخبرني أن ست بواخر جديدة قد أغرقت عند مداخل نهر التايمز، وكانت البواخر التي تدخل موانئنا وتخرج منها تجاوز المئات كل يوم، وكانت حياتنا كلها متوقفة على

هذه الحركة المستمرة. ولا شك إن الخبراء لدى هتلر قد أبلغوه أن هذا النوع الرهيب من الهجوم سيقضي علينا ويدمرنا. ومن حسن الحظ أن هتلر كان ينتج هذا السلاح على نطاق ضيق محدود.

وفي الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني، وفي تمام الساعة التاسعة شوهدت طائرة ألمانية تسقط شيئا ضخما بمظلة كبيرة إلى البحر قرب شوبارنيس، ويطوق الساحل هنا مساحات شاسعة من الطمى التي تظهر عند حدوث المد ومن الممكن فحص هذا الشيء الضخم حال حدوث الجزر، وهنا ساعدنا الحظ وواتتنا الفرصة المناسبة، وفي الحال استدعي إلى مركز الأميرالية ضابطان من أبرز الضباط المتخصصين بالأسلحة البرمائية وهما اوفري ولويس، وتحدثت معهما ومع لورد البحر الأول، واستمعت إلى آراءهما. وفي تمام الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل توجها إلى ساوثيند لأداء مهمتها الخطرة في الكشف عن هذا الشيء الغامض. وتمكنا قبل فجر يوم الثالث والعشرين من العثور على اللغم وفحصه.

وبدأت عملية دقيقة عندما وجد الضابطان لغما أخرا قريبا من اللغم الأول. وراح اوفري يحاول تعطيل اللغم الأول، بينما وقف زميله لويس ومعه البحار القدير فيرنيكومب يراقبه استعداد لكل مفاجئة. وبعد ساعات رهيبة تم تعطيل اللغم الأول واستخلاصه. ثم أرسل على بورتسماوث لإجراء الدراسات الدقيقة عليه. ووصل في الحال أكثر من مئة ضابط ليشاهدوا الخطر الذي كان يهدد حياتنا.

وبدأنا منذ ذلك الحين سلسلة من التجارب العلمية، بعد أن تمكنا من اكتشاف سر تركيب الألغام، لاختراع وسائل الدفاع ضد هذه الألغام وتوصلنا إلى اختراع بعض الأسلاك الكهربائية وتطويق السفن بها. إلا أن هذه

الطريقة لم تؤد إلى النتيجة المطلوبة. فقد استمرت حوادث الانفجارات لكن السفن المصابة لم تغرق في الحال، بل كانت تستمر في مسيرها إلى أقرب مرفأ لإصلاحها من جديد.

وبعد مدة طويلة من التجارب توصلنا إلى اختراع وسائل أكثر فعالية لمكافحة الألغام، وكانت النتيجة مدهشة، وتمكنت أخيرا كانسات الألغام من تطهير البحار من جميع الألغام المزروعة وبدأ الخطر يزول. وقد كلفتنا هذه العملية الكثير من المجهود الحربي، واضطررنا إلى تحويل الكثير من المعدات والأموال من ميادين أخرى إلى هذا الميدان، وقد جندنا لهذه العملية الهامة ما يقارب الستين ألف رجل، ألا أن النتائج كانت مذهلة وتأثيرها المعنوي على رجالنا ورجال أسطولنا التجاري كانت رائعة. ولم نكن حتى ذلك الوقت قد تعرضنا لأي اعتداء معين في الميدان الواسع للمعارك البحرية. لكن هذا الاعتداء سرعان ما حدث...

ففي يوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني، شاهد الطراد المسلح "راولبندي" بينما كان يقوم بعملية استكشاف بين ايسلنده وفاروس، شاهد بارجة عدوة تقترب منه بسرعة. وظن قائد الطراد أن البارجة هي بارجة الجيب "دويتشلاند" فابرق إلى الإدارة المركزية في الحال، وكان قائد الطراد يعلم أنه من الجنون أن يحاول الدخول في معركة بحرية مع البارجة العدوة، أما الطراد فلم يكن أكثر من سفينة تجارية تحولت إلى طراد مجهز بأربع مدافع قديمة من عيار احد عشرة بوصة لذلك أبرق إلى الإدارة المركزية وقرر المجازفة والقتال حتى النهاية. واقتربت البارجة بسرعة هائلة وراحت تطلق نيرانها من مسافة عشرة ألاف ياردة، فرد الطراد عليها، وبدأت النيران الهائلة تنصب عليها حتى تحولت إلى كتلة من النار، وما لبثت أن غرقت بعد حلول الظلام مع قبطانها و270 رجلاً من رجالها

الشجعان.

وبالطبع لم تكن البارجة العدوة هي البارجة "دويتشلاند" وإنما كانت الطراد "شارنهورست" ومعها "غنيزناو". اللذان غادرا ألمانيا لمهاجمة قطع أسطولنا في الأطلنطي. ألا أنهما بعد أن اصطدما براولبندي، اضطرا إلى العودة في الحال بعد اكتشاف أمرهما... وهكذا لم تذهب تضحيات رجال الطراد البواسل هباء، فقد تمكن الطراد "نيوكاسل" من التقاط إشارة الطراد "راولبندي" وتوجه إلى ميدان المعركة وحاول مطاردة العدو، إلا أن هذا تمكن من الإفلات منه.

وفي شهر آب وصلت الأنباء إلى القيادة العليا، أن بارجة أو اثنين قد غادرتا ألمانيا متوجهة إلى الأطلنطي، فقام أسطولنا في الحال بالبحث عنهما. وعلمنا بعد مدة أن البارجة غراف شبي الألمانية قد أغرقت احدى بواخرنا الضخمة كليفت في شهر أيلول، وذلك قرب برنا مبوكو. واضطربت الاميرالية لهذا النبأ المفجع، وضج الرأي العام، وارتسمت علامات الاستفهام وراح الهمس يدور: "أين هو أسطولنا؟"... فتألفت على الفور وحدات مسلحة لمطاردة البارجة وإغراقها، وقد انضم إلى الوحدات عدد من حاملات الطائرات والبوارج والطرادات المجهزة بقوة كافية لتتمكن من القضاء على البارجة الألمانية.

وخلال الأشهر التالية كانت تسع وحدات بحرية مطاردة تجوب البحار بحثا عن البارجتين الألمانيتين "دويتشلاند" و"غراف شبي". وكانت الثانية أكثر جرأة من الأولى، فقد استمرت بنشاطها، فكانت تضرب السفن الصغيرة ثم تختفي في الآفاق الشاسعة. واستمر البحث عن "غراف شبي" إلى أن عثر عليه في الثاني عشر من كانون الأول، قرب مصب نهر لابلاتا، من قبل الطراد "اجاكس". وكان على ظهره الكومودور هاroood. وتم

في الحال حصار البارجة العدوة وانضم إلى المعركة الطراادان "اخيل" و"لايكسيتر". وبدأت معركة حامية الوطيس واشتعلت البحار بالنيران اللاهبة لمدة ساعة وعشرين دقيقة. وأصيبت طراداتنا بأضرار بالغة مما اضطرها إلى الانسحاب تحت ستر الدخان الكثيفة بانتظار حلول الظلام كما أصيبت البارجة العدوة وشوهدت ابراجها تتساقط مشتعلة. وكانت فرصة العدو الذهبية حين شعر قائد الطراد بأن الذخيرة ستنضب فاضطر إلى الانسحاب تاركا الفرصة للبارجة العدوة للانسحاب إلى ميناء مونيتفيديو فتبعها الطرادان البريطانيان دون أن يشتبكا معها في أي معركة، ودخلت البارجة إلى الميناء للتزود بالوقود ولاصلاحها من جديد. بينما وقف الطرادان بانتظارها وإغراقها في الحال عند خروجها من الميناء.

وابرق قائد البارجة في السادس عشر من كانون الأول إلى القيادة يقول أن سبيل النجاة قد سد أمامه وطلب تزويده بالتعليمات اللازمة هل يقوم باغراق الطراد أم يستسلم؟. وجاءته التعليمات من الاميرالية الألمانية: "حاول أن تبقى في المياه المحايدة... ثم حاول أن تتجه إلى بيونس ايرس أن استطعت. ولا تستسلم في اورغواي... وإذا قررت اغراق البارجة دمرها تدميرا كاملا".

وهكذا، بعد ظهر اليوم التالي، شوهدت بحارة البارجة تغادرها إلى احدى السفن الألمانية الراسية في الميناء، وعند المساء توجهت البارجة ببطء إلى عرض البحر حيث كانت طراداتنا بانتظارها. وما أن اقتربت من عرض البحر حتى سمعنا انفجارا مدويا وشاهدنا النيران تشتعل في البارجة العدوة، فعلمنا أن "غراف شبي" قد أغرقت نفسها، كما علمنا أن قائدها لانغسروف قد أصيب بانهيار عصبي لخسارته الفادحة فانتحر بعد يومين.

الفصل الثاني عشر

الجبهـــة فـــي فرنســـا

يتحدث تشرشل في هذا الفصل عن موقف الجبهة في فرنسا فيقول:

اتجهت الحملة البريطانية حال نشوب الحرب إلى فرنسا، وما أن انتصف شهر تشرين الأول حتى كانت أربع فرق بريطانية تتمركز على الجبهة الفرنسية – البلجيكية، وانضمت إليها ست فرق أخرى في شهر (مارس) آذار. وقد وجدت القوات البريطانية أن الجبهة مستعدة تمام الاستعداد، فقد حفرت الخنادق لمقاومة الدبابات، وأنشأت مراكز من الأسمنت المسلح، ركزت عليها مدافع ورشاشات مضادة للدبابات، بالإضافة إلى الأسلاك الشائكة الممتدة على طول الجبهة. وكانت مهمة جنودنا تحسين الجبهة الدفاعية التي أعدها الفرنسيون وتنظيم شكل من أشكال خط سيغفريد. وتقدم العمل بصورة سريعة بالرغم من الجليد، وعندما أخذت الصور الجوية تبين أن الألمان بدورهم بدأوا يوسعون خط سيغفريد من الشمال عبر الموزيل. وقد كانت المواد الأولية في متناول أيديهم مما سهلت لهم مهمة العمل، إلا أننا كنا نسير بسرعة تضاهي سرعتهم في التنفيذ. وتم تشييد المنشآت اللازمة لقاعدة ضخمة، وانهينا تعبيد الطرقات وتحسينها ومدت سكة حديد جديدة يبلغ طولها مئة ميل. ثم أتممنا انشاء نحوا من خمسين مطارا جديدا وقاعدة جوية صغيرة. كما تزودنا بكميات هائلة من العتاد والذخيرة توزعت في المستودعات على طول طرق مواصلاتنا. وقد تزودنا بالمؤن التي كانت تكفي لمدة عشرة أيام

بين السين والسوم، بالإضافة إلى كميات أخرى تكفي لسبعة أيام شمالي السوم. وقد ساعدتنا هذه المؤن وأنقذتنا بعد أن تمكن الألمان من اختراق الجبهة.

كانت روح الجيش الفرنسي، تختلف عن السابق أثناء الحرب العالمية الأولى، فقد ولت تلك الروح الثائرة المشبعة بالانتقام بعد أن حققت نصرها الأول وكان معظم القادة الذين تولوا زمام الأمور، قد قضوا نحبهم منذ وقت طويل. وكان الشعب الفرنسي لا يزال مشدوها من هول المذبحة التي ذهب ضحيتها نحو مليون ونصف المليون رجل. وكانت فكرة الهجوم لا تزال مرتبطة بمخيلتهم وبالفشل الذي أصابهم أثناء هجومهم عام 1914 وعام 1917 وبالالام والخسائر التي تكبدوها أثناء الهجوم، وسيطر عليهم الشعور بأن الأسلحة والاختراعات الحديثة قد زادت من قوة الدفاع وأصبحت تشكل خطر أكبر على الهجوم والمهاجمين. ولم يكن هناك مَنْ يمكنه أن يتفهم الحقيقة الجديدة القائلة بأن السيارات المدرعة قادرة على الصمود أمام نيران المدافع، بالإضافة إلى سرعتها الفائقة التي تمكنها من قطع مائة ميل في اليوم الواحد. ولم يكترث رجال الجيش وقادته لذلك الكتاب القيم حول هذه المواضيع، الذي كتبه شخص يدعى الفومندان ديغول... فقد كانت أفكار المارشال العجوز بيتان مسيطرة على عقول القادة ومغلقة الطريق أمام الأفكار الجديدة الجريئة.

وقد سمعنا بعد انتهاء الحرب بالنقد الكثير حول سياسة خط ما جينو. ولا شك أن فكرة الدفاع لدى الفرنسيين كانت نتيجة هذه السياسة. إلا أن التدابير الاحترازية الصحيحة للدفاع عن حدود شاسعة تمتد إلى مئات الأميال، تقضي بإقامة أكبر عدد ممكن من الحواجز والعقبات والحصون،

فهي توفر من استخدام القوات المحاربة. ولو أحسن استعمال خط ماجينو لكان باستطاعته أن يقدم خدمة كبيرة لفرنسا.

❊ ❊ ❊

ويواصل تشرشل حديثه قائلاً:

هناك نكتة معروفة في بريطانيا تقول أن وزارة الحربية اليوم تستعد للحرب الماضية. وكانت هذه النكتة مطابقة لواقع حال الجيش الفرنسي آنذاك، وكنت من جملة المؤمنين بنظرية الإجراءات الدفاعية التي يجب تنفيذها بدقة. وكنت بالإضافة إلى ذلك عارفا بمدى تخوف الفرنسيين من الهجوم نتيجة المذابح المخيفة في الحرب العالمية الأولى. كما أن الوقت الذي أضعناه قد فسح المجال أمام الألمان لبناء خط سيغفريد. وكانت المجازفة ضخمة لو فكرنا بقذف البقية الباقية من الشبيبة الفرنسية لاقتحام هذا الجدار الهائل من الأسمنت المسلح. وكانت نظرتي في الأشهر الأولى للحرب لا تختلف كثيرا عن وجهة النظر السائدة المتعلقة بالدفاع. وكنت اعتقد أن الأجهزة المضادة للدبابات ومدافع الميدان قادرة على صد أي هجوم مهما كان. إلا أن هذه النظرية كانت خاطئة، فقد قدر لنا أن نشهد بعد ثمانية أشهر هجوما هائلا شنته القوات الألمانية تتقدمها السيارات المصفحة التي لم تؤثر فيها قوة المدافع لقساوة فولاذها، فتمكنت من تحطيم جميع ما أعددناه من مقاومة دفاعية، وجعلت من المدفعية سلاحا لا قيمة له، لأول مرة في تاريخ الحروب منذ اختراع البارود.

لكن الجيش الفرنسي لم يكن في وسعه شن أي هجوم قبل نهاية شهر أيلول، إلا أن بولندا في ذلك الوقت كانت قد استسلمت. ولم يحل شهر تشرين الأول حتى تمكن الألمان من حشد سبعين فرقة من الجبهة الغربية

متفوقين بذلك على الحشود الفرنسية. ولو فكر الفرنسيون بشن هجوم من الجبهة الشرقية لتركوا الجبهة الشمالية خالية، وهيَ الجبهة الأكثر أهمية.

أما السؤال الذي طالما أثير: "لماذا بقيتم جامدين إلى أن دمرت بولندا؟" فالجواب عليه هو أن المعركة قد تقررت نتيجتها منذ سنوات. فالفرصة كانت مواتية ومضمونة عام 1938 يوم كانت تشيكوسلوفاكيا موجودة. وفي عام 1933 كان في وسع عصبة الأمم أن تستصدر أمرا ترغم به ألمانيا على الرضوخ دون حاجة إلى اهراق نقطة دم واحدة. ولا يجوز أن نلقي باللوم على الجنرال غاملان لأنه لم يقم بهذه المجازفة التي ازداد خطرها منذ الأيام الأولى للأزمات التي تخاذلت أمامها فرنسا وبريطانيا.

والآن ما هي احتمالات شن هجوم ألماني عام على فرنسا؟ كانت هناك ثلاث احتمالات هي: أن تقوم ألمانيا بشن هجومها عبر سويسرا للالتفاف حول الجبهة الجنوبية لخط ما جينو. إلا أن العقبات الطبيعية والإستراتيجية كانت تحول دون قيام هذا الهجوم. أما الاحتمال الثاني فهو في إمكانية غزو فرنسا من الحدود المشتركة بين البلدين. ولم يكن هذا الاحتمال ممكنا، إذ لم نكن نعتقد أن الجيش الألماني يملك المعدات اللازمة لتحطيم المنشآت المقامة واختراق خط ما جينو. يبقى الاحتمال الثالث وهو الهجوم عن طريق بلجيكا وهولندا. فبإمكان الجيش الألماني أن يتجنب اختراق خط ما جينو ويوفر الخسائر المتوقعة من جراء الهجوم على التحصينات المنيعة. ولم يكن في استطاعتنا صد الهجوم على بلجيكا، وكان هناك خطان يمكننا أن نتقدم نحوهما إذا ما دعتنا بلجيكا لاحتلالهما. فالخط الأول هو ما يدعى خط "الشلدت" وهو قريب من الحدود الفرنسية، ويمكن الوصول

إليه بسهولة، وبإمكاننا الاحتفاظ به للتضليل، وهذا في أسوأ الاحتمالات، كما يمكننا إذا ساعدتنا الظروف أن نقوم بإنشائه وتدعيمه. أما الخط الثاني فهو الخط الذي يسير مع نهر الوز عبر جيفيت وديناننت ونامور ولوفين الى انتويرب. ولو استطعنا أن نحتفظ بهذا الخط مهما كلفنا الأمر، فإن الجناح الأيمن للجيش الألماني سيتوقف، وسيمكننا معرفة قوة الجيش الألماني، فإذا كان ضعيفا، عندئذ يمكننا ابتداء هجوم كاسح ندخل به إلى ألمانيا ونشرف على منطقة الروهر الهامة بالنسبة للإنتاج الحربي الألماني.

ويقول رؤساء الأركان: "أن الخطة الفرنسية المسماة خطة "د" تقضي بأن يسرع الحلفاء إلى احتلال خط جيفيت – نامور، إذا تمكن البلجيكيون من الاحتفاظ بحوض الموز، كما أنه يترتب على القوات البريطانية أن تعمل في الجهة الشمالية. ونحن نجد أن هذه الخطة غير معقولة، إلا إذا وضعنا خططها مع البلجيكيين أنفسهم لاحتلال هذا الخط، قبل مدة من الزحف الألماني، وبعد أن يتبدل موقف بلجيكا الحالي، وترسم الخطط اللازمة بوقت قريب لاحتلال خط جيفيت – نامور والمسمى في بعض الأحيان خط الموز – انتويرب. ونحن نجد أنه يترتب علينا أن نواجه الزحف الألماني في أماكن نعدها في وقت مبكر على الحدود الفرنسية بالذات".

وفي اجتماع مجلس الحلفاء الأعلى في باريس، اتخذ القرار التالي: ونظرا للأهمية الكبرى المترتبة على وجوب ابقاء الألمان في أقصى مكان ممكن إلى الشرق. فمن الضروري جدا بذلك كل محاولة للمحافظة على خط الموز – انتويرب، في حال تعرضت بلجيكا للهجوم الألماني".

وهكذا أمضت الحملة البريطانية فصلي الربيع والشتاء في تجهيز مواقعها وتحصينها، واستعدادها للحرب الدفاعية أو الهجومية. وقد كانت

استعدادات الجيش رائعة ومنظمة وأكثر قوة في نهاية فصل الشتاء. إلا أننا كنا لا نزال نشكو نقصا كبيرا في الدبابات، ولم يكن لدينا فرقة مدرعة واحدة ضمن الحملة البريطانية في فرنسا. فقد أهملنا تطوير هذا النوع من السلاح الفعال في فترة ما بعد الحرب الأولى، ولم يكن عندنا سوى كتيبة تضم سبع عشرة دبابة خفيفة ومائة دبابة "مشاة" معظمها مجهزة بالمدافع الرشاشة فقط. لقد أهملنا هذا السلاح الهام الذي قدر له أن يسيطر على ميادين القتال.....

أما الجيش الفرنسي فلم يكن بحالة حسنة، ففرنسا لم تواجه الحرب عام 1939 – 1940 بروح معنوية مرتفعة أو بشيء من الثقة والإيمان. فالسياسة الداخلية المضطربة قد خلقت نوعا من الانقسام والسخط. وكانت الدعايات السامة التي يبثها غوبلز تلاقي أذانا صاغية تحفظها وترددها. وكانت تأثيرات الانقسام والشيوعية والفاشية تنعكس على الجيش وتتغلغل في صفوفه خاصة في فترة الانتظار الطويلة قبل الهجوم. ولم يكن هناك من أدنى شك في أن الانتظار الطويل قد أخر في كفاءة الجيش الفرنسي فلو قاتل في الخريف مثلا لكان قتاله رائعا وأورع منه في الربيع... وسرعان ما وجد هذا الجيش نفسه عرضه لهجوم ألماني كاسح صعقه بعنف.

وختاما لهذا الفصل أذكر هذه الحادثة المهمة التي حدثت في اليوم العاشر من شهر كانون الثاني عام 1940 والتي أكدت المخاوف بالنسبة إلى الجبهة الغربية، فقد قضت الظروف بأن تهبط طائرة ألمانية كانت تقل ضابطا ألمانيا، في بلجيكا، وعندما اعتقلته القوات البلجيكية حاول الضابط أن يتلف بعض الوثائق التي كان يحملها، إلا أنهم تمكنوا من مصادرتها قبلَ أن يتمكن من إتلافها. وقد تضمنت تلك الوثائق الخطة الكاملة لغزو بلجيكا

وهولندا وفرنسا، هذه الخطة التي وضعها هتلر بنفسه. وبعد قليل أطلق سراح الضابط فعاد إلى بلاده وأخبر قادته بما جرى له. وعندما نقلت إلي التفاصيل ذهلت وأنا غير مصدق كيف لا يضع البلجيكيون خطة يشركوننا فيها في الحال. لكنهم لم يفعلوا شيئا من هذا وقد طلبنا منهم أن يتعاونوا معنا، لكن الملك وقادة الجيش آثروا التروي والانتظار عله يأتيهم المستقبل بأشياء جديدة تقلب الأوضاع مرة أخرى. أما من الناحية الثانية، فقد استدعى هتلر غورنغ وأمطره بسيل من الشتائم ثم اضطر إلى تغيير خطة الغزو من أساسها. وقد تأكد لنا من الوثائق المصادرة أن هذه الخطة كانت صحيحة.

لقد آثر ملك بلجيكا أن يبقى على الحياد، آملا أن يتمكن من الصمود أمام الجيش الألماني، ثم يطلب الجيوش البريطانية والفرنسية لتسارع إلى نجدته... لقد كان العصر عصر التردد والتخاذل، ولم نكن لنلومه على موقفه هذا...

الفصل الثالث عشر

اسكندنافيا وفنلنده

يتحدث تشرشل في هذا الفصل عن الأوضاع في اسكندنافيا وفلنده فيقول:

إن لشبه الجزيرة الممتدة من داخل البلطيق إلى الدائرة القطبية أهمية عسكرية كبيرة. وتمتد سلسلة الجبال إلى المحيط ويفصل بينها ممر من المياه الإقليمية تتمكن ألمانيا بواسطته من المرور والاتصال بالبحار الخارجية، مما يجعل حصارنا البحري لا قيمة له. وكانت ألمانيا تعتمد بصورة رئيسية على استيراد مسحوق الحديد من السويد الذي يصلها في أيام الصيف من ميناء لوليا السويدي عند رأس خليج بوثنيا، أما في الشتاء وعندما تتجمد مياه الخليج تصلها من النروج. لذلك فإن احترامنا لحياد هذه الخلجان يعني سماحنا لهذا الاستيراد والتصدير الذي تستغله ألمانيا تحت ستار الحياد متحدية بذلك تفوقنا البحري. وقد شعرت الاميرالية بهذا الخطر، وأخطرت بدوري وزارة الحرب عن هذا الموضوع.

وعندما أثرت هذا الموضوع الهام اصطدمنا بعقبة احترامنا التام لحياد الدول الصغيرة! هذا المبدأ الذي كنا نتعلق به بالرغم من استغلال ألمانيا لهذا الاحترام. ولبث الموضوع بين أخذ ورد إلى أن أخذت الوزارة باقتراحي بعد مدة طويلة حيث بدا أن الوقت قد فات على اتخاذ مثل هذا القرار.

وفي نفس الوقت كان الألمان يفكرون بنفس الاتجاه الذي كنت أفكر

به، فقد قدم الاميرال ريدر، رئيس أركان البحرية الألمانية، اقتراحنا إلى هتلر باسم "كسب قواعد جديدة في النروج" وقد وضح في اقتراحه مقدار الضرر الذي سيلحق بألمانيا بحال تم احتلال البريطانيين للنروج وتحكمهم في مداخل البلطيق. وقد أصدر هتلر بناء على اقتراحات ريدر أوامره إلى القيادة العليا بإعداد الخطة لعملية غزو النروج.

وفي هذه الأثناء تحولت شبة جزيرة اسكندافيا إلى ميدان للصراع أثار ضجة كبيرة في بريطانيا وفرنسا، وأثر على محادثاتنا مع النروج بشدة. فقد أدت مواثيق المساعدات المتبادلة المعقودة بين روسيا واستونيا ولاتفيا وليتوانيا إلى احتلال هذه الدول وتدميرها – وبذلك أصبح الجيش الأحمر يقطع الطريق للدخول إلى روسيا من ناحية الغرب. وبقيت الطريق عبر فنلندا.

ومن ناحية فنلندا فقد وقع أحد الساسة الفنلنديين مع روسيا معاهدة صلح في عام 1921، كان من أهم مطالب الروس العديدة رد الحدود الفنلندية عند برزخ كاريليا إلى الوراء مسافة كافية لتصبح مدينة لينغراد في مأمن من خط المدفعية المعادية، كما تسلمت روسيا عددا من الجزر الفنلندية، أما الاختلاف الذي أدى إلى محاولة غزو فنلندا فكان حين طلبت روسيا استئجار الموانئ الوحيدة التي لا تتجمد في فصل الشتاء لكي تجعل منها قواعد بحرية وجوية. وكان الرضوخ لهذا الطلب يعني تهديد سلامة فنلندا بصورة أكيدة. وقد رفضت الحكومة الفنلندية هذا الطلب وانقطعت المفاوضات، وأعلن مولوتوف بناء على ذلك إلغاء ميثاق عدم الاعتداء المعقود مع فنلنده. وبعد يومين بدأ الهجوم الروسي على فنلندا على ثمانية جبهات وقام الطيران السوفيتي بضرب العاصمة هلسنكي من الجو.

وقد استبسل الفنلنديون في الدفاع عن بلادهم، فقد مضت الأسابيع الأولى للهجوم السوفيتي دون أن يتمكنوا من تحقيق أي نصر. وبرهن الجيش الفنلندي عن بطولة نادرة في صد الهجوم الكبير. وقوبلت الدبابات السوفياتية الضخمة بسلاح جديد من القنابل اليدوية التي سميت بكوكتيل مولوتوف. وقد استمرت الحملة حوالي الشهر إلا أنها باءت بالفشل الذريع، وتأكد للحكومة السوفياتية بأنها تقابل عدوا يختلف بقوته عما كانت تتوقعه أن يكون، لذلك قررت القيام بهجوم كاسح كبير مما يحتاج إلى إعادة تنظيم، فخففت من حدة القتال على طول الجبهة الفنلندية بعد أن تمكن الفنلنديون من صد عدوهم القوي.

وساد شعور من السخط لدى الجميع ضد الحكومة السوفيتية، بالإضافة إلى شعور بالاحتقار لعجز القوات الروسية عن غزو فنلندا الباسلة، وبالعطف والحماس على فنلندا بالذات. وبالرغم من أننا كنا نخوض حربا كبرى فقد كانت لدينا رغبة شديدة في مد يد العون إلى الفنلنديين وذلك بتزويدهم بالطائرات والآليات الحربية وإرسال المتطوعين من بريطانيا والولايات المتحدة وحتى فرنسا. ولم يكن هناك إلا ممر واحد لإرسال المتطوعين والمعدات الحربية. وهو عبر ميناء نارفيك النرويجي الذي اكتسب أهمية إستراتيجية كبرى. وكان استعمال هذا الميناء كقاعدة للتموين يؤثر على حياد النروج والسويد. وكان هم هاتين الدولتين البقاء خارج نطاق الحرب. فقد كانتا تخشيان كلا من ألمانيا وروسيا. وطلبت الحكومة البريطانية من النروج والسويد السماح لها بنقل الجنود والمؤن إلى فنلنده.

❊ ❊ ❊

ويواصل تشرشل حديثه قائلاً: كانت احدى القطع البحرية الألمانية

المسماة "التمارك" تشغل تفكيري، وهي القطعة البحرية التي كانت تساعد الطراد غراف شبي بالإضافة إلى كونها سجنا عائما لبحارة البواخر التي كانت البارحة غراف شبي تغرقها. وقد وصلتنا الأخبار أن هناك ثلاثمائة بحار بريطاني على ظهر (التلمارك) التي تمكنت من الاختفاء لمدة شهرين في جنوب الأطلنطي وعندما اطمئن ربانها إلى أنه أصبح في مأمن من مطاردتنا، حاول العودة بباخرته إلى ألمانيا. وفي الرابع عشر من شهر شباط شاهدت احدى طائراتنا الباخرة المذكورة في المياه الإقليمية للنروج.

وفي الحال تحركت المدمرات البريطانية بقيادة القبطان فيليب فيان على متن مدمرته "قوزاق" وقطعت طريق الباخرة الألمانية، إلا أنها لم تباشر بضربهما فالتجأت الباخرة إلى خليج جوسينغ، وأعطيت الأوامر بتفتيش الباخرة، وشوهد زورقين نروجين مسلحين أبلغاهما أن الباخرة الألمانية غير مسلحة، وقد سمحا لها بالمرور عبر المياه الإقليمية، فاضطرت المدمرتان البريطانيتان إلى الانسحاب على الفور.

وما أن وصلت هذه الأخبار إلى الاميرالية، حتى عادت وأصدرت إلى مدمراتنا الأوامر بدخول الخليج. فدخل القبطان "فيان" بمدمرته الخليج وصعد إلى أحد الزورقين النرويجين وطلب من قائده أن تساق "التمارك" إلى ميناء بيرغن للكشف عليها حسب القانون الدولي. فكرر القائد النروجي أن الباخرة غير مسلحة وقد فتشوها مرتين ولم يجدوا على متنها أي أسير بريطاني. عند ذلك طلب القبطان "فيان" من القائد النروجي مرافقته إلى ظهر الباخرة الألمانية فرُفض طلبه.

واغتنمت الباخرة الألمانية هذه الفرصة لتتحرك وتحاول الاصطدام بالمدمرة "قوزاق" إلا أنها فشلت، وفي الحال صعد إليها فريق من البحارة

نشب قتال عنيف بالسلاح الأبيض بين رجال الباخرتين أدى إلى مقتل أربعة من الألمان وجرح خمسة واستسلم الباقون. وبدأ البحث في الحال عن الأسرى البريطانيين، وبعد تفتيش دقيق عثر عليهم في المستودعات وفي خزان بترول فارغ وقد كممت أفواههم كي لا يتمكنوا من الاستغاثه وطلب النجدة من رفاقهم. كما عثر على مدفعين وأربعة مدافع رشاشة. وعلمنا فيما بعد أن النروجيين لم يقوموا بتفتيشها بالرغم من صعودهم على متنها.

وكان هذا الحادث قد ساعد الألمان على اتخاذ قرارهم بوجوب غزو النروج الذي أعد هتلر خطة غزوها في الرابع عشر من كانون الأول. وبعد أن اجتمع الفوهرر مع الجنرال فون فولكنهورست تقرر بدء العملية في التاسع من شهر نيسان.

وفي هذه الأثناء كان الروس قد ضاعفوا من مجهودهم الحربي، وقاموا بهجومهم الكبير على فنلندا في اليوم الأول من شهر فبراير شباط، والذي استمر حوالي اثنين وأربعين يوما، يصحبه قصف جوي عنيف. وتمكن الجنود الروس من اختراق خط الدفاع الفنلندي وتحطم خط مانرهايم وتركز الهجوم الروسي على خليج فيبوري.

وفي أول شهر مارس آذار أرسلت الحكومة الفرنسية خمسين ألف متطوع ومائة قاذفة قنابل إلى فنلندا، كما قامت الحكومة البريطانية أيضا بإرسال خمسين قاذفة قنابل. إلا أن الفنلنديين قد وصلوا إلى حد من الإعياء والجهد وكادت معداتهم الحربية أن تنفذ فسافر المستر باسيكيفي مرة ثانية إلى موسكو لإجراء المباحثات في شروط الهدنة، ووافقت الحكومة الفنلندية على شروط الروس في الحال.

الفصل الرابع عشر

النـــــروج

ويواصل تشرشل سرد الأحداث الخاصة باحتلال بولندا وغزو النرويج قائلاً: في ليلة الجمعة الخامس من شهر نيسان دعا وزير ألمانيا المفوض في أوسلو عددا من الوجهاء والوزراء إلى حفلة عرض فيها شريطا سينمائيا عن عملية احتلال بولندا التي وضح فيها المناظر المرعبة التي صورت أثناء قصف مدينة وارسو. وقد علق الوزير على الصور بقوله: "أن البولنديين يجب أن يشكروا أصدقاءهم الإنكليز والفرنسيين على ما حل بهم من كوارث"!!

وتفرق الضيوف وعلى وجوههم أمارات الرعب والقلق، خاصة مما يقوم به الإنكليز من نشاط كبير في النروج ومن زرع للألغام في مداخل الخليج الغربي المؤدي إلى ميناء نارفيك، واحتجت الحكومة النروجية على هذه الإجراءات الخطيرة، إلا أن الاميرالية البريطانية أعلمت المفوضية النروجية في لندن أن البوارج الألمانية بدأت تتحرك متجهة نحو الساحل النروجي، بينما كانت الجحافل الألمانية تجتاح الدانمارك، لكن الأخبار لم تصل إلى النروج إلا بعد أن تعرضت هي للهجوم الألماني.

كان الهجوم الألماني الصاعق يتميز بالمفاجأة والشدة والدقة، في مداهمة بلدا أعزل وشعبا بريئا كشعب النروج. فقد استخدمت ألمانيا سبع فرق عسكرية، وثمانمائة طائرة وثلاثمائة طائرة نقل، بالإضافة إلى الهجوم البحري الكبير. ولم تمض ثمان وأربعين ساعة حتى سقطت جميع الموانئ

النروجية في أيدي الألمان. وتغلغلت الدعايات الألمانية بسرعة البرق بين صفوف الشعب، ووقف الماجور كويزلنغ ليعلن نفسه حاكما على المناطق التي سقطت في أيدي الألمان.

وبدأت في الحال تعبئة الجيش الذي راح يقاتل بضراوة الجيوش الغازية الزاحفة شمالا من أوسلو. والتجأ الوطنيون إلى الجبال والغابات، وانسحب الملك وحكومته إلى هامار التي تبعد مئة كيلو متر عن أوسلو، وطاردتهم المدرعات الألمانية وقصفتهم الطائرات من الجو إلا أنهم تمكنوا من الوصول، وأذاعوا بيانات تدعوا إلى المقاومة والثورة. ولا شك أن السرعة التي تمكن بها هتلر، بعد ذلك، من السيطرة على البلاد تعتبر عملا وحشيا من أعمال الحرب والسياسة ومثلا حيا يدل على مدى إتقان ألمانيا لفظاعة الحرب ووحشيتها.



وبهجوم هتلر على النروج انتهى وميض الحرب، وتلاه أعظم انفجار عسكري عرفته البشرية. فمنذ أن تحالف ستالين مع هتلر، تلقى الشيوعيون الفرنسيون الإشارات من موسكو بوجوب إعلان استنكارهم للحرب ونعتها بجريمة استعمارية رأسمالية ضد الديمقراطية! وحاول الشيوعيون بكل ما في وسعهم في تحطيم معنويات الجيش، وعرقلة أعمال المصانع. وتمكنت الدعايات الهدامة من تحطيم الروح المعنوية لدى الجيش والشعب.

ولم يحدث شيء من هذا في بريطانيا، فقد كانت توجيهات موسكو للشيوعية المحلية في بريطانيا ضعيفة كل الضعف. وقد أدت الحملة على النروج إلى اضطرابات عنيفة نشبت في بريطانيا، واتقدت العواطف الثائرة، وطالبت المعارضة بإجراء مناقشة في المجلس عن الوضع الحربي، فتقرر

إجراء هذه المناقشة في السابع من شهر أيار. وحاول المستر تشمبرلين تهدئة العواطف المعادية، لكنه قوطع بالاستهزاء. ورد المستر تشمبرلين على المستر هربرت موريسون بقوله أني لم أكن أتمتع بصلاحيات كبيرة أثناء حملة النروج. وراح الخطباء يهاجمون الحكومة بعنف مشوب بالمرارة. وقام المستر ايمري الذي قوبل بالهتافات العالية ليقول ما سبق وقاله كرومويل: "لقد أمضيتم وقتا كثيرا هنا لا ينسجم مع النفع الذي كنتم تفعلونه. وأني أقول الآن، أخرجوا وخلصونا منكم؟ بحق الله، أذهبوا..."

وفي اليوم التالي أعلن المستر هربرت موريسون، باسم المعارضة عن عزمه طلب الإقتراع على الثقة، وقام رئيس الوزراء ليعلن قبوله التحدي. وقام المستر لويد جورج ليلقي خطابا قصيرا وجه فيه ضربة قاضية على رأس الحكومة، إلا أنه أبرأ ذمتي بقوله: "لا أظن أن وزير البحرية يعتبر مسؤولا عن ما حدث في النروج" وقد قاطعته على الفور بقولي: "أني أتحمل كل المسؤولية عن كل ما قامت به الاميرالية متحملا العبء كله" فحذرني المستر لويد من مغبة جعل نفسي ملجأ يقي الحكومة من الشظايا. ثم التفت إلى المستر تشمبرلين وقال: "ان القضية أضخم بكثير مما نتصور. لقد طلبت منا في السابق أن نضحي، وأنا أقول أن الشعب بأسره على أتم الاستعداد للتضحية إذا رأى على رأسه القيادة الصالحة. وإذا رأى هذا الشعب أن الذين يتولون زمام الأمور يقومون بدورهم بأقصى ما يمكن من جهد. وأنا أقول بكل احترام، أن من واجب رئيس الحكومة أن يقوم بتضحية كبيرة مقدما بذلك مثلا أعلى للشعب، إذ ليس ثمة من شيء يكون أكثر إسهاما من النصر في هذه الحرب من تضحيته بمركزه..."

وعندما طرحت الحكومة الثقة فازت بها بأغلبية واحد وثمانين صوتا،

بالرغم من امتناع ثلاثين نائبا محافظا عن التصويت. إلا أن النتيجة لم تقنع المستر تشمبرلين ولم تطب نفسه بعد الالم الذي أصابه.

***

في اليوم العاشر من شهر أيار وردت الأخبار الهائلة بأن جحافل هتلر قد اجتاحت هولندا وبلجيكا، واجتازت حدودهما في عدة مواقع. واتجهت حركة الجيش نحو الأراضي المنخفضة وفرنسا...

وفي مكتبي بالاميرالية وجدت بعض الوزراء الهولنديين الذين وصلوا من امستردام، بعد أن هوجمت بلادهم دون أي سبب. وطلبوا منا أن نفعل شيئا، ولحسن الحظ أن سفينة بحرية كانت قريبة فاصدرنا إليها الأمر بالتوجه فورا وضرب العدو وإنزال أكبر عدد ممكن من الخسائر بقواته مع علمنا أن الأمر قد انتهى وأصبحت البلاد في أيدي الألمان. وكانت الملكة لا تزال في البلاد، إلا أنها لن تتمكن من البقاء طويلا.

وفي أثناء هذه المعركة الجديدة وصلتني رسالة تستدعيني للمثول أمام الملك في تمام الساعة السادسة. وما أن وصلت إلى القصر حتى سمح لي بالدخول على الفور، واستقبلني جلالته ببشاشة ولطف كثيرين وأمرني بالجلوس، ونظر إلي وقال: "اعتقد أنك تعلم لماذا استدعيتك؟" وأردت أن أجاريه في طريقته فأجبت "لا اعتقد أني أعلم يا سيدي" فضحك جلالته وقال: "أريد أن أطلب منك تأليف الوزارة". وأجبته بأني سامتثل لأمره في الحال.

ولم يشترط جلالته علىَّ نوع الحكومة وقوميتها. وشعرت أن تكليفي ليس مشروطا بتأليف حكومة قومية، إلا أني كنت أفضل في هذه الظروف بالذات قيام حكومة قومية. ولكن إذا تعذر على التفاهم مع المعارضة،

فأني عند ذلك لن أكون ممنوعا من الناحية الدستورية من تأليف حكومة قوية تضم جميع القادرين على الوقوف إلى جانب بلادهم في هذه الظروف العصيبة شرط أن تكسب تأييد الأغلبية في المجلس. وأخبرت جلالته أني عازم على تقديم أسماء خمسة أو ستة وزراء ممن ستتألف منهم الوزارة، قبل منتصف الليل.

ودعوت المستر تشمبرلين هاتفيا وطلبت منه تولي رئاسة المجلس، فوافق وجرى الاتفاق على إذاعة بيان استقالته في الساعة التاسعة. وقد قام بهذه المهمة بطريقة رائعة كريمة ودعا إلى تأييد خلفه والالتفاف حوله. وبعد ذلك تمكنت من تأليف الوزارة وأرسلت لجلالته قائمة بخمسة أسماء، كما وعدته. وقررت أن أتولى بنفسي مهام وزارة الدفاع. وهكذا تم لي تسلم القيادة في الدولة، وبقيت محتفظا بها طيلة خمس سنوات وثلاثة أشهر، بكل إخلاص وقوة، إلى أن انتهت الحرب واستسلم أعداؤنا دون قيد أو شرط.



الجزء الثاني من مذكرات تشرشل

الفصل الأول

معركة فرنسا

يتحدث تشرشل في الجزء الثاني من مذكراته عن معركة فرنسا وما حدث فيها فيقول: منذ نشوب الحرب في أيلول عام 1939، خصص الألمان قوتهم الرئيسية لغزو بولندا. وكانت تقف على الحدود الغربية الممتدة من اكس – ليشابل إلى حدود سويسرا، اثنتان وأربعون فرقة ألمانية، وكانت هذه الحشود خالية من أية فرقة مدرعة. وكان بوسع فرنسا أن تواجه هذه القوة بنحو من سبعين فرقة، ألا أنهم لم يفعلوا ذلك وقرروا أنه من المعتذر الهجوم على ألمانيا آنذاك. أما الآن فقد تغير الوضع تماما، فقد اغتنم العدو الفرصة التي منحت له خلال ثمانية أشهر، وبعد أن تمكن من احتلال بولندا عبأ ما يقارب المائة والخمسة والخمسين فرقة من بينها عشرة فرق مدرعة. وقد ساعده في ذلك الاتفاق المعقود بين هتلر وستالين، والذي مكن هتلر من سحب وتخفيض قواته على الجبهة الشرقية إلى أقل عدد ممكن. وقد وصف الجنرال هولدر تلك القوات البسيطة المتبقية أمام روسيا بأنها قوة صغيرة تصلح لجمع الضرائب فقط. وهكذا استطاع هتلر

أن يخصص لهجومه الكاسح على فرنسا مائة وست وعشرين فرقة مجهزة بأقوى الأسلحة، تدعمها ثلاثة الاف سيارة مصفحة وألف دبابة ثقيلة.

أما فرنسا فقد حشدت مائة وثلاث فرق، بينها الفرق البريطانية الموجودة في فرنسا، وإذا تقرر إشراك الجيوش البلجيكية والهولندية فسيزداد العدد بمقدار اثنين وعشرين فرقة إضافية، ولما كان الهجوم الألماني الذي بدأ في العاشر من أيار عام 1940 قد استهدف الجبهات الثلاث مجتمعة، فقد بلغ مجموع القوات الحليفة مائة وخمس وثلاثون فرقة، أي ما يوازي عدد الفرق الألمانية تقريبا. ولو كانت هذه القوة الكبيرة منظمة تنظيما حسنا ومدربة تدريبا تاما لكان في إمكانها وقف الهجوم الألماني. إلا أن الجيش الألماني آنذاك أصبح في وضع يمكنه من اختيار الوقت والاتجاه والقوة اللازمة لبدء هجومه. وكان أكثر من نصف الجيش الفرنسي متمركز في القطاعات الجنوبية والشرقية من البلاد، بينما بقيت احدى وخمسون فرقة فرنسية بريطانية لتواجه الهجوم الكاسح في الشمال الذي تقوم به نحو من سبعين فرقة ألمانية. وقد بدأ الألمان هجومهم بزحف الدبابات الحديثة التي لا تخترقها قذائف المدافع والطائرات، وقد صدرت الأوامر إلى خمس فرق مدرعة وثلاث فرق الية بعبور الاردين إلى سيدان ومونترمي.

أما الفرنسيون فقد واجهوا هذه الدبابات بدبابات من النوع الخفيف وقد بلغ عددها الفين وثلاثمائة دبابة، وقد تضمنت فرقهم الآلية المدرعة بعض الأنواع القوية، إلا أن معظم قوتهم المدرعة تلك كانت مجزأة ومتفرقة على عدة جبهات. أما بريطانيا التي كانت أول من اخترع الدبابة فقد أكملت تدريب أول فرقة مدرعة لها قبل أيام من بدء الهجوم، ولم تتمكن من

إرسالها إلى فرنسا.

أما الطائرات الألمانية، فكانت تفوق الطائرات الفرنسية بالعدد والقوة. أما القوة الجوية البريطانية العاملة في فرنسا فكانت تضم عشرة أسراب من طائرات "الهاريكين"، التي تمكنا من الاستغناء عنها، بالإضافة إلى تسعة عشر سربا من أنواع مختلفة أخرى. أما طائرات الانقضاض، هذا النوع الجديد من الطائرات الذي بدأ في الظهور منذ غزو بولندا، فلم تكن فرنسا أو بريطانيا قد أنتجته بعد. وقد أثرت هذه الأنواع من الطائرات على كتائب المشاة الفرنسيين وحطمت من معنوياتهم بشكل كبير.



بدأ الهجوم الألماني ليلة التاسع - العاشر من شهر أيار عام 1940، وقد سبق هذا الهجوم، غارات جوية على المطارات وطرق المواصلات والمنشآت العسكرية، وبدأ الهجوم عبر حدود بلجيكا وهولندا واللوكسمبورغ. وتمكن الألمان من مباغتتهم في كل مكان، وكان جنود العاصفة وهم يحملون المدافع الخفيفة، ينطلقون من جميع الجهات ليشعلوا الجبهة بالنيران.. وعندما بدأ الزحف الكبير على هولندا وبلجيكا صرختا تطلبان النجدة. أما الهولنديون فقد أركنوا إلى خطهم المائي وفتحوا جميع الثغرات التي لم يتمكن الألمان من الاستيلاء عليها، كما راح حرس الحدود يقاومون الغزاة. إلا أن الألمان كانوا قد اخترقوا الجبهة على عدة مواضع وأقاموا الجسور واستولوا على فتحاتها والمفاتيح التي تضبطها. بينما راحت الطائرات المغيرة تضرب بقوة، وأصبحت مدينة روتردام بعد ليلة واحدة كتلة من الأنقاض، كذلك لاهاي واوترخت وامستردام...

وفي الرابع عشر من أيار، بدأت الأخبار السيئة تصلنا عن اختراق

الألمان للجبهة في سيدان، ولم يتمكن الفرنسيون من الوقوف في وجه الجيش الألماني، ومقاومة الدبابات وطائرات الانقضاض الهائلة. وقد وصلتنا إلى مجلس الوزراء رسالة من المسيو رينو، يطلب فيها إرسال عشرة أسراب من الطائرات لمساعدته في إعادة تنظيم الخطوط. كما وصلت رسائل أخرى إلى رؤساء الأركان تشرح الموقف وتقول أن الجنراليين غاملان وجورج يعتبران الوضع خطيرا جدا، وقد ذهل الجنرال غاملان من سرعة الزحف الألماني.

وفي جميع الأماكن التي اشتبكت فيها الجيوش كانت قوة الهجوم الألماني تسيطر على الموقف في الحال. أما الطائرات البريطانية فقد قاتلت ببسالة وقوة وحطمت الجسور الرئيسية في سيدان، إلا أن الخسائر التي تعرضت لها الطائرات البريطانية كانت كثيرة إلى حد مخيف. فمثلا خسرنا في يوم واحد حوالي سبعة وستين طائرة أنزلتها المدفعية الألمانية المضادة للطائرات، كما أسقطنا حوالي ثلاثة وخمسين طائرة ألمانية. ولم يبق لدينا في ذلك اليوم سوى 206 طائرات من أصل 474 طائرة في فرنسا... واتضح لنا أن الاستمرار على هذه الحال سيؤدي إلى نهاية القوة الجوية البريطانية. وكان السؤال الآن، ماذا في وسعنا أن نرسل من طائرات إلى فرنسا دون أن نترك بلادنا بلا دفاع. وكانت نداءات فرنسا الملحة، ورغبتنا في القيام بالتزاماتنا تدفعنا إلى إرسال المزيد، إلا أننا سنصل إلى حد لا يمكننا تجاوزه لأنه سيكلفنا بذلك حياتنا.

وبحثت وزارة الحرب، التي كانت تجتمع كل يوم، هذا الوضع المخيف. وكان ماريشال الجو داودينغ قد أعلمني أن باستطاعتنا الدفاع عن وطننا بخمسة وعشرين سربا مقاتلا من الطائرات، حتى لو هاجمنا السلاح

الجوي الألماني كله. اما إذا انخفض هذا العدد، فلا يمكننا الدفاع بعد بذلك. وكانت الهزيمة لا تعني فقط تدمير مطاراتنا وقوتنا الجوية، بل تعني تدمير مصانع إنتاج الطائرات الذي يتوقف عليها مستقبل بلادنا كله....

وفي الساعة السابعة والنصف صباحا من يوم الخميس في الخامس عشر من شهر أيار وصلتني مخابرة هاتفية إلى المنزل وأنا في فراشي من المسيو رينو. وكان يتكلم بالإنكليزية، والاضطراب باديا على صوته وهو يقول: "لقد هزمنا. لقد خسرنا المعركة" فقلت له: "لا يمكن أن تهزموا بهذه السرعة!!" فأجاب "لقد تحطمت الجبهة عند سيدان، وهم الآن يتقدمون بالدبابات والآليات المدرعة" وأجبته على الفور بأني سآتي إلى فرنسا للتحدث معه.

لقد استطاع الألمان أن يقتحموا الجبهة، واندفعت قوات كبيرة بعد أن أضمحل الجيش الفرنسي التاسع. وفي السادس عشر منه توغلت القوات الألمانية ستين ميلا وراء الجبهة، كما انتهى القتال في ذلك اليوم أيضا، في هولندا بعد أن استسلمت القيادة العليا...



في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم نفسه، توجهت إلى فرنسا ومعي الجنرال ديل، نائب رئيس أركان حرب الإمبراطورية والجنرال ايسماي. ووصلنا بعد ساعة إلى مطار "لابورجيه". وظهر لي الوضع اسوأ بكثير مما كنت اعتقده. وقد قال الضباط الذين كانوا في استقبالنا أن الألمان سيصلوا باريس خلال أيام معدودة، وهذا على أكثر تقدير. وتوجهت إلى سفارتنا وبعد أن استمعت إلى الأخبار، توجهت إلى الكي دورسيه، ودخلت إلى الغرفة حيث كلن بانتظارنا رينو ووزير الدفاع ديلادييه والجنرال غاملان. وكان

الجميع وقوفا، ولاحظت على وجوههم دلائل التعب والاضطراب. ورأيت أمامهم خريطة قد رسم عليها بخط أسود جبهة الحلفاء، وقد أحدثت فيها ثغرة صغيرة مشؤومة عند سيدان.

وأوضح القائد باختصار تفاصيل ما حدث. فقد اخترق الألمان الجبهة إلى الشمال والجنوب من سيدان على بعد ستين ميلا، وقد تمزق الجيش أمامهم وتحطم شر تحطيم. وبدأت السيارات تتجه بسرعة هائلة نحو اميان واراس، معتزمة الوصول إلى البحر عند ابيغيل أو قربها، وربما غيرت هذه القوات وجهة سيرها، وتحولت نحو باريس. وقال أن القوات المدرعة البالغة ثماني فرق تزحف وراء السيارات وتوسع في أجنحتها أثناء تقدمها بعد أن شطرت الجيش الفرنسي وفصلت بينه تماما. وقد استمر الجنرال يحدثنا عن الوضع حوالي خمس دقائق. وبعد أن انهى حديثه ساد الوجوم والصمت لفترة طويلة، ثم سألته "أين القوة الاحتياطية وأين قوات المناورات؟" وأجابني غاملان وهو يهز برأسه: "لا يوجد عندنا قوات احتياط أو قوات مناورة...."

وساد الصمت فترة أخرى. وارتفع الدخان في الحدائق من المشاعل ورأيت الموظفين يحملون الوثائق والمستندات الهامة ويضرموا فيها النيران استعدادا للجلاء عن باريس.

وعلى الرغم من أن للتجارب الماضية ميزات عديدة، إلا أنها تنقص نقصا هاما هو في كون الأمور لا تتكرر على نفس الصورة مرتين. ولولا ذلك لكانت الحياة تسير بسهولة كبيرة. وفي السابق تحطمت جبهاتنا وتمكن العدو من اختراقها، لكننا كنا دائما نتمكن من وصل الأشياء ببعضها ونخفف من حدة الهجوم. إما الآن فالتجربة كانت مختلفة، فقد انقطعت

طرق المواصلات، وتم الاستيلاء على الريف القائم وراء الجبهة باندفاع هائل من السيارات المدرعة، ولم يكن باستطاعتنا المقاومة لعدم وجود احتياطي استراتيجي لدى الفرنسيين... لقد أجابوني بأنه ليس لديهم احتياطي، وقد أذهلني جوابهم هذا، إذ كيف يمكننا اعتبار هذا الجيش الفرنسي الكبير بعد الآن؟ ولم استطع أن أتصور أن قائدا يعهد إليه مهمة الدفاع عن جبهة تقدر مساحتها بخمسمئة ميل، ويبقي عاجزا عن المناورة. إذ لا يمكن لأي قائد أن يدافع عن جبهة واسعة كالجبهة الفرنسية، خاصة بعد أن يندفع العدو بهذه القوة الهائلة ويخترق الجبهة. لذلك يتوجب على القائد أن يطلق فرقة الاحتياطية لمهاجمة العدو في نفس اللحظة التي تكون حدة هجوم العدو قد خفتت.

إذن لماذا أقامت فرنسا خط ماجينو هذا؟ فهو بلا شك قد وفر استخدام قوات كبيرة من الجيش، وبنفس الوقت خلق مراكز اندفاعية، وباستطاعة الجيش أن يستخدمها أثناء هجومه المعاكس بالإضافة إلى استخدامه لتلك المراكز لحشد قوات إضافية تساعد الجيش عند الضرورة. وهذه هي الطريقة الوحيدة لمواجهة مثل هذا الموقف. ولكنهم يقولون أنه ليس عندهم احتياطي.

وهنا لابد أن اعترف أن قولهم هذا كان أكبر مفاجأة تلقيتها في حياتي. فلماذا لم يعرفوني بهذا الأمر من قبل، حتى ولو كنت منهمكا في أعمالي في الأميرالية؟ بل لماذا لم تعرف الحكومة البريطانية بهذا الأمر من قبل، وخاصة وزارة الحربية؟ ولا اعتقد أن القيادة الفرنسية ما كانت لتكشف لنا عن هذا الضعف أو عن طريقة توزيع قواتها، فهذا العذر هو أقبح من الذنب. إذ أنه من حقنا أن نعرف، فالجيشان يخوضان معركة حياة أو

موت في الجبهة... وعدت إلى النافذة لأراقب السنة اللهب تلتهم الوثائق والمستندات الخاصة بالجمهورية الفرنسية. وكانوا لا يزالون يقذفون بمزيد من المستندات إلى النيران المتأججة....

وعاد الجنرال غاملان إلى الحديث مرة أخرى، ويقول إذا لم يكن من الضروري إعادة جمع القوات المشتتة لتضرب القوات الغازية. وقال إن هناك ثماني فرق أو تسعة يمكننا سحبها من المراكز الهادئة في الجبهة عند خط ماجينو، كما أن هناك ثلاث فرق مدرعة لم تشترك بعد في المعركة.

بالإضافة إلى ثماني أو تسع فرق ستصل في طريقها من أفريقيا خلال أسبوعين. وفي هذه الحالة سيجتاز الألمان طريقهم عبر ممر بين جبهتين فيمكن شن الغارات المعاكسة عليهم، ولن يتمكن الألمان من الصمود نتيجة ضغط الجبهتين عليهم...

ومع أن أقوال الجنرال غاملان كانت منطقية ومعقولة، إلا أنني شعرت بأن بقية الرجال لا يصدقون ما يقوله. وسألت الجنرال غاملان عن الموعد الذي سيحدده للهجوم، وعن الطريقة التي سيتبعها في هجومه، وكان رده: "أننا أقل منهم عددا وعدة، وأضعف منهم في أساليب الحرب.." وبعد ذلك اكتفي بأن هز كتفيه، ولم نتكلم بعد ذلك، إذ لم يكن من ضرورة لذلك... ثم أين تقف بريطانيا إزاء هذا الوضع، بأسهامها الضعيف الذي لا يتعدي العشر فرق والتي لا يوجد بينها فرقة واحدة من الدبابات الحديثة، وذلك بعد مضي ثمانية أشهر من إعلان الحرب؟؟

***

وفي الصباح، قبل أن أغادر المكان، وصلني التفويض من مجلس الوزراء

في لندن لنقل أربعة أسراب من الطائرات المقاتلة إلى فرنسا. ورجعت إلى السفارة لأطلب إرسال ستة أسراب أخرى، تاركا خمسة وعشرين سربا فقط للدفاع عن الجزر البريطانية كلها، وهذا هو الحد النهائي. وجاءتني الموافقة في المساء، فتوجهت لتوي إلى منزل المسيو رينو وأبلغته النبأ. كما طلبت منه استدعاء المسيو ديلادييه ليسمع النبأ المفرح، الذي بدا لي أنه سيرفع من معنويات أصدقاءنا الفرنسيين. وعندما سمع المسيو ديلادييه بالخبر لم ينبس بكلمة واحدة، واكتفي بأن قفز من مكانه وأمسك بيدي وعصرها وأمارات الفرح ترتسم على وجهه... وفي صباح اليوم التالي عدت إلى لندن. وقد أخبرت أصدقاءنا الفرنسيين، قبل أن أغادر باريس، أنهم ما لم يبذلوا جهدا فائقا فإن مغامرتنا الكبرى في إرسال تلك الإسراب من الطائرات تصبح دون فائدة. وقد قيل لي أن خسائر العدو كانت أكبر من خسائرنا بخمسة أضعاف، كما قيل لي أن فرنسا فقدت معظم طائراتها... وخيل للجنرال غاملان أن الوضع قد أصبح منتهيا، وقد أخبروني بعد ذلك أنه أعلن بأنه لن يتمكن من الصمود أكثر من يوم واحد فقط، وأن باريس ستسقط بين ليلة وضحاها!! وفي نفس اليوم الذي وصلت فيه لندن، وصلتني الأخبار أن الألمان دخلوا بروكسل وفي اليوم التالي دخلوا كامبرية ثم اجتازوا سان كانتان، بينما كانت القوات الحليفة تتراجع منسحبة...

وفي منتصف ليل الثامن عشر-التاسع عشر، قام الجنرال بيلوتي بزيارة اللورد غوت في القيادة العليا. ولم تكن شخصية هذا القائد تبعث على الارتياح والثقة. ومنذ تلك اللحظة بدأت فكرة الانسحاب إلى الشاطئ تراود مخيلة القائد العام البريطاني، وقد أبرق إلينا يقول أن الوضع في فرنسا قد تغير ولم تعد المسألة مسألة خرق لخط الدفاع، بل أصبح الوضع يشكل صورة القلعة المحاصرة والمهددة بالسقوط.

وبدأ المسيو رينو بتغيير أعضاء وزارته وقيادته العليا. وعين الماريشال بيتان نائبا لرئيس الوزراء، ونقل المسيو ديلادييه إلى وزارة الخارجية وأخذ عنه مهام وزارة الدفاع والحربية واحتفظ بها لنفسه، كما عين الجنرال ويغان قائدا أعلى بدلا من الجنرال غاملان.

كان أخر أمر أصدره الجنرال غاملان هو أن تشق الجيوش الشمالية طريقها إلى الجنوب إلى نهر السوم مهما كلفها الأمر، وأن تهاجم مدرعات العدو التي قطعت طرق مواصلاتنا. وفي نفس الوقت يترتب على الجيش الثاني والجيش السادس أن يخترقا الصفوف باتجاه الشمال نحو ميزيير.

وقد أعجبت بهذه القرارات المتخذة، فقد كانت قرارات صائبة جدا.

وقد أثار اضطراب القيادة الشمالية، وهزيمة الجيش الفرنسي الأول وغموض الموقف العام، أثار القلق في نفوسنا، وبقيت في نفس الوقت جميع الإجراءات التي اتخذناها هادئة مرنة وجاءتنا رسالة من اللورد غورت تقول أنه يدرس إمكانية انسحاب جيوشنا إلى دنكرك، بحال اضطر إلى ذلك... ولم يكن باستطاعة رئيس الأركان الموافقة على مثل هذا الاقتراح الذي لم نكن نحن أيضا نوافق عليه، فبعثنا برسالة إلى اللورد غورت، نعلمه بها بوجوب الاتجاه بالقوات البريطانية نحو الجنوب الغربي لتنضم إلى القوات الفرنسية في الجنوب، وفي نفس الوقت يحث البلجيكيين على العمل بنفس الخطة. وإذا لم يوافقوا عليه أن يخبرهم عن استعدادنا لإجلاء أكبر عدد ممكن من القوات من موانئ المانش. وقررنا في نفس الجلسة أن نرسل الجنرال ديل إلى مقر قيادة الجنرال جورج، الذي كنا على اتصال تلفوني دائم معه، بينما كانت اتصالاتنا مع اللورد غورت متقطعة وصعبة، وقد وصلتنا الأخبار بأن الذخيرة والمؤن لم تعد تكفي إلا لمدة أربعة أيام فقط.

وفي العشرين من أيار، بعد أن درسنا وضع جيشنا من جديد، قررنا بالجلسة الخاصة ما يلي: "يتوجب على الاميرالية أن تقوم بحشد أكبر عدد ممكن من السفن الصغيرة، وذلك كإجراء احتياطي، لنكون على استعداد للإبحار إلى الموانئ القائمة على طول الساحل الفرنسي". وفي نفس اليوم عقد المؤتمر الأول لجميع من يعينهم الأمر لدرس قضية الجلاء الطارئ عبر القناة لقوات كبيرة جدا. كما وضعت الخطة لإجلاء عشرة آلاف رجل عن موانئ كاليه وبولون ودنكرك، كل أربعة وعشرين ساعة. وقد أسميت هذه الخطة "عملية دينامو" التي برهنت على أنها الطريقة الوحيدة التي أنقذت الجيش بعد عشرة أيام.

وفي ليلة العشرين من الشهر نفسه دخل الألمان مدينة ابيفيل، بعد أن قطعت طريق مواصلات الجيوش الشمالية، وأصبح اتجاه قواتهم واضحا الآن وكانت الفرق الآلية والمدرعات تتدفق كالسيل الجارف دون أن تلقي أية مقاومة من الفرنسيين، وكانت تتقدم مجتازه المدن والقرى بمعدل ثلاثين أو أربعين ميلا في اليوم الواحد. وكان الضباط الألمان ينظرون إلى السكان ويبتسمون بسخرية وهم يلوحون لهم بأيديهم. وتتحدث الأخبار أن جماعات من الأسرى الفرنسيين كانت تسير معهم والبنادق لا تزال في أيديهم، وكان الألمان يجمعونها بين الفترة والأخرى ويحملونها تحت الدبابات.... وقد أذهلني هذا الفشل في الوقوف أمام هجمات المدرعات الألمانية التي تمكنت من تحطيم جيوش قوية بكاملها، كما أذهلني الانهيار السريع في المقاومة الفرنسية بعد أن تمكن الألمان من اختراق الجبهة. فقد كانت القوات الألمانية تسير على الطرقات الفرنسية الرئيسية بحرية تامة. ولم يبد أن أي طريق قد أغلق في وجه الأعداء ولو في نقطة واحدة تدل على شيء من المقاومة....

الفصل الثاني

المسير نحو البحر

ويواصل تشرشل حديثه عن الحرب قائلاً:

لقد كان هتلر الرجل الوحيد الذي يستطيع اختراق حياد بلجيكا وهولندا، وبلجيكا لن تطلب العون من الحلفاء إلا إذا هوجمت. لذلك بقي زمام المبادرة العسكرية في يد هتلر الذي وجه ضربته في اليوم العاشر من شهر أيار. وانتقلت الجيوش الفرنسية والبريطانية من وراء خطوطها إلى بلجيكا لمحاولة إنقاذها، بدلا من البقاء عند خطوط الدفاع المحصنة. وقد كانت هذه المحاولة حسب خطة رسمها الجنرال غاملان والملقبة بالخطة "د".

وكان الفرنسيون قد تركوا نقطة الدفاع المقابلة للاردين، دون دفاع قوي، فتمكنت الجيوش الألمانية من الاندفاع بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ وقسمت خط الجيوش الفرنسية. وبعد ثمان وأربعين ساعة أصبحت الجيوش الألمانية تهدد بقية الجيوش المتمركزة بالشمال قاطعة خط مواصلاتها الجنوبية وعن البحر أيضا. وكان على القيادة العليا الفرنسية، أن تأمر جيوشها بالانسحاب فورا وبأقصى سرعة ممكنة متحملة الخسائر البالغة في المعدات.

إلا أن الجنرال غاملان لم يواجه هذه الحقيقة المخيفة، بينما كان قائد الجيوش الشمالية، بيلوتي، عاجزا عن اتخاذ القرارات الهامة بنفسه.

لذلك عمت الفوضى جميع الجيوش في الجبهة الشمالية المهددة.

وعندما شعرت هذه الجيوش بالخطر المحدق بها، تراجعت إلا أن العدو كان قد طوقها من الأيمن، فقامت بإنشاء خط دفاعي. لكنها لو بدأت هذه الجيوش بالتراجع قبل هذا الوقت الذي تراجعت فيه، لكان باستطاعها أن تصل إلى خطها القديم فتتمكن من النجاة. لكن هذه الجيوش تأخرت وفقدت ثلاثة أيام بين أخذ ورد فاستكمل العدو حركة التطويق! ورأت وزارة الحرب في بريطانيا أن القتال الفوري في الجنوب هو الطريقة الوحيدة لإنقاذ الجيش البريطاني. لكن اللورد غورت، لم يوافق على هذه الفكرة وبأمكانية نجاحها فالخطة المقترحة من وزارة الحرب تقضي بأشغال العدو على عدة جبهات لتتمكن من خرق جبهة واحدة لتنفيذ خطة التراجع. وفي هذا الوقت تغيرت القيادة العليا في فرنسا وصُرف الجنرال غاملان وخلفه في القيادة الجنرال ويغان. وأدي هذا التغيير في القيادة إلى التأخير ثلاثة أيام أخرى. واقترح الجنرال خطة مشابهة لخطة سلفه واضطررنا إلى قبولها مرغمين وحاولنا بكل جهد أن ننفذها مخلصين إلى أن انقطعت طرق المواصلات أمامنا، بعد أن صد الألمان هجماتنا الضعيفة واحتلوا أراس وانهارت الجبهة البلجيكية وأوشك الملك ليوبولد على الاستسلام. وفقدنا كل أمل في الانسحاب إلى الجنوب. ولم يبق أمامنا إلا البحر... وفي الحال، أقام اللورد غورت رأس جسر حول دنكرك محاولا شق طريقه بكل قوته. وكنا في هذه الأيام بحاجة إلى كل ما عُرف عنا من نظام وطاعة ودقة في القيادة...



وهنا سنعرض قصة كثر الجدل حولها. فقد ذكر الجنرال هولدر رئيس

أركان الجيش الألماني، أن هتلر قد تدخل في هذا الوقت شخصيا ولأول مرة لأنه شعر بالخوف على آلياته المدرعة لأنها أصبحت في وضع خطر للغاية، فهي الآن في أرض وعرة محاطة بالاقنية ولا يمكنها التقدم بشكل سريع.

وبنفس الوقت لا يمكنه احتمال أي خسارة في معداته، فهو بحاجة إليها في المرحلة الثانية من حملته. واعتقد أن سلاح الطيران سيتمكن من السيطرة ومنع التراجع والانسحاب عن طريق البحر. لذلك أرسل أوامره بوقف آلياته المدرعة وتراجعها في بعض الأماكن. وهكذا أصبح في مقدور البريطانيين الانسحاب والوصول إلى دنكرك. هذا حسب قول هولدر نفسه. وعلى كل حال فقد تمكنا من التقاط رسالة ألمانية في صباح الرابع والعشرين من أيار، تأمر بوقف الهجوم على دنكرك. ويقول هولدر أيضا أنه رفض التدخل في تحركات الجيوش التي كانت تحت امرة رونشتادت والتي كانت تحمل الأوامر الصريحة بمنع العدو من التقدم والوصول إلى البحر. وقال أنه كلما أسرع في تحقيق النصر كان أسهل فيما بعد التعويض عن الدبابات والمدرعات المفقودة.

ولم يلبث هتلر أن أصدر أمرا بإيفاد ضابط ارتباط شخصي إلى الجبهة. ومضى الجنرال هولدر يقول:

" لم أعرف كيف اقتنع هتلر بضرورة عدم تعريض قواته المدرعة إلى الخطر ومن المرجح أن يكون كايتل قد أوحي له بهذه الأفكار عن طريق القصص التي كان يقصها عليه".

وقد صرح قادة آخرون بقصة مشابهة وأشاروا إلى أن هتلر قد أصدر أوامره هذه لأسباب سياسية منها فسح المجال أمام انكلترا لطلب السلام

بعد الهزيمة التي لحقت بفرنسا. وقد ظهرت بعد انتهاء الحرب بعض الوثائق التي صدرت عن مقر قيادة رونشتادت على شكل يوميات دونت في ذلك الوقت أما هذه الوثائق فتروي القصة بشكل مختلف تماما! فالأوامر صدرت عند منتصف ليل الثالث والعشرين من أيار من مقر القيادة العامة، تحمل توقيع براوخيتش تذكر فيها أن الجيش الرابع سيبقي تحت قيادة رونشتادت ليقوم بالمرحلة الأخيرة من معركة التطويق. وفي صباح اليوم التالي، عندما وصل هتلر لزيارة رونشتادت، أخبره أن الآليات المدرعة، التي توغلت بعيدا عن ضعفت قوتها، وهي بحاجة إلى فترة من التوقف لاستعادة نشاطها كي تتمكن من توجيه الضربة القاضية للعدو الذي يقاتل بضراوة. وكان رونشتادت ينتظر هجمات شديدة من الحلفاء في الشمال والجنوب، وهي الخطة التي اقترحها ويغان. وقد وافق هتلر على وجوب توقف السلاح المدرع لتجهيزه للمعركة الحاسمة المقبلة. ومع ذلك، فقد وصل في صباح اليوم التالي الأمر من براوخيتش، القائد العام، باستمرار تقدم المدرعات. وهنا رفض رونشتادت الأمر الموجه إليه، بعد أن اطمأن إلى موافقة هتلر الشخصية.، ولم ينقل هذا الأمر إلى قائد الجيش الرابع "كلوغه" بل طلب منه أن يستمر في تجميع القوات المدرعة. وقد احتج "كلوغة" على هذا التأخير، ولكن رونشتادت لم يصدر أوامر القيادة العليا إلا في صباح يوم السادس والعشرين وأضاف أنه يجب أن لا يهاجموا دنكرك بالذات... وقد ذكرت هذه اليوميات عن احتجاج قادة الجيش الرابع على هذا التخصيص وكتب رئيس أركان حربية يقول:

" إن الوضع في الموانئ كان على الشكل التالي: فالبواخر الكبيرة كانت تقترب من الأرصفة، وتمد الألواح الخشبية إلى الشاطئ وبسرعة عجيبة كانت أسطح البواخر تكتظ بالرجال. أما أسلحتهم وعتادهم الحربي

فيتركونه وراءهم. لكننا لم نكن نريد أن نرى هؤلاء الرجال أنفسهم يعودون مرة أخرى وقد تسلحوا بسلاح جديد ليقوموا بجولات جديدة ضدنا".

ومن هذه اليوميات يتبين أن المدرعات قد توقفت بناء للأوامر التي صدرت عن رونشتادت لا عن هتلر. ولابد أن تكون هناك وجهة نظر خاصة، إلا أن القادة الألمان اجمعوا على أن هذه الأوامر قد أضاعت فرصة عظيمة عليهم.

* * *

لم تكن القوات الألمانية تضغط بشدة على خط الدفاع البلجيكي، ولكنها ما إن بدأت ضغطها المتزايد حتى انهار الخط وتمكن الألمان من تحطيمه على جانبي كورتاني، التي لا تبعد عن اوستند ودنكرك أكثر من ثلاثين ميلا، وما لبث ملك بلجيكا أن يأس من الوضع الحاضر فقرر الاستسلام.

واتخذ اللورد غورت قراره الحاسم بالتخلي عن خطة الجنرال ويغان القاضية بالزحف نحو الجنوب ونحو السوم. وقرر بدلا عنها بعد اقتناعه التام بأن إشراف الحكومتين البريطانية والفرنسية قد انتهى على ميدان المعركة، وكل سيطرة للقيادة الفرنسية العليا قد زالت. لذلك قرر أن يستبدل فكرة الهجوم نحو الجنوب، بسد الثغرة التي ستحدثها استسلام بلجيكا في الشمال، وأن يزحف باتجاه البحر. وهكذا أصدر أوامره إلى الفرقتين الخامسة والخمسين بوجوب الانضمام إلى اللواء البريطاني الثاني لسد الثغرة في الجبهة البلجيكية، كما نقل إلى الجنرال بلانشار الفرنسي عزمه على تغيير الخطة الأولى ووافق الجنرال وقرر الانسحاب إلى الخط الواقع وراء قناة ليز غربي ليل، وقرر إقامة رأس جسر حول دنكرك.

وفي الصباح الباكر من اليوم السادس والعشرين من شهر أيار، قام

غورت وبلانشار برسم خطة الانسحاب نحو البحر. ولما كان على الجيش الفرنسي أن يقطع مسافة أطول، لذلك مهدت قوات الحملة البريطانية الطريق بينما بقيت القوات الأخرى في خطوط الدفاع في الجبهة حتى ليلة الثامن والعشرين من أيار. وكان اللورد غورت يتصرف حسبما يراه مناسبا وعلى مسؤوليته الخاصة، إلا أننا في الوزارة كنا قد توصلنا إلى نفس النتيجة حسب المعلومات التي حصلنا عليها. لذلك أصدرنا له برقية تأييد للإجراءات التي قام بها طالبين منه التوجه إلى البحر بالاشتراك مع القوات الفرنسية والبلجيكية. ثم بدأ حشد أكبر عدد ممكن من المراكب والسفن.

وفي هذه الأثناء، استمرت عملية إقامة رؤوس الجسور حول دنكرك، كما تقرر أن يحتفظ الفرنسيون بالأماكن الواقعة بين "غريفلاين" و "بيرغ" بينما يحافظ البريطانيون على القناة عبر فيرنز إلى نيوبورت والشاطئ وتلقي اللورد غورت من الوزارة تأكيدا للأمر الذي صدر إليه في إجلاء أكبر عدد ممكن من الرجال. وكنت قد أخبرت المسيو رينو أن هدفنا هو سحب القوات البريطانية، كما طلبت منه أن يصدر أوامر مماثلة، وكانت حركة المواصلات قد أصبحت ضخمة حتى أن قائد الجيش الفرنسي الأول أصدر أمره في السابع والعشرين من أيار إلى جنوده يقول: "أن المعركة تدور الآن دون تراجع حتى خط ليز".

أصبح الخطر يهدد فرقا بريطانيا أربعة، بالإضافة إلى الجيش الفرنسي الأول كله، بالعزلة والانقطاع. وراحت (الكماشه) الألمانية تحاول الضغط بكل قوتها على جيوشنا. وكانت هذه اللحظة من اللحظات الحاسمة التي تلعب فيها وسائل النقل الميكانيكية دورها البارز. فما أن أصدر اللورد غورث أمره بالتراجع حتى كانت الفرق الأربع تتراجع بسرعة مذهلة في

ليلة واحدة.

وتمكنت بقية الفرق البريطانية من الاحتفاظ بالممر المؤدي إلى البحر بكثير من الجهد، وبعد معارك دامية تمكن العدو من إغلاق (الكماشة) بعد أن تم تأخيرها ثلاثة أيام بفضل الفرق البريطانية الثانية، وتم إغلاق ذراعي الكماشة بصورة تشبه تلك العملية الروسية العظيمة حول ستالينغراد سنة 1942. وقد تم انسحاب الجيوش البريطانية والفرنسية، خلال هذه الفترة، وتمكنت من النجاة عدا اللواء الخامس من الجيش الفرنسي الذي فُقد...

* * *

ويواصل تشرشل حديثه قائلاً:

قبل عشرة أيام طلبت من المستر تشمبرلين دراسة إمكانية استمرارنا في الحرب وحدنا، والآن ما لبثت أن عرضت الأمر بصفة رسمية على مستشارينا العسكريين. وقد وضعت الأسئلة بطريقة تترك المجال أمام رؤساء الأركان لإبداء آرائهم بحرية تامة، مهما كانت تلك الآراء. وبالرغم من ثقتي التامة بأنهم سيطلبون الاستمرار في الحرب، إلا أني وجدت من الحكمة أن احتفظ بسجلات خطية عن مثل هذه الآراء. كما أردت أن أؤكد للبرلمان أن آراءنا بالاستمرار في الحرب تدعمها آراء الخبراء العسكريون المحترفون. وهنا أسرد نص السؤال بحرفيته مع رد رؤساء الأركان عليه:

- لقد أطلعنا على التقرير عن "استراتيجية بريطانيا في حال حدوث تطور معين" على ضوء المهمة التي كلفنا بها رئيس الوزراء في رسالته التالية:

" في حال عجزت فرنسا عن الاستمرار في الحرب، وفي حال اتخذت موقف الحياد، وفي حال احتفاظ الألمان بوضعهم الحالي واستسلام

الجيش البلجيكي بعد مساعدة الحملة البريطانية على الوصول إلى البحر، وفي حال التقدم بعروض من شأنها أن تضع بريطانيا تحت رحمة ألمانيا بسبب اقتراحات نزع السلاح ووقف القواعد البحرية عن العمل في جزر أوركني وغيرها، فما هو الأمل في استمرار الحرب ضد ألمانيا، وربما ضد إيطاليا أيضا؟ وهل سيتمكن الأسطول والسلاح الجوي، من حمايتنا ضد غزو ألماني خطير، وهل ستتمكن قواتنا التي سنحشدها في هذه الجزر من مقاومة الغارات الجوية عليها، مع العلم أن هذه القوات تضم وحدات لا يبلغ عدد أفرادها العشرة آلاف! شرط أن نأخذ بعين الاعتبار أن إطالة مدة المقاومة ستشكل خطرا كبيرا على ألمانيا التي ستكون منصرفة إلى السيطرة على الأجزاء التي احتلتها في أوروبا.

- هذا وقد توصلنا إلى نتائج سنذكرها في الفقرات التالية:

- هل يمكن لأسطولنا البحري أن يتعاون مع سلاحنا الجوي في الدفاع ومنع ألمانيا من القيام بهجوم كبير عن طريق البحر".؟!

- إذا افترضنا أن ألمانيا استطاعت أن تتفوق على قواتنا الجوية، فنحن نعتقد أن الأسطول سيتمكن من المقاومة لفترة محدودة فقط".

- إذا لم يتمكن أسطولنا من المقاومة، وإذا ما تمكن العدو من التغلب على سلاحنا الجوي، وإذا حاولت ألمانيا أن تغزونا، فهل تتمكن قواتنا الساحلية من الدفاع ومنع إنزال قوات برية على الشواطئ. وفي هذه الحال ستكون قواتنا البرية غير قادرة على الصمود أمام غزو ألماني كبير".

- فإذا ما تمكنت ألمانيا من إحراز تفوق جوي، فباستطاعتها غزو بلادنا وإخضاعها عن طريق الجو فقط".

- لن تتمكن ألمانيا من التفوق علينا في الجو، إلا إذا تمكنت من القضاء

على سلاحنا الجوي برمته، وإذا ما تمكنت من تحطيم جميع مصانع الطائرات في كوفنتري وبرمنغهام".

- قد تقع الغارات الجوية على مصانع الطائرات في الليل وفي النهار. ونحن نرى أنه بإمكاننا أن نلحق بالعدو خسائر فادحة أثناء قيامه بغارات في النهار. ومهما حاولنا فلن نتمكن من حماية جميع مصانع طائراتنا خاصة أثناء غارات العدو الليلية، فعلينا أن نحول بينه وبين تنفيذ أهدافه قدر إمكاننا".

- أن نجاح العمليات الجوية في القضاء على صناعة الطائرات، لا تعتمد على القنابل والتخريب الذي ينجم عنها، بل يعتمد أيضا على التأثير المعنوي على العمال الذين سيتوقف عليهم وحدهم الرغبة في الاستمرار في العمل بالرغم من الاضطرابات والمخاوف".

- إذا استمر العدو في غاراته الليلية على مصانع طائراتنا، فقد ينجح في إلحاق الأضرار المادية والمعنوية بنا، وسيتوقف العمل في مصانعنا على الفور".

- علينا أن نتأكد من أن الألمان متفوقون علينا في عدد الطائرات بنسبة أربعة إلى واحد. بالإضافة إلى أن مصانع طائراتهم أكثر توزيعا وقوة من مصانعنا.

- ومن ناحية ثانية، فبامكاننا نحن أيضا توجيه ضربات قوية على مصانع العدو، ما دامت لدينا قوة كبيرة من قاذفات القنابل، التي ستلحق بغاراتها على مصانعهم الكثير من الأضرار المادية والمعنوية وتوقف قسما كبيرا منها عن العمل".

- وبالإجمال، تبدو ألمانيا لأول وهلة إنها تملك زمام الأمور بيدها.

ولكن النتيجة تتوقف على مقدرة جنودنا وسكاننا المدنيين على الصمود، بفضل ما نتمتع به من روح معنوية عالية تمكننا من موازاة ألمانيا التي تبدو أنها متفوقة علينا".

لقد كتب هذا التقرير في أحلك الأوقات، وقبل عملية إنقاذ دنكرك وقد وقع على التقرير رؤساء أركان الحرب الثلاثة، وهم: "نيووال- باوند- وايرونسايد، ونوابهم الثلاثة: ديل- فيليبس وبيرس. وعندما قرأت هذا التقرير بعد سنوات، أريد أن أقر على ما كان يحتويه من خطورة وغموض إلا أننا كنا قد حزمنا أمرنا وقررنا المضي يدا واحدة وقلبا واحدا.

وقد أصدرنا التعليمات العامة التالية:

سري للغاية

"إن من دواعي امتنان رئيس الوزراء، في هذه الأيام السوداء، أن يرى زملائه الوزراء وهم محتفظين بروحهم المعنوية العالية، خلال الفترات الصعبة التي يعيشونها. وعلينا أن لا نقلل من أهمية هذه الأحداث وخطورتها وحراجتها، وعلينا أن نبرهن عن عزمنا وتصميمنا الأكيدين على المضي في هذه الحرب، حتى نحطم إرادة العدو الراغب في السيطرة على أوروبا وإخضاعها لنفوذه وسيطرته.

"وعلينا أن لا نتسامح بالفكرة القائلة أن فرنسا ستقوم بعقد صلح منفرد مع ألمانيا. ولكن مهما حدث على هذه القارة الاوروبية فعلينا ان لا نشك في واجباتنا. وسنستخدم كل ما نملكه من قوة للدفاع عن بلادنا وإمبراطوريتنا وقضيتنا.

❊ ❊ ❊

وفي صباح اليوم الثامن والعشرين استسلمت بلجيكا، وقد وصلت الأنباء إلى اللورد غورث قبيل الاستسلام بساعة واحدة، وكان هذا الانهيار متوقعا قبل ثلاثة ايام، وقد استطاعت القوات البريطانية ان تسد هذه الثغرة التي كان متوقعا حدوثها. واستطاعت قوات الحملة البريطانية الجلاء، كما تمكن نصف الجيش الفرنسي الأول من الوصول إلى دنكرك سالما حيث تم نقل رجاله بسلام. لكن خمس فرق لم يكتب لها النجاة بعد ان اطبقت عليها الكماشة الالمانية، الا انهم صدموا امام الضغط الهائل واستبسلوا في القتال حتى مساء الحادي والثلاثين من أيار، واضطروا إلى الاستسلام بعد ان نفد ما لديهم من غذاء وعتاد. وهكذا استسلم نحو من خمسين الف جندي فرنسي للاعداء.

وقد تمكن هؤلاء من الصمود بقيادة الجنرال مولنييه الباسل واتاحوا بذلك الفرصة أمام رفاقهم للنجاة عن طريق دنكرك.

وقد مررت بمحنة قاسية خلال الأيام المخيفة، ولم أكن أجروء على التدخل، إذ ان التدخل سيؤدي إلى زيادة الخطر على الرجال بدلا من تخفيفه عنهم. ولا شك ان التزامنا المخلص لخطة الجنرال ويغان قد زادت من خطورة الموقف. إلا ان قرار اللورد غورث، الذي وافقنا عليه وايدناه، والقاضي بالزحف نحو البحر قد نفذ بدقة متناهية بفضل عبقرية القائد ومساعدوه، وسيبقي هذه الحادث كأسطورة رائعة من أساطير البطولة في تاريخ بريطانيا العسكري.

الفصل الثالث

انقـــاذ دنكـــرك

يتحدث تشرشل في هذا الفصل عن عملية لانقاذ دنكرك فيقول:

منذ العشرين من أيار، بدأ حشد البواخر والقطع الصغيرة تحت قيادة الاميرال رامسي قائد موقع ووفر. وفي مساء السادس والعشرين من الشهر نفسه اعلنت الاميرالية ابتداء عملية "دينامو" ووصلت أول قوة جلت عن دنكرك إلى الوطن. وبعد ان فقدنا ميناء بولون وكاليه، لم يبق عندنا سوى السواحل الرملية القريبة من حدود بلجيكا وما تبقي من ميناء دنكرك. وقد خيل لنا ان اكبر عدد يمكننا انقاذه في ذلك الوقت لن يتعدي الـ 45 الف رجل خلال يومين. وقد اتخذت اجراءات الطوارئ للحصول على اكبر عدد ممكن من السفن الصغيرة للقيام "بمهمات خاصة" وهذا يعني نقل نصف قوات الحملة البريطانية. وكان عمل السفن الصغيرة يقتصر على الشواطئ الرملية، بينما تعمل بقية السفن الكبيرة في ميناء دنكرك نفسه. وقام ضباط الاميرالية بالبحث عن الزوارق الصغيرة في جميع الأحواض القائمة بين تيدلذفتون وبراتيلينغسي، فتكمنوا من جمع اربعين زورقا بخاريا ولنشا، كما جمعت كافة القوارب واليخوت والزوارق وزوارق صيد السمك والمواعين وكل ما كان على شواطئ البحر من وسائل النقل. وفي ليل السابع والعشرين من أيار اندفع سيل هائل من هذه القطع الصغيرة نحو شواطئ دنكرك لانقاذ جيشنا الحبيب.

وبعد ان تأكد للاميرالية ان الامر لم يعد سريا اطلقت العنان لكل حركة

من حركات الانقاذ وسمحت لكل من يملك قاربا او زورقا مهما كان نوعه ان يبحر إلى دنكرك. وعمل الجميع في هذا الجو الرائع من الحماس الوطني على انقاذ ما لا يقل عن مئة ألف جندي من جنود الوطن من الشواطئ إلى السفن الراسية في عرض البحر. تحت وابل من الغارات الجوية العنيفة، والقصف الذي لم ينقطع من طائرات العدو.

في هذه الاثناء، كانت القوات الإضافية تعزز المواقع الأمامية حول دنكرك وبدأت النجدات تصل إلى خطوط الدفاع الأمامية. وكان من المقرر ان تشترك ثلاثة ألوية في عملية الدفاع، لكن الفرنسيين حملوا عنا القسم الأكبر من مهمة الدفاع عن الجبهة. فقررنا الاكتفاء بلواءين فقط. وكان الألمان يطاردون جنودنا اثناء انسحابهم فينشب القتال المرير بين جنودنا ومطارديهم خاصة حول الجناحين في نيوبورت وبيرغر. ومع استمرار الجلاء كان العدد ينخفض وتتقلص الخطوط الدفاعية. ووقفت الالوف من الجنود موقف الابطال أمام القصف الجوي المستمر مدة اربعة او خمسة ايام مريرة. وثبت ان مزاعم هتلر حول منع عملية الانسحاب بواسطة سلاحه الجوي لم تكن صحيحة بالاضافة إلى انها كانت غير معقولة وفاشلة. فقد تبين ان القصف الجوي المستمر على حشودنا الكبيرة على الشواطئ لم يلحق بهم اضرارا كبيرة. وفي البداية عندما بدأت اولي الغارات الصاعقة، ذهل جنودنا من ان تلك الغارة لم تقتل ايا منهم تقريبا، فقد كانت الانفجارات تقع حولهم في كل مكان، الا انها لم تصبهم بأذى. فلو كانت تلك الشواطئ صخرية لتغير الوضع وأضحت النتائج مهلكة، إلا ان الشواطئ الرملية بطبيعتها جعلت من نفسها مكانا امينا يقيهم شر الغارات الوحشية.

وقد اذهل سلاح طيراننا العدو لشدة بأسه ونشاطه. فقد كانت المعارك الجوية التي دارت في سماء دنكرك تجربة للكفاءات الجوية البريطانية والالمانية. واحتفظت قيادتنا الجوية بطائرات مقاتلة ملأت سماء المعركة بصورة مستديمة، باذلة جهدا عظيما في مجابهة العدو الذي يفوقها في العدد.

وكانت طائراتنا تتغلب على الطائرات العدوة بسرعة مذهلة وتنزل بها خسائر فادحة وتطردها خارج سماء المعركة. وقد استمرت هذه المعارك الهائلة يوما بعد يوم إلى ان حقق سلاحنا الجوي النصر الكبير. وما ان تشاهد الطائرات العدوة حتى تهاجمها اسرابنا وتلتحم معها في معارك ضارية وتسقط منها العشرات. وهكذا استخدمنا في هذه المعركة العنيفة كل ما نملكه من طائرات احتياطية في الوطن. وكان الطيار البريطاني يقوم بأكثر من أربع غارات يوميا، ولذلك حصلنا على نتائج واضحة ومرضية. فقد كان العدو المتفوق علينا ينهزم أمامنا أو يقتل ويتخاذل ويضعف. لقد كانت المعركة فاصلة. ولم يكن جنودنا على السواحل يشاهدون هذا الصراع الهائل في الجو، فالمعارك كانت مشتعلة بعيدا عن انظارهم. وكانوا يجهلون ما يفعله نسورنا في الجو، وكل ما يشعرون به هو هذه القنابل المنهمرة على الشواطئ التي يرسلها العدو الذي يتمكن من الافلات والوصول إلى الشواطئ. ولسوء الحظ، سيطر شعور من الغضب والنقمة على سلاحنا الجوي البطل لأن الجنود لم يشاهدوه في سماء المعركة، ولم يعلموا شيئا عن الخسائر الهائلة التي كان يلحقها بالعدو. وقد وصل بعض الجنود إلى دوفر وموانئ التيمز وهم يشتمون زملائهم الطيارين، جهلا منهم لتلك الحقيقة المشرفة والبطولة النادرة لذلك قررت ان أذيع تلك الحقائق في البرلمان.

اما في البحر فقد ساد النظام الكامل علي ظهر السفن والبواخر، وكان

البحر هائجا مما ساعد على استمرار الهدوء والنظام. وراحت الزوارق تعمل بهمة لتنقل الرجال من الشواطئ إلى البواخر غير عابئة بالغارات الرهيبة التي كانت تمطرهم بوابل من قنابلها المميتة. وكان عدد هذه الزوارق الكبير هو وحده الذي تحدي الغارات الجوية. وثبت ان "أسطول البعوض" الجبار لا يغرق.



وفي الحادي والثلاثين من شهر أيار بلغ القتال في دنكرك ذروته، وقد نقل خلال يومين فقط ما يزيد عن 132الف رجل، انتقل معظمهم من الشاطئ في زوارق صغيرة تحت وابل من القنابل والمدافع. وقد بذلت القاذفات العادية أكبر مجهود لها في اليوم الاول من حزيران. وكانت تركز غاراتها أثناء عودة مقاتلاتنا للتزود بالوقود. وقد خسرنا عددا ضخما من بواخرنا نتيجة لتلك الغارات، وبلغ مجموعها مجموع ما غرق في الأسبوع الماضي بكامله. وبلغت خسائرنا في ذلك اليوم احدى وثلاثين سفينة بالاضافة إلى احدى عشر سفينة اخرى اصيبت اصابات طفيفة. وزاد العدو من ضغطه وهو يأمل في اختراق خطوط دفاعنا الا انه لم يتمكن بفضل مقاومة قواتنا الحليفة الخلفية الرائعة.

ومضت المرحلة النهائية لعملية الجلاء بكثير من الدقة والمهارة، وأصبح بامكاننا رسم الخطط سلفا، بدلا من اضطرارنا إلى الاعتماد على الظروف والاحداث التي كانت تتغير في كل لحظة. وعندما حل فجر اليوم الثاني من حريران لم يبق في ضواحي دنكرك سوى اربعة الاف بريطاني ومعهم سبعة مدافع مضادة للطائرات و12 مدفعا مضادات للدبابات، ظلوا بالاشتراك مع القوات الفرنسية التي كانت لا تزال تحافظ على خط الدفاع

الرئيسي وقرر الاميرال رامسي النزول دفعة واحدة إلى الميناء في تلك الليلة، إذ لم يعد ممكنا الانسحاب الا أثناء الليل. وانحرف من انكلترا في هذه الليلة أربع وأربعون باخرة بالاضافة إلى الزوارق الصغيرة المحتشدة. كما اشترك في هذه العملية اربعون سفينة اخري فرنسية بلجيكية. وتم نقل قوة المؤخرة البريطانية كلها قبل حلول منتصف الليل.

لكن هذه لم تكن النهاية في دنكرك. فقد كنا على أتم الاستعداد لنقل المزيد من القوات الفرنسية الموجودة في الميناء. لكن عندما اضطرت بواخرنا إلى الانسحاب في تلك الليلة، كان على الشواطئ عدد كبير من الجنود الفرنسيين لا يزالون مشتبكين مع العدو في قتال عنيف، وكان علينا ان نحاول مرة اخرى بالرغم من الاعياء المسيطر على بحارتنا من جراء الجهد الهائل الذي بذلوه دون توقف خلال الايام الماضية دون ان يذوقوا طعما للراحة والنوم. وفي اليوم الرابع من حزيران انزلنا في انكلترا 26175 فرنسيا كان بينهم واحد وعشرين الفا في سفن بريطانية. اما الباقون والبالغ عددهم بضعة الوف، فقد واصلوا القتال عندما وصل العدو إلى ضواحي البلدة بعد ان بلغ بالجنود الاعياء واحتملوا أقسي ما يمكن للطاقة البشرية ان تحتمله بحيث تمكنوا من تغطية انسحاب زملائهم، فسقطوا اسرى في أيدي الاعداء.

واعلنت الاميرالية أخيرا في تمام الساعة الثانية والدقيقة الثالثة والعشرين من بعد ظهر يوم الرابع من شهر حزيران انتهاء عملية "دينامو" وقد تم نقل (338000) جندي بريطاني وحليف إلى الجزر البريطانية.

الفصل الرابع

التسابق نحو المغانم

يتحدث تشرشل في هذا الفصل عن علاقته مع موسوليني فيقول:

كانت علاقاتي الشخصية مع موسوليني في المرتين اللتين اجتمعت فيهما معه عام 1927، وثيقة، ولم اكن لاحرض حكومتي على مقاطعته حول موضوع الحبشة، او لاثير نقمة عصبة الامم عليه، الا اذا كنا على استعداد لخوض معركة ضده حتى النهاية.

وفي هذه الاثناء، وبعد الكارثة التي المت بنا في فرنسا، وجدت انه يترتب عليَّ بصفتي رئيسا للوزارة ان ابذل ما في وسعي لابقاء ايطاليا خارج الحرب. وبالرغم من ثقتي بعدم جدوى هذه المحاولة الا انني لم أتردد في استخدام كل ما لدي من نفوذ وطاقات. فبعد ستة أيام من تسلمي للحكم في بريطانيا بعثت بنداء الى موسوليني، وقد سمحنا بنشر النداء والرد عليه بعد عامين في ظروف مغايرة عن تلك الظروف. وكان تاريخ ندائي هذا هو السادس عشر من أيار عام 1940 وهذا نصه:

من رئيس الوزراء الى السنيور موسوليني

"الان بعد ان أصبحت رئيسا للوزارة ووزيرا للدفاع، فقد رجعت بذاكرتي الى اجتماعاتنا الماضية في روما، فاني أشعر بالرغبة في نقل عبارات حسن النية بوصفك رئيسا للشعب الايطالي، عبر ما يبدو انها ثغرة تتسع بسرعة. هل فات الوقت لحصر نهر الدماء من الاندفاع بين الشعبين البريطاني

والايطالي؟ ان في امكاننا ان نلحق ببعضنا اصابات قوية مؤلمة، وان يضرب بعضنا البعض دون رأفة، وان نحيل البحر الابيض المتوسط الى ظلام بنزاعنا وخصامنا. فاذا كانت هذه رغبتك، فلتكن كذلك، ولكني اعلن باني لم أكن يوما من الايام عدوا لعظمة ايطاليا او عدوا للمشرع الايطالي الذي منحنا القوانين والشرائع ان من العبث معرفة وجهة هذه المعارك الدائرة الان في اوروبا، انني متأكد من شيء واحد هو انه مهما حدث في القارة الاوروبية. فان بريطانيا ستمضي بثبات الى نهاية الطريق. حتى لو اضطرت إلى البقاء لوحدها كما جرى في السابق. كما اني متيقن من ان المساعدات الاميركية لنا ستزداد، بل اننا سنتلقى العون من الاميركيين أنفسهم.

"واني أرجو ان تصدق، ان الدافع الذي دفعني الى توجيه هذا النداء إليك، لم يكن الخوف او الضعف، فهذا النداء سيسجل على صفحات التاريخ "فعبر الأجيال المقبلة وفوق الهتافات، سيبقى الهتاف الوحيد قائما بأن لا يشترك الوارثان للحضارتين اللاتينية والمسيحية في صراع دموي ضد بعضهما البعض. واني اناشدك ان تصغى إلى هذا النداء بكل اجلال واحترام قبل ان تصدر إشارتك المخيفة وعلى كل حال ان هذه الإشارة المخيفة لن تصدر عنا أبدا..."

وكان جواب موسوليني على هذا النداء قاسيا جدا، ولكنه لم يخلو من الصراحة، وهذا نص الجواب:

من السنيور موسوليني إلى رئيس الوزراء

"أجيب على الرسالة التي بعثت بها إلى، انك بلا شك مطلع على الأسباب الخطيرة التي حدت ببلدينا الى الوقوف في معسكرين متعاكسين ولا أرى سببا للرجوع الى الماضي، ولكني اذكرك بالدور الذي قامت به

حكومتك عام 1935 في فرض العقوبات على إيطاليا التي أرادت ان تحتفظ لنفسها بقطعة صغيرة من ارض أفريقيا دون ان تلحق الاضرار بممتلكاتكم او مصالحكم او ممتلكات او مصالح غيركم. كما اريد ان الفت نظرك الى الحالة الراهنة من العبودية الحقيقية التي تجد ايطاليا نفسها فيها وفي بحرها الخاص بها. واذا كانت حكومتك تريد المحافظة على كلمتها وتوقيعها، لذلك أعلنت الحرب على ألمانيا، فيمكنك اذن فهم حقيقة هذا الشعور بالنسبة لايطاليا أيضا التي هي الاخرى تريد المحافظة على كلمتها ومعاهدها مع ألمانيا، مهما كانت الظروف والاعتبارات."

وبعد وصول هذا الرد من موسوليني لم نعد نشك في انه لا يريد الحرب، فهو سينتظر الفرصة المناسبة، وقد وجد في هزيمة فرنسا الفرصة الذهبية لاعلان الحرب على بريطانيا وفرنسا معا. وقد ذكر تشيانو ان موسوليني سيعلن الحرب خلال شهر واحد وفي أي وقت يراه مناسبا بعد الخامس من حزيران، إلا أن الموعد تأجل الى العاشر منه بناء لطلب خاص من هتلر نفسه.

وقد حاولت الولايات المتحدة التدخل لمنع إعلان الحرب من جهة ايطاليا، وبذلت جهودا هائلة في هذا السبيل، الا ان الدكتاتور الايطالي رفض كل عرض تقدمت به الولايات المتحدة. وفي الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والاربعين من بعد ظهر اليوم العاشر من حزيران، ابلغ وزير الخارجية الايطالية سفير بريطانيا أن ايطاليا ستعتبر نفسها في حالة حرب مع المملكة المتحدة منذ منتصف تلك الليلة. كما وجهت مثل هذا الاشعار إلى حكومة فرنسا أيضا، وعندما نقل تشيانو هذا الخبر إلى السفير الفرنسي قال هذا وهو يتجه إلى الباب: "وانتم أيضا ستجدون أن

الألمان هم سادة قساة". وأعلن السنيور موسوليني من شرفة قصره إلى الحشود المتجمهرة ان ايطاليا قد أعلنت الحرب على بريطانيا وفرنسا.

وبدأ الايطاليون معركتهم بأن راحوا يهاجمون القوات الفرنسية في جبال الالب، وأعلنت بريطانيا الحرب على ايطاليا في الحال. وصدرت الأوامر بتوقيف خمس بواخر ايطالية كانت في جبل طارق كما أخطر الأسطول بوجوب توقيف كل باخرة ايطالية يجدها. وقامت أسراب طائراتنا بالإغارة على تورين وميلانو.

اما فرنسا فلم تتمكن من حشد أكثر من ثلاث فرق بالإضافة إلى عدد مماثل من الحاميات الجبلية، وذلك لصد أي محاولة للغزو من قبل الايطاليين عبر الالب وساحل ريفييرا. وكانت الجيوش الايطالية تقدر باثنتين وثلاثين فرقة تحت قيادة الامير اومبرتو. وفي نفس الوقت شرع الألمان بتطويق الفرنسيين عبر نهر الرون. وصمدت الفرق الفرنسية المقاتلة أمام الايطاليين، حتى بعد ان سقطت باريس وليون في أيدي الغزاة الألمان. وعندما اجتمع موسوليني وهتلر بعد ذلك لم يجد الدوتشي ما يفخر به أمام صديقه. اذ لم يتمكن الايطاليون من تحقيق أي نصر في فرنسا رغم محاولاتهم المتكررة. وكان مقررا ان يلقي الرئيس الاميركي خطابا يوم العاشر من حزيران.

واستمعت الى خطابه العظيم حوالي منتصف الليل وأنا لا أزال في غرفة العمليات الحربية في الاميرالية. وعندما توجه الرئيس روزفلت بهذه العبارة الجارحة لايطاليا: "في هذا اليوم العاشر من حزيران عام 1940، ارتفعت اليد الممسكة بالخنجر وطعنت ظهر جارتها شعرنا جميعا بالرضي والارتياح.

فقد كان خطابه رائعا يحمل في طياته بريق الأمل نحونا. وبعث على الفور برسالة اشكر له فيها عواطفه.

* * *

وبعد سقوط فرنسا بدأ التكالب على المغانم. ولم يكن موسوليني الوحش الوحيد الجائع، فقد لحقه الدب الذي جاء يركض مع ابن آوي.

لقد كان سير العلاقات الانكليزية- الروسية يسير إلى حد قطع العلاقات مع بريطانيا وفرنسا. خاصة بعد ان غزا الروس فنلندا. وكانت ألمانيا وروسيا تعملان معا إلى الحد الذي تسمح به خلافاتهما العميقة القديمة، وراح ستالين وهتلر يعملان بنفس الأسلوب من الدكتاتورية المتشابهة إلى حد كبير. وكان مولوتوف يثني بشده على إجراءات هتلر وسياسة ألمانيا العسكرية. وعندما قام الألمان بهجومهم على النروج صرح مولوتوف ان الحكومة السوفياتية تقدر كل التقدير جميع الإجراءات التي أرغمت ألمانيا على هجومها هذا. وقال ان الانكليز قد تجاهلوا تماما حقوق الدول المحايدة. ثم أضاف متمنيا النجاح والتوفيق لألمانيا في إجراءاتها الدفاعية. وفي يوم العاشر من حزيران ابلغ هتلر زميله ستالين عن ابتداء الهجوم الألماني الكاسح على فرنسا وعلى البلاد المنخفضة المحايدة. وكتب شولنبرغ يقول: "وقد استحسن مولوتوف هذا الإجراء عندما قمت بإبلاغه النبأ، وقال انه من الواجب على ألمانيا حماية نفسها ضد أي هجوم انكليزي- فرنسي مشترك تقوم به هاتان الدولتان. وأضاف أنه لا شك مطلقا في انتصارنا."

وفي الرابع عشر من حزيران. أي يوم سقطت باريس، أرسلت موسكو إنذارها الأخير إلى ليتوانيا تتهمها والدول البلطيكية الاخرى بالتامر على

روسيا، وتطالبها بإجراء تغييرات شاملة في الحكومة. وببعض التنازلات العسكرية. وفي اليوم التالي قام الجيش الأحمر بغزو تلك البلاد التي لم تتمكن من المقاومة، ثم تعرضت لاتفيا واستونيا لنفس الطريقة وفرضت عليها حكومات جديدة موالية لروسيا، كما فرضت عليها حاميات سوفياتية في أراضيها. ولم تلبث جميع تلك الدول ان انضمت الى الاتحاد السوفياتي في الثالث من شهر آب.

ووجه الروس انذارا الى رومانيا طلبوا فيه منها التخلي عن بساربيا والجزء الشمالي من بوكوفينا لمصلحة الاتحاد السوفياتي، وطلبوا ان يصلهم الرد في اليوم التالي. وقد انزعجت ألمانيا أشد الانزعاج لهذا التصرف من قبل روسيا، لما يترتب على هذا العمل من اضرار بمصالح ألمانيا في رومانيا.

إلا أنها اضطرت للموافقة طبقا لارتباطها بمعاهدة ريبنتروب- مولوتوف عام 1939 الذي اعترفت فيه ألمانيا بحق روسيا بتطبيق سياستها في جنوب شرق أوروبا. وبناء على ذلك أوعزت ألمانيا إلى رومانيا بالموافقة فورا على المطالب الروسية. وهكذا انسحبت القوات الرومانية من المقاطعتين المذكورتين وانتقلت إليها القوات الروسية، وبذلك أصبحت القوات السوفياتية متمركزة على طول سواحل البلطيق وعلى مصب نهر الدانوب.

الفصل الخامس

مأســــاة فرنســــا

يتحدث تشرشل في هذا الفصل عن مأساة فرنسا فيقول: عندما أذعنا عدد الذين تم إنقاذهم من دنكرك، ساد البلاد شعور من الراحة والاطمئنان. لقد ساد شعور من الارتياح بعد فترة طويلة من القلق الذي سرعان ما تحول إلى نوع من الإحساس بالنصر. فإن إنقاذ ربع مليون جندي شاب من خيرة جنودنا يعتبر نصراً عظيماً بعد سنوات طويلة من الهزيمة. وقد عاد هؤلاء إلى الوطن وهم لا يحملون شيئاً سوى بنادقهم والحراب وبضع مئات من المدافع الرشاشة. وقد كان الجميع يتمتعون بمعنويات عالية، وكانوا على ثقة تامة من أنهم سيتغلبون على عدوهم إذا ما أتيحت لهم فرصة ثانية للاشتباك معه.

لكن معركة دنكرك كانت قد خسرتنا كل ما نملكه من معدات، لا سيما تلك التي أنتجتها معاملنا مؤخراً وأرسلت بها إلى ميدان المعركة في فرنسا، وستمضي عدة أشهر قبل أن نتمكن من إنتاج وتعويض تلك الخسارة الفادحة.

لكن العواطف الجياشة في الولايات المتحدة، وخاصة تلك التي كانت تتأجج في صدور القادة البارزين هناك، حتمت عليهم التفكير بالموضوع جدياً، وسرعان ما أصدر الرئيس الأميركي أوامره إلى وزارتي الحربية والبحرية، كما طلب الجنرال مارشال من نائبه إعداد قوائم بموجودات الجيش الأميركي من سلاح احتياطي. وفي خلال ثمان وأربعين ساعة

كانت القوائم الكاملة جاهزة، وفي الحال وافق الجنرال مارشال عليها، وطلب إرسالها إلى بريطانيا وفرنسا. وتضمنت القائمة الأولى نصف مليون بندقية من مجموع مليوني بندقية يعود تاريخ صنعها إلى عامي 1917 و 1918 وبقيت مختزنة حوالي عشرين عاماً. وقد أرسل مع كل بندقية 250 طلقة. كما أرسل معها أيضاً تسعمائة مدفع من عيار (75) ومليون قذيفة وثمانون ألف رشاش وأنواعاً أخرى من الأسلحة. وشرعت جميع مخازن الجيش الأميركي بحزم الأسلحة وتوضيبها وشحنها. وقد وصل إلى الميناء في الحادي عشر من حزيران اثنتا عشر باخرة بريطانية لتبدأ بنقل شحنات الأسلحة إلى بريطانيا وفرنسا.

لقد كان هذا العمل الذي قامت به أميركا عملاً رائعاً من أعمال الإيمان والقيادة، فقد حرمت نفسها من تلك الأعداد الهائلة من الأسلحة لترسلها إلى بلاد يعتبرها الكثيرون من أبناء البلاد أنها قد منيت بالهزيمة.



كانت لا تزال لدينا في فرنسا فرقة جبلية خاصة بقيت وراء السوم وكانت لا تزال في حالة ممتازة. كما كانت هناك فرقتنا المدرعة الأولى والوحيدة وكتيبة الدبابات اللتان أرسلتا إلى كاليه للمشاركة في عملية الإنقاذ. ولم يحل شهر حزيران حتى كانت الفرقة هذه قد خسرت أكثر من ثلثي رجالها، فصدرت الأوامر إليها بوجوب انسحابها إلى ما وراء نهر السين لإعادة تنظيمها. وفي نفس الوقت جمعنا تسعة أنواع من فرق المشاة التي لم تكن تملك سوى البنادق، أي أنها كانت شبه عزلاء.

وفي هذا الوقت بدأت المرحلة الأخيرة من معركة فرنسا، وبدأ هجوم ألماني جديد اتسم بالعنف والقوة خاصة المدرعات التي وفروها لهذه

المعركة الفاصلة والتي تدفقت بمجموعها على الجبهة الفرنسية التي كانت تترنح من شدة الضعف. وحاول الجيش الفرنسي المقاومة للحفاظ على حدود نهر السوم، لكن فرقتين ألمانيتين تمكنتا من اختراق صفوفه واندفعت نحو روان فعزلت جناح الجيش الفرنسي الأيسر والذي يضم فرقتنا الجبلية، عن بقية أجزاء الجيش. وصدرت الأوامر إلى الجنرال فورشون بوجوب الانسحاب باتجاه روان. لكن هذه الأوامر لم تنفذ بسبب بدء انحلال القيادة الفرنسية، فقدمنا عدة احتجاجات وبيانات إلى القيادة الفرنسية بهذا الشأن لكن دون جدوى .....

وتمكنت فرقتنا من التراجع بعد قتال مرير ضار باتجاه سان فاليري وهي تأمل بالجلاء عن طريق البحر. لكن الضباب الكثيف حال دون جلاءها، ووصل الألمان إلى الشواطئ الصخرية وسدت سبل النجاة أمام فرقنا الباسلة بعد أن أصبح الشاطئ تحت سيطرة رشاشاتهم. واستسلم اللواء الفرنسي وارتفعت الرايات البيضاء فوق البلدة، فاضطرت فرقتنا الجبلية الباسلة إلى الاستسلام ووقع ثمانية آلاف بريطاني وأربعة آلاف فرنسي في الأسر وكان قائد الفرقة الألمانية المدرعة التي أسرتهم، هو الجنرال رومل بالذات.



تلقيت في الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر الحادي عشر من حزيران رسالة من المسيو رينو يطلب فيها مقابلتي في "بريار" على مقربة من أوليان بعد أن انتقلت العاصمة من باريس. فاستقليت طائرتي بعد الظهر وسافرت يصحبني المستر إيدن وزير الحربية في ذاك الوقت والجنرال ديل رئيس الأركان والجنرال إيسماي. وكانت رحلتي هذه هي الرحلة الرابعة إلى فرنسا.

وبدأنا الاجتماع في تمام الساعة السابعة، فطلبت من الحكومة الفرنسية الاستمرار في الدفاع عن باريس وقلت لهم مؤكداً ضرورة بدء حرب الشوارع والقتال من بيت إلى بيت لاستنزاف قوة الجيش الغازي. وقد ذكرت المارشال بينان بتلك الليالي التي قضيناها سوية في قطاره في مدينة "بوفيه" بعد الكارثة التي حلت بالجيش البريطاني في عام 1918، وذكرته كيف تمكن من إنقاذ الوضع في عملية مشابهة. وقد ذكرت المارشال بأقوال كليمنصو حين صرح بقوله: "سأقاتل أمام باريس. وفي داخلها، وورائها". وقد أجابني المارشال بيتان بكل اعتزاز وهدوء أنه كان تحت تصرفه في تلك الأيام قوات تبلغ بعددها ستين فرقة، أما الآن فليس لديه أي منها. كما ذكرني أن الفرق البريطانية كانت تبلغ بعددها الستين فرقة في تلك الأيام أيضاً، كما أضاف أن تهديم مدينة باريس لن يغير شيئاً من النتيجة المرتقبة .....

وعرض علينا الجنرال ويغان الوضع العسكري بالنسبة إلى المعركة "المائعة" الدائرة على مقربة منا، وأثنى ثناءً كبيراً على الجيش الفرنسي وبسالته، وطالبنا بإرسال نجدات عسكرية عاجلة وفي طليعة مطالبه إرسال جميع ما لدينا من أسراب المقاتلات، واستطرد قائلاً: "أن هذه اللحظة حاسمة، لذلك لا يجوز الإبقاء على أي سرب من الطائرات المقاتلة في إنكلترا" وقد أجبته على الفور بقولي: "إن هذه اللحظة ليست باللحظة الحاسمة وستأتي تلك اللحظة حين يقوم هتلر بهجومه الجوي على بريطانيا العظمى، وإذا تمكنا من الاحتفاظ بسيطرتنا على الجو ومن إبقاءنا على البحار مفتوحة، وهذا ما سنقدر عليه حتماً، فعندئذ سنعود لاستعادة كل ما فقدتموه". لقد كان لدينا خمسة وعشرون سرباً من الطائرات، وقد قررنا الاحتفاظ بها ولن نفرط بسرب واحد منها مهما كلف الأمر، فنحن

قد قررنا الاستمرار في الحرب إلى أجل غير محدود، وأما التخلي عن هذه الأسراب فمعناه القضاء على أملنا الوحيد في الحياة.

وبعد قليل وصل الجنرال جورج الذي أطلع على خلاصة حديثنا السابق، وبعد أن عرض ملخصاً للوضع القائم في الجبهة، أكد ضرورة ما سبق وطلبته أي البدء في حرب الشوارع وحرب العصابات، فالجيش الألماني ليس بالقوة التي يبدو عليها حين مجابهته بجيوش مماثلة. فلو حاول كل لواء من الجيش الفرنسي الاصطدام مع لواء مماثل من الجيش الألماني، واستعمل في اصطدامه كل ما يملكه الجيش الفرنسي من حيوية ونشاط لتمكن من التغلب على عدوه أو عرقلة تقدمه السريع على الأقل. وكان ردهم المتخاذل أن الأوضاع أصبحت مخيفة على الطرق التي امتلأت بأفواج اللاجئين الذين تطاردهم نيران رشاشات الطائرات العدوة، وألحقوا هذا ببيانات عن حالة السكان وعن انهيار الجهاز الحكومي والسيطرة العسكرية. وقال الجنرال ويغان بأنهم قد يضطروا إلى طلب الهدنة. وقد أجبته بقولي: "إذا وجدت فرنسا، في هذه المحنة، أنه من الخير لها استسلام جيشها فعليها أن تبادر إلى إعلان ذلك ولا تتردد بسببنا، فنحن قد صممنا على المضي في حربنا وعلى القتال إلى الأبد، إلى الأبد والأبد". وعندما أعدت لهم قولي أن على الجيش الفرنسي أن يستمر في القتال أينما كان وحيثما استطاع لإنهاك قوة مائة فرقة ألمانية، أجابني الجنرال ويغان على الفور: "حتى لو قاتلنا، فسيبقى لديهم مائة فرقة أخرى تقوم بمهاجمتكم واحتلال بلادكم، وماذا تستطيعون أن تعملوه بعد ذلك؟" وأجبته: "إن مستشاري العسكريين يرون أن طريقة صد أي هجوم ألماني على بريطانيا هي في محاولة إغراق أكبر عدد ممكن منهم في البحر، أما الباقي فيمكننا تحطيمهم على الشاطئ".

الفصل السادس

مشـــاكل الدفـــاع

يتحدث تشرشل في هذا الفصل عن المشاكل التي واجهت القوات المدافعة عن نفسها ضد الألمان فيقول:

في هذا الوقت من صيف عام 1940، أصبحنا منفردين تماماً بعد هزيمة فرنسا، ولم يكن في إمكان دول "الدمنيونات" أو الهند أو المستعمرات أن تمدنا بالمساعدات اللازمة التي كنا في أشد الحاجة لها، وكانت الجيوش الألمانية الضخمة المنتصرة المدربة والتي توفر لديها السلاح الاحتياطي الضخم، والمستودعات والمصانع التي غنمتها بكل بساطة، أخذت هذه الجيوش تستعد للمعركة الفاصلة.

أما إيطاليا فوقفت بقواتها الكثيفة الجرارة، بعد أن أعلنت علينا الحرب، تبحث في شوق عن طريقة لتدميرنا في البحر المتوسط ومصر.

كذلك وقفت اليابان في الشرق الأقصى تنظر إلينا نظرة غريبة يتعذر علينا تفسيرها وتطالبنا في إلحاح وتهديد إغلاق طريق بورما في وجه المساعدات إلى الصين، كما كانت روسيا تقدم إلى هتلر مساعدات هامة من المواد الأولية ....

أما أسبانيا التي احتلت منطقة طنجة الدولية، فقد تغدر بنا بين آونة وأخرى وتطالبنا بجبل طارق وربما استنجدت بألمانيا لمساعدتها في احتلاله أو في إقامة بطاريات المدفعية الهائلة لتطويق أسطولنا عبر

المضيق، وفي هذا الوقت كانت الحكومة الفرنسية التي أصبح بيتان رئيساً لها، قد انتقلت إلى فيشي، وأصبح من المنتظر بين لحظة وأخرى أن تعلن الحرب علينا بعد أن أصبحت ميالة إلى فكرة أوروبا النازية، كذلك أصبح الأسطول الفرنسي في قبضة الألمان في طولون. وهكذا وجدنا أننا لسنا في حاجة إلى المزيد من الأعداء.

ومع أن معنوياتنا لم تضعف، إلا أن السؤال الذي ظل يراودنا هو: كيف يمكن لنا أن نجتاز هذه الصعوبات القائمة؟ لقد كان من المعروف أن جيشنا في الوطن لا يحمل سلاحاً أكثر من البنادق، وستمضي فترة من الزمن قبل أن تتمكن مصانعنا من التعويض على ما خسرناه من عتاد في دنكرك ... أليس من العجيب بعد كل هذا ألا يكون العالم كله متراجع على يقين من أن ساعتنا الأخيرة قد دنت؟؟

وانتشر الرعب في الولايات المتحدة وسائر الدول الأخرى الحرة، وأخذ الأميركيون يتساءلون في اهتمام: هل من واجبهم أن يجازفوا بمواردهم المحدودة الضئيلة إرضاء للمشاعر الطيبة وحدها وإن كانت المخاطرة ميئوساً منها؟

أليس من الأجدى أن يبذلوا أي جهد وأن يوفروا كل سلاح لملاقاة ضعف استعدادهم. وكان التغلب على هذه الأسانيد، يتطلب منطقاً مستقيماً وعلى ـانب من الثقة، ولا ريب في أن الشعب البريطاني مدين لرئيس الولايات المـ ـة وكبار القادة والمستشارين، لأنهم على الرغم من اقتراب موعد انتخابـ ـ ـرة الثالثة للرئاسة لم يتخلوا عن ثقتهم القوية في تصميم بريطانيا وقدر ـ على النضال. وليس من شك في أن تصميم بريطانيا القوي الذي لم ينله ـ ـعف أو وهن كان عاملاً من عوامل رجحان كفتنا

في القتال.

إن هذا الشعب الذي ظل في سنوات ما قبل الحرب يسير في طريق المسالمة وعدم التفهم، ويخوض غمار المهازل الحزبية، ويغرق إلى أبعد الحدود في لجة السياسات الأوروبية بلا خوف ... ها هو الآن يلاقي مصير تقصيره في التأهب والاستعداد، وثمرة اتكاله على النوايا الحسنة والحوافز الكريمة، ولكن العالم يراه في الوقت نفسه مصمماً على أن تصبح بلاده قطعة من الخراب قبل أن تبدو جزيرته خانعة ذليلة ....

وهذه بلا جدال إحدى صفحات التاريخ الرائعة، ولكنها ليست الصفحة الوحيدة به، فعندما استولى الاسبرطيون على أثينا، أصرت قرطاجة على الصعود والاستبسال حتى الموت أمام روما، والتاريخ حافل بصفحات كثيرة عن شعوب استماتت في النضال، ودول شجاعة تفيض بالكبرياء ... آثرت أن تفنى وتموت وألا يبقى لها أثر.

ولم يكن هناك في ذلك الحين سوى أقلية معدودة من البريطانيين والأجانب تقف على الأهمية الإستراتيجية لموقعنا الجغرافي المنعزل، ولم يكن كثيرون قد عرفوا في مدى سنوات ما قبل الحرب أننا كنا نحافظ على مقومات دفاعنا البحري والجوي، وقد مضى على الجزر البريطانية ما يقرب من ألف عام لم تشهد أرضها نيران غزو من الجو، وظل كل بريطاني في قمة الكفاح محتفظاً بهدوء أعصابه، راضياً كل الرضا بالتضحية بحياته في سبيل بلاده. وسرعان ما أخذ الأعداء والأصدقاء في سائر بلاد العالم يدركون أن هذه هي طبيعتنا الأصلية ... وماذا يكمن خلفها؟ أنه الأمر الذي يمكن أن يظهر في الشدائد.

وكانت هناك ناحية أخرى، فقد تعرضنا خلال شهر حزيران لخطر

كبير ... فقد رأينا آخر ما لدينا من قوات احتياطية تسحب ليقضى عليها في محاولة يائسة في فرنسا، وأن قواتنا الجوية تتضاءل شيئاً فشيئاً في هذه الغارات التي نمضي بها إلى القارة أو في نقلها إلى هناك. ولو كان هتلر موهوباً، أو متمتعاً بحكمة خارقة، لأبطأ في هجومه على الجبهة الفرنسية مدة ثلاثة أسابيع أو أربعة بعد معركة دنكرك على خط نهر السين. ليتم استعداداته للهجوم على بريطانيا ... ولو حدث هذا لأصبحنا في وضع مخيف لا خيار لنا فيه. فإما أن نتخلى عن فرنسا وفي هذا تعذيب لنا، وألم لفرنسا، وإما أن ننثر قواتنا وننشرها مع ما في هذه القوات من ضرورة قصوى لمستقبلنا وحياتنا، إذ كلما حفزنا الفرنسيين على المضي في القتال، تحتم علينا أن نزيد في العون لهم، وهذا يؤدي إلى اشتداد الصعوبات في طريق إعدادنا للدفاع عن بريطانيا نفسها، ولا سيما بالنسبة للأسراب الخمسة والعشرين من طائراتنا المقاتلة التي يتوقف مصير كل شيء عليها. وبالطبع كان مستحيلاً أن نتخلى عن هذه الأسراب، ولكن رفضنا سيؤدي بالتأكيد إلى إغضاب حليفتنا الباسلة مما يعكر صفو علاقاتنا، وعلى هذا فقد رأينا عدداً من كبار قادتنا، ينظرون إلى مشكلاتنا الهينة نوعاً ما، بعد أن أصبحنا لوحدنا، بشيء من الراحة، وكأن عبئاً ثقيلاً قد نزل عن كواهلهم، وأصبح وضعنا كوضع مدرب أحد النوادي العسكرية الذي أخذ يخاطب لاعباً قد تهاوت معنوياته بقوله: "أيا ما كان الأمر فقد بلغنا المعركة الفاصلة، وسيكون نادينا ميدانها".



لم تكن القيادة الألمانية العليا، حتى هذه الفترة قد استهانت بقيمة ما عليه مركزنا من قوة، وقد ذكر تشيانو أنه قابل هتلر في برلين في 17 تموز

عام 1940 وتحدث مع الجنرال فون كايتل طويلاً، كما تحدث هتلر نفسه عن غزو لبريطانيا، فأكد له أن الرأي لم يستقر نهائياً على أي شيء وقد ذكر أن عملية النزول إلى البر في إنكلترا غير مستعجلة إلا أنها صعبة جداً، ويجب أن تقوم بها ألمانيا وهي في غاية الحذر، إذ أن أخبارنا عن الترتيبات العسكرية في الجزيرة، وطرق الدفاع عن شواطئها قليلة وغامضة وأضاف كايتل أن ما يبدو سهلاً وجوهرياً هو شن هجوم جوي مركز على المطارات والمصانع ومراكز المواصلات الرئيسية في بريطانيا العظمى، ومن المحتم أن يعرف كل إنسان أن السلاح الجوي البريطاني في منتهى القوة، وذكر كايتل أن هذا السلاح الجوي يتألف من حوالي ألف وخمسماية طائرة مستعدة للدفاع والهجوم المضاد، كما اعترف أن الغارات التي يقوم بها السلاح الجوي البريطاني قد تزايدت كثيراً، وأن من ناحية إصابة الأهداف من الجو فهم في غاية المهارة. وكان عدد الطائرات المغيرة في كل مرة يصل إلى الثمانين لكن بريطانيا تعاني نقصاً كبيراً في الطيارين، وليس في وسعها أن تستعيض عن هؤلاء الذين يهاجمون المدن الألمانية الآن، بالطيارين الجدد الذين ينقصهم التدريب إلى حد كبير.

وأصر كايتل على ضرورة توجيه ضربة إلى جبل طارق لقطع شرايين المواصلات البريطانية وشل حركتها، ولم يشر كايتل أو هتلر إلى مدة الحرب أو أجلها، وكان هتلر وحده الذي ذكر عرضاً أن الحرب يجب أن تنتهي قبل ابتداء شهر تشرين الأول.

هذا هو التقرير الذي وضعه تشيانو في مذكراته، وقد عرض على هتلر استجابة لطلب الدوتشي العاجل إمداده بحوالي عشر فرق من قواته ووحدة جوية تتكون من ثلاثين سرباً للمساهمة في الغزو وقد اعتذر هتلر عن قبول

القوات البرية في لباقة، ووصلت بعض الأسراب الجوية الإيطالية، لكنها لم تصب نجاحاً في مهمتها.

وقد ألقى هتلر في 19 تموز خطاب القائد المنتصر في الرايشتساغ. وبعد أن تنبأ بأني سألجأ إلى كندا، قدم ما يمكن أن يسمى عرضاً للصلح، وقد أرفق عرضه هذا بمذكرات دبلوماسية أرسلت عن طريق السويد والولايات المتحدة والفاتيكان – وبدا من الطبيعي بعد أن خضعت أوروبا كلها لإرادته، سيكون في غاية السرور إذا تمكن من الحصول على موافقة بريطانيا على كل ما فعله، ولم يكن العرض في الحقيقة يتناول السلام، وإنما يتناول الاستعداد لتقبل إذعان بريطانيا للتخلي عن كل ما خاضت الحرب من أجله.

وفكرت في أول الأمر في إثارة الموضوع بصفة رسمية في البرلمان، ولكن زملائي الوزراء رأوا أن مثل هذا العمل يؤدي إلى التشويش حول موضوع كنا جميعاً متفقين حوله، وتقرر عوضاً عن ذلك أن يكلف وزير خارجيته بالرد على عرض هتلر في إذاعة موجهة في يوم 22 تموز يرفض فيها دعوة هتلر ... وأذيع الحديث الذي "قذف جانباً" بدعوة هتلر "للاستسلام لإرادته". ثم قارن بين أوروبا الهتلرية، وأوروبا التي نقاتل في سبيل حمايتها، وأعلن أننا لن نتوقف عن القتال حتى نضمن وجود الحرية ... وفي خلال ذلك كانت الصحف البريطانية والإذاعة قد رفضت أي حديث عن الصلح، دون تدخل من حكومة جلالته، وإنما بدافع من نفسها بعد الاستماع إلى خطاب هتلر من الإذاعة.

ويذكر تشيانو في مذكراته أنه "عندما أذيع أول رد بريطاني، الذي كان متسماً بالبرودة، على الخطاب في الساعات الأخيرة من ليلة 19 تموز ...

ساد بين الألمان شعور بخيبة الأمل. بيد أن هتلر كان يتطلع إلى التفاهم مع بريطانيا العظمى، فقد كان يدرك أن الحرب من البريطانيين ستكون قاسية تفيض بالدماء — وهو يدرك تماماً أن الناس في كل مكان يكرهون سفك الدماء — أما موسوليني فيخشى من ناحية أخرى أن يجد الإنكليز في خطاب هتلر الماكر للغاية مبرراً للبدء في المفاوضات، وهذا مما يحز في نفس موسوليني لأنه يرغب في الحرب الآن أكثر من أي وقت مضى. وأياً كان الأمر فلم يكن موسوليني في حاجة إلى الغضب أو الثورة، فسيتاح له أن يخوض كل أهوال الحرب التي يتمناها.

وقد قدم رؤساء أركان الحرب بواسطة الجنرال ايسماي اقتراحاً في أواخر شهر حزيران لأزور المناطق المهددة في السواحل الجنوبية والشرقية. وتلبية لهذا الاقتراح خصصت يوماً أو يومين من كل أسبوع للقيام بهذه الزيارة المحبوبة، وكنت أنام عندما تفرض الظروف في قطاري الخاص الذي تهيأت لي فيه كل أسباب الراحة ليتاح لي أداء أعمالي العادية بكل انتظام ... مع العلم إني كنت أتصل دائماً (بهوايتهول). وقد قمت بزيارة "التاين" و "الهامير" وغيرهما من الأماكن المهددة بإنزال محتمل، وشاهدت مناورة للفرقة الكندية في كنت، وقمت بالكشف عن الخطوط الدفاعية الداخلية في هارويتسن ودوفر، وكانت إحدى زياراتي الأولى للفرقة الثالثة التي يقودها الجنرال مونتغومري وهو ضابط لم أكن قد التقيت به. وقد صحبتني زوجتي في هذه الزيارة للفرقة المذكورة المرابطة على مقربة من برايتون. وكانت هذه الفرقة قد أعطيت أهمية خاصة من ناحية الإعداد. وكانت على وشك الإبحار إلى فرنسا عندما انهارت المقاومة الفرنسية.

وقد أقام الجنرال مونتغومري مركز قيادته في ستيتنج، وأراني مناورة

صغيرة كانت الحركة الرئيسية فيها مناورة قامت أساساً على تحركات حاملات مدافع برن الرشاشة التي لم يكن في استطاعته أن يستخدم منها حينذاك سوى سبع أو ثماني حاملات. ومضت بنا السيارة بعد ذلك على الساحل عبر "شورهام" و "هوف" إلى أن وصلنا إلى جبهة برايتون المعروفة التي لي فيها الكثير من الذكريات القديمة. وقد تناولنا عشاءنا في فندق "البيون" الملكي الذي يقع على الناحية المواجهة لرصيف الميناء الداخلي. وكاد الفندق أن يكون مقفراً من الناس بسبب عمليات الانسحاب الأخيرة، ومع ذلك فكان هناك من يستنشق الهواء الطلق ويتنزه على الشاطئ، وفي الميادين وقد سرني أن أرى طائفة من "حرس قاذفي القنابل" يمهدون مركزاً لمدفعهم الرشاش في أحد أكشاك الرصيف. فذكرني ذلك بما كنا نفعله في طفولتنا ونحن نعبث بالمخلفات القديمة. وكان الجو رائعاً جميلاً، وتحدثت إلى القائد أحاديث مثمرة ... والحق أني كنت شديد السرور بهذه الزيارة.

وفي منتصف شهر تموز اقترح عليَّ وزير الحربية إحلال الجنرال بروك محل الجنرال ايرونسايد في قيادة الجيوش، وفي 19 تموز حينما كنت أطوف لاستطلاع القطاعات المعرضة للهجوم زرت القيادة الجنوبية ورأيت التجربة الواقعية التي ساهمت فيها اثنتا عشرة دبابة تقريباً، وبقيت في السيارة طيلة بعد الظهر مع الجنرال بروك الذي كان يتولى قيادة تلك الجبهة، ولا شك أن سجل ماضيه كان رائعاً، فقد قاد المعركة الفاصلة عند "ابيرس" أثناء عملية الانسحاب إلى دنكرك، ثم تمكن بما أوتي من حذق وصلابة، وفي وسط عوامل في منتهى الصعوبة والقوة، عندما كان يقود القوات الجديدة التي أرسلناها إلى فرنسا خلال الأسابيع الأولى من شهر حزيران، تمكن من إنقاذ حملته، وكانت تربطني به صلة أيضاً عن طريق

أخويه البطلين اللذين كانا لي صديقين في بداية حياتي العسكرية.

على أن هذه العلاقات والذكريات لم يكن لها أي تأثير على وجهة نظري في موضوع حيوي كهذا الذي يتصل باختيار القائد العام ولكنها وثقت الصلات بيني وبين الآن بروك في غضون الحرب. وقطعنا ما يقارب الأربع ساعات معاً في السيارة في ذلك اليوم من تموز عام 1940، وكنا على اتفاق تام بشأن كافة وسائل الدفاع في داخل الوطن. وبعد المشاورات الضرورية مع الآخرين وافقت على اقتراح وزير الحربية بتولي بروك القيادة العامة خلفاً للجنرال ايرونسايد الذي واجه إحالته إلى التقاعد بما اشتهر عنه من اعتزاز في جميع الظروف التي تمت بها أعماله العسكرية.

وظل بروك في القيادة سنة ونصف تعرضنا فيها لخطر الغزو، فنظم القوات تنظيماً حسناً، وعندما صار فيما بعد رئيساً لأركان حرب القوات الإمبراطورية استمر التفاهم بيننا رائعاً حتى انتهينا إلى النصر ... وسأورد بعد قليل المكاسب التي حققتها من استشارته في إجراء تغييرات حاسمة في القيادات في مصر بالشرق الأوسط في شهر آب عام 1942، وما كان لها من خيبة أمل في موضوع قيادة عملية الغزو عبر القنال (المانش) في عملية السيد الأكبر (أوفر لورد) عام 1944. وقد أدى خدمات جليلة في المدة الطويلة التي عمل فيها رئيساً للجنة رؤساء أركان الحرب، في معظم سنوات الحرب ورئيساً لأركان حرب القوات الإمبراطورية، لا للإمبراطورية البريطانية فحسب بل للحلفاء جميعاً، وسأحكي في هذه القصة بعض الاختلافات في وجهات النظر التي حدثت فيما بيننا أحياناً، وأقص كذلك كثيراً من المسائل التي اتفقنا فيها وهي تؤكد مدى صداقتنا كل التأكيدات.

وفي هذا الشهر وصلت إلينا كميات وافرة من السلاح الأميركي عبر الأطلنطي من غير أن تمس بسوء، وبينما كانت البواخر تقترب من سواحلنا بما تحمله من عتاد لا يقدر بثمن، كانت هناك قطارات خاصة أعدت لتحملها من الموانئ، وقد مكث الحرس الوطني في كل مقاطعة وكل بلدة وكل قرية متلهفاً على تسلم هذه الأسلحة، واكب الرجال والنساء على العمل بكل قواهم لتجهيز هذه الأسلحة وجعلها صالحة للاستعمال. وهكذا أصبحنا في نهاية شهر تموز شعباً مسلحاً على أهبة الاستعداد لمواجهة أي غزو يقوم به المظليون. نعم لقد أصبحت بريطانيا أشبه ما تكون "بخلية نحل" وإذا قدر لمقاومتنا أن تنهار، وهو احتمال بعيد، فإن حشداً من الرجال والنساء، سيظل حاملاً السلاح وقد استطعنا بوصول الدفعة الأولى من البنادق الأميركية إلى حرسنا الوطني بصرف النظر عن ضآلة كمية الطلقات التي لم تزد عن خمسين طلقة لكل قطعة، استطعنا أن نزود جيشنا العامل بثلاثمائة ألف بندقية بريطانية.

وبدأ كثير من الخبراء يجهزون بكل سرعة مدافع الخمسة والسبعين ملليمتراً التي وصلت إلينا، ومع كل مدفع منها ألف قذيفة، ولم يكن بحوزتنا معدات لإيصال المدافع بعرباتها كما أنه لم توجد لدينا الوسائل العاجلة لإنتاج عدد أكبر من القذائف على الرغم من أن المدافع المختلفة الأحجام تعقد العمليات الحربية، إلا أنني صممت منذ البداية على استخدامها. وأصبحت هذه المدافع منذ وصولها إلينا وطيلة عامي 1940 و 1941 جزءاً مهماً في قوتنا العسكرية المدافعة عن الوطن. كما قمنا بعمل ترتيبات خاصة تعد مبتكرة دربنا عليها عدداً من الرجال لإدارة هذه المدافع وربطها في سيارات الشحن لنقلها من مكان إلى آخر، وعندما تقاتل دفاعاً عن كيانك فإن وجود مدفع خير من عدمه. وقد مكث المدفع الفرنسي من طراز

75 ملليمتراً سلاحاً فعالاً بالرغم من قدمه بالنسبة للمدافع البريطانية الحديثة من طراز 25 رطلاً والمدافع الألمانية (هاوتزر).

وعندما مضت أشهر تموز وآب دون أن تنزل بنا الكارثة الساحقة، هدأنا بعض الشيء وازدادت ثقتنا في مقدرتنا على خوض غمار حرب طويلة قاسية، وكنا نشعر بقوتنا تزيد يوماً عن يوم. فكل فرد في المجموع يعمل بكل طاقته ليل نهار، ويمضي إلى نومه بعد ذلك شاعراً بثمار أعماله، واثقاً بأن الوقت أصبح في صالحنا، وأننا سننتصر في الحرب دون شك.

وازدحمت الشواطئ بمختلف أنواع الوسائل الدفاعية وتم تنظيم البلاد كلها في مجموعات ووحدات دفاعية وغدا السلاح يتدفق من المصانع، ولم يكتمل شهر آب حتى أصبح في حوزتنا مائتان وخمسون دبابة جديدة. وبدأنا نجني ثمار المساعدة الأميركية وأخذ رجال الجيش البريطاني العامل وزملاءهم من رجال الجيش الإقليمي يقومون بتدريباتهم في ساعات الصباح الباكر حتى المساء، وبهم لهفة إلى لقاء العدو، وازداد عدد جنود الحرس الوطني إلى ما فوق المليون، وعندما كان ينقصهم السلاح كانوا يعمدون إلى استخدام أسلحة الصيد والرياضة والمسدسات الخاصة وأحياناً الفؤوس والمجارف. ولم يتكون في بريطانيا طابور خامس، وإن صادفت قوات الأمن بعض الجواسيس، أما القلة الشيوعية الموجودة في بلادنا فقد تلاشت أصواتهم على حين أقدم الشعب كله على بذل كل ما يستطيع من تضحيات غالية.

وعندما زار فون ريبنتروب روما في أيلول قال لتشيانو: "إن الدفاع الإقليمي عن انكلترا لا وجود له بلا شك، وإن فرقة ألمانية واحدة يمكنها أن تؤدي إلى انهيار كامل فيها" إن قوله هذا يكشف عن جهله الفاضح بنا،

وتساءلت في قرارة نفسي: ماذا يكون لو تمكن مائتا ألف ألماني من جنود العاصفة التجمع على شواطئنا؟ لا شك بأن المذبحة ستكون رهيبة مروعة لدى الفريقين — إذ لم يكن هناك مجال للرحمة أو الشفقة، فقد كان الألمان على استعداد لاستخدام الإرهاب، وكنا من ناحيتنا على استعداد للمضي في المقاومة إلى أقصى حد ممكن. وقد قررت تطبيق المثل السائر: "بوسعك دائماً أن تمضي بشخص آخر معك بعيداً عن هذه الدنيا" وقد قدرت أن أهوال هذا المنظر ستقضي بالنهاية إلى ترجيح كفة الولايات المتحدة، لكن كل هذه العواطف لم توضع موضع التجربة والاختبار، وفوق مياه المانش ومياه بحر الشمال الزرقاء ربضت عشرات السفن البحرية المتلهفة على القتال ساهرة الليل بطوله، بينما كان طيارو المقاتلات يحلقون في السماء أو يقفون إلى جانب طائراتهم استعداداً لتلقي أي إشارة تصدر إليهم.

حقاً لقد كانت تلك الفترات جديرة بالحياة أو الموت. إذا وقفت على حقيقة القوات البحرية فقد وقفت على معرفة لها شأنها وروعتها. فاقتحام جيش لمياه المحيطات والبحار، بالرغم من وجود أساطيل قوية وسفن بحرية هائلة أمامه، عمل حربي معجز، وقد أضاف البخار كثيراً من القدرات إلى إمكانيات الأسطول في الدفاع عن بريطانيا العظمى. ففي عصر نابليون كانت الرياح تستطيع الدفع بقواربه المسطحة القعر إلى الخلف، لكن ما حصل بعد ذلك قد ضاعف من تفوق الأساطيل القوية ومقدرتها على تحطيم الغزاة وهم في الطريق. وأدى كل تعقيد في الأجهزة الحديثة بالنسبة إلى الجيوش إلى أن أصبحت مهمتها أكثر صعوبة ومشقة، وإلى أن صارت المتاعب التي تواجه قيادتها في تزويدها بالعتاد والذخائر بعد إنزالها أمراً فوق الطاقة، وفي أزمة الحرب السابقة التي اهتز فيها مصيرنا كانت لنا قوة بحرية متفوقة، ولم يستطع العدو كسب معركة بحرية واحدة هامة ضدنا،

لقد عجز عن مجابهة قوة طراداتنا وبالطبع كانت ثمة فرص أكثر من أن تعد تتصل برداءة الطقس وخاصة في حال تكاثف الضباب، على أنه على فرض قيام هذه الفرص المعادية لنا واستطاع العدو النزول إلى شواطئنا في مكان أو أكثر، فإن مشكلة تزويد هذه القوات بما يلزمها وتغذيتها بأية تجمعات أخرى، هذه المشكلة تظل مستعصية الحل. هكذا كان الوضع في الحرب العالمية الأولى. أما الآن فقد دخل عنصر الطيران، فما هو تأثير هذا التغيير الرئيسي على الغزو؟ من الظاهر أن العدو إذا تمكن من السيطرة على مضايق دوفر، بقوته الجوية المتفوقة، فإن خسائرنا في المدمرات ستكون كبيرة للغاية، وقد تكون أيضاً قاضية علينا، ولن يوجد إنسان لديه الرغبة في الإتيان ببوارج ضخمة أو طرادات كبيرة إلى مياه تسيطر عليها القاذفات الألمانية، وبالفعل لم نضع أي بواخر ضخمة إلى الجنوب من "فيرث أوف فورت" أو إلى الشرق من "بلايموث" ولكننا جهزنا في هارويش ونور ودوفر وبورتسماوث وبورتلاند دوريات دائمة اليقظة تتألف من سفن حربية خفيفة، وقد أخذ عددها يتكاثر باستمرار ولم يأت شهر أيلول حتى صار العدد أكثر من ثمانمائة، ولم يكن في الإمكان بعد ذلك تدميرها إلا بواسطة قوة جوية متفوقة معادية تحاول العمل على عدة مراحل.

وهنا يرد السؤال: لمن كان التفوق في الجو؟ لقد كنا نقاتل الألمان في معركة فرنسا وهم متفوقون علينا في العدد بضعفين أو بثلاثة أضعاف، وبالرغم من ذلك فقد ألحقنا بهم خسائر تعادل النسبة السابقة، وفي سماء دنكرك وقد فرض علينا الاحتفاظ بدوريات مستمرة لتغطية إنقاذ جيشنا، كنا نحاربهم بكسب وغنم على الرغم من تفوق عددهم بنسبة أربعة أضعاف أو خمسة، وتوقع مارشال الجو الأعلى دوادنج، قدرتنا على قتالهم وصد هجماتهم بنجاح، فوق مياهنا وشواطئنا ومقاطعاتنا المكشوفة، حتى لو

تفوقوا علينا بنسبة سبعة أو ثمانية أضعاف.

وقد كانت قوة السلاح الجوي الألماني في ذلك الحين حسب معلوماتنا الصحيحة تعادل ثلاثة أضعاف ما نملكه، وبالرغم من أن هذا التفاوت كبير بالنظر إلى القتال مع أعداء شجعان أقوياء كالألمان. فقد توصلت إلى النتيجة التي سبق التوصل إليها، وهي أن في سمائنا وفوق بلادنا ومياهنا نستطيع الانتصار على السلاح الجوي الألماني، وإذا صح هذا فإن بحريتنا هي الأخرى ستبقى محتفظة بسيطرتها على البحار والمحيطات وستقوى على إحباط محاولات الأعداء الذين يحاولون شق طريقهم إلينا.

وبقي عامل ثالث في الإمكانيات والاحتمالات، فلو تمكن الألمان بما عرف عنهم من مقدرة. وبعد في النظر – من تجهيز حملة كبيرة بطريقة سرية تحوي قطعاً خاصة للإنزال لا تحتاج إلى موانئ أو أرصفة، وإنما تقوم بعملية الإنزال للدبابات والمدافع والسيارات المدرعة في أي نقطة مناسبة على الشاطئ. فهل يقدرون بعد ذلك على تزويد هذه القوات بالمؤن؟ ومع أنه لم يكن لدينا أي مبرر يحملنا على الاعتقاد بوجود مثل هذه المخترعات لدى العدو، إلا أن قواعد الحساب الصحيحة تقضي باحتمال الخسائر تماماً كالأرباح.

وتطلب منا إيجاد المعدات التي لزمتنا في عملية غزو نورماندي، بذل جهد كبير متواصل بالإضافة إلى التجارب والعون المادي الضخم من جانب الولايات المتحدة الأميركية طوال أربع سنوات. وبالحقيقة لم يكن الألمان بحاجة إلى هذا العدد الكبير من المعدات في مثل هذا الوقت، إلا أنهم كانوا يملكون معابر قليلة في العدد.

وهكذا أوجبت علينا مشكلة غزو بريطانيا في صيف عام 1940 وفي الخريف من نفس العام، تفوقاً جوياً ضخماً وإمكانية ضخمة في السيطرة

على المياه الإقليمية بالإضافة إلى كميات هائلة من معدات الإنزال. لكن السيطرة على البحار كانت إلى جانبنا، كما كان لنا التفوق الجوي، وكنا على ثقة – وقد ثبت لنا فيما بعد صحة هذا الاعتقاد بأن الألمان لم يقوموا ببناء قطع بحرية ضرورية للإنزال.

هذه هي أسس تفكيري عام 1940 وكان هناك الكثير من الحديث حول هذا الموضوع بالذات والكثير من القلق في شهر تموز لدى الدوائر الحكومية وخارجها، وبالرغم من عمليات استطلاعها المستديمة عن سفن القتل الألمانية في البلطيق أو في مرافئ الراين والشلدات، وقد كنا على يقين كذلك من أن أية بواخر أو صنادل من ذوات المحرك الآلي لم تعبر المضايق إلى بحر المانش، فبالرغم من كل هذا فقد كان شغلنا الشاغل هو التجهيز والاستعداد الكامل لمواجهة أي غزو وسحقه. وكنا نعتمد اعتماداً كلياً على تفكيرنا هذا في وزارة الحربية وفي القيادة العسكرية.

وكانت خطة الألمان التي كشف عنها، تعتمد على وجوب الغزو عبر القنال بسفن متوسطة الحجم تتراوح حمولتها بين أربعة آلاف طن وخمسة آلاف، بالإضافة إلى قطع صغيرة أخرى. والآن نحن نعلم أنهم لم يكونوا يتطلعوا إلى المضي بجيوشهم من مرافئ البلطيق أو بحر الشمال في سفن كبيرة، كما أنهم يفكروا بالغزو في موانئ بسكاي، وهذا لا يعني أنهم كانوا منصفين حين اختاروا الساحل الجنوبي كهدف لغزوهم، وإن كان كل منا على خطأ، فعملية غزو الساحل الشرقي كانت ذات قيمة أكبر لو تمكن العدو من أن يؤمن السبل والوسائل لتلك المحاولة، وطبعاً لم يكن هناك من مجال لغزو الساحل الجنوبي إلا بعد أن تمر البواخر الضرورية جنوباً عبر مضيق دوفر، بعد أن تتجمع في المرافئ الفرنسية القائمة على القنال،

وطوال شهر تموز لم نر أثراً لشيء من هذه التحركات.

وبالرغم من كل هذا فقد ترتب علينا أن نستعد لكافة الظروف والاحتمالات، وإلا نوزع قواتنا المتحركة في الوقت ذاته، وأن نقوم بجمع قواتنا الاحتياطية وحشدها، وفي الإمكان حل هذه المشكلة المستعصية والشائعة في نفس الوقت، فالأحداث تتالى من أسبوع لآخر والساحل البريطاني المعروف بكثرة تعاريجه يبلغ طوله أكثر من ألفي ميل، باستثناء أيرلندا، والسبيل الوحيد للدفاع عن محيط متسع كهذا قد يتعرض أي جزء منه أو جزءان منه في وقت واحد لهجوم مفاجئ ناجح يحتم علينا إنشاء مراكز للمراقبة والمقاومة حول الشاطئ أو الحدود غايتها عرقلة الزحف الأجنبي مع إيجاد أكبر قوة ممكنة من الاحتياطي في الوقت نفسه تضم جنوداً مدربين وعاملين في وحدات متحركة يمكنها الوصول إلى أي مكان يقع عليه هجوم مفاجئ في أقصر مدة ممكنة، ثم البدء في هجوم معاكس.

وعندما وجد هتلر نفسه محاطاً – في مراحل الحرب الأخيرة – بالأعداء، وواجه نفس المشكلة، وقع في أخطاء كبيرة حين عالجها، فلقد أقام شبكة من المواصلات تشبه نسيج العنكبوت، لكنه نسي العنكبوت نفسه، ولما كانت قصة تشتيت القوات الفرنسية الخاطئة التي أدت إلى الكارثة واقتضتنا ثمناً فادحاً لا تزال حاضرة في ذهني، فإنني قد صرفت جهدي كله منذ البداية إلى حشد قوات المناورة، وقد رسخت هذه السياسة في نفسي إلى أقصى حد ممكن تسمح به مواردنا المتضاعفة.

وقد التقت آرائي بوجهات نظر البحرية، وأرسل إلى الأميرال باوند بياناً مفصلاً في 12 تموز أعده بالاشتراك مع رؤساء أركان حربه، الذي كان قائماً على هذه الأسس النظرية ... وقد فصل البيان بالطبع جميع

الصعوبات التي علينا مواجهتها وقال الأميرال باوند في إجماله للخطة: "ربما يصل إلى شواطئنا ما يقارب المئة ألف جندي دون أن تكون لدينا القوات البحرية الكافية لقطع الطريق عليهم ووقفهم.

إلا أن الإبقاء على خط مواصلات لتموين هذه القوات أمر مستحيل عملياً إذا استطاع السلاح الجوي الألماني أن يتغلب على سلاحنا الجوي وأسطولنا في نفس الوقت، وإذا ما قام العدو بعملية كهذه فربما كان التقدم نحو لندن بسرعة والاعتماد في تموينه على البلاد التي يحتلها في طريقه، على حين يرغم الحكومة على الخضوع والاستسلام. وقد اقتنعت بهذا الاحتمال اقتناعاً تاماً، وتغير الوضع تغيراً حاسماً في شهر آب، فقد تأكد لمخابراتنا الماهرة أن هتلر قد أصدر تعليماته بالإعداد لعملية "أسد البحر" وإن هذه العملية في دور الإعداد الفعلي في هذا الوقت، وبدا لنا بشكل نهائي أن الرجل سيقدم المغامرة وكانت الجبهة التي سيهجم عليها تختلف تماماً، وقد تكون ثانوية بالنسبة للساحل الشرقي الذي كنت أنا قد وجهت إليه بالغ العناية مع رؤساء أركان الحرب الأميرالية وسرعان ما بدأ عدد كبير من الصنادل ذوات المحرك الآلي، والزوارق البخارية يعبر مضايق دوفر أثناء الليل زاحفاً بالقرب من الشاطئ الفرنسي، ليتجمع شيئاً فشيئاً في سائر الموانئ الفرنسية الممتدة من كاليه إلى بريست. وكانت الصور الفوتوغرافية التي ترد إلينا كل يوم تظهر لنا هذه التنقلات بدقة وعناية، ورأينا أنه من العسير علينا أن نزرع ألغامنا على مقربة من الساحل الفرنسي، ومضينا فوراً إلى مهاجمة هذه المراكب المتحركة بوحداتنا الصغيرة، وركزت قيادة قاذفات القنابل هجومها على موانئ الغزو وسرعان ما انهالت علينا الأنباء عن احتشاد جيش أو جيوش ألمانية ضخمة استعداداً للقيام بهذا الغزو على قطاع الساحل المعادي، وعن تحركات واسعة النطاق

على السكك الحديدية واحتشادات ضخمة في خليج كاليه ونورماندي وظهرت إلى حيز الوجود أعداد وفيرة من بطاريات المدافع القوية البعيدة المدى، منتشرة على طول الساحل الفرنسي القائم على القتال، وكان يترتب علينا أن نجابه الخط الجديد وننقل اعتمادنا على هذه الخطوة إلى خطوة أخرى ونهيئ كافة السبل لتيسير نقل احتياطنا المتحرك الذي يتضاعف عدده إلى الجبهة الجنوبية ومضى الوقت وقواتنا المتزايدة عدداً والمتقدمة كفاءة وسرعة في التحرك، تطمئنا إلى قدراتها وفعاليتها. ولم ينقض النصف الأخير من شهر أيلول، حتى كان في استطاعتنا أن نحشد ستة عشر فرقة من أحسن الفرق نظاماً وإعداداً على الساحل الجنوبي بينها ثلاث فرق مدرعة عدا أجهزة الدفاع الساحلية المحلية، وقد أصبح في إمكانها القيام على الفور بأي عمل عسكري يوكل إليها ضد أية عملية للغزو أو الإنزال وأصبحت لنا قوة ضاربة أو مجموعة من القوى الضاربة التي كان الجنرال بروك وحده القادر على تحريكها عندما تحين الساعة فهو أكثر سيطرة عليها من كل من عداه.



جرى كل ذلك بالرغم من عدم ثقتنا بأن جميع المداخل ومصبات الأنهار المنتشرة من كاليه إلى تيرشيلنج وهيلجولاند، وكل ما أمامه من جزر تقع بالقرب من الساحلين الهولندي والدنمركي، لا تخفي قوات معادية هائلة أخرى من نوع صغير أو متوسط. وقد خطر في بالنا أن الهجوم سيبدأ من هارويش حول بورتمات وبورتلاند إلى بليموث مع تركيز خاص على مقاطعة "كنت" أيضاً، ولم توجد لدينا أية براهين أخرى إيجابية على أن موجة ثالثة من الغزو قد لا تتسق وتتوافق في الزمن مع الموجتين الأوليين،

وتشن من موانئ البلطيق خلال مضائق سكاجراك في سفن كبيرة، ولا شك في أن مثل هذا الغزو جوهري بالنسبة لخطط الألمان لتحقيق النجاح، إذ تعتبر الوسيلة الوحيدة لوصول الأسلحة الثقيلة التي تم إنزالها، أو لإقامة مستودعات تموين كبيرة.

ودخلنا في ذلك الحيز فترة من التوتر الشديد، واليقظة الدائمة وكان علينا طيلة الوقت أن نحرص على وجود قوات كبيرة في الشمال من "دوش" حتى "كروماريتي" كما قمنا بعمل الترتيبات اللازمة لسحب جزء منها في حالة وقوع الغزو في الجنوب، وكان في مقدرتنا بفضل الشبكة الرائعة الداخلية من سكك حديدنا، وبفضل استمرار سيطرتنا على الجو في سماء وطننا، أن نسحب أربع فرق أو خمسة من الشمال لتعزيز الدفاع عن الجنوب في حالات الضرورة القصوى خلال أيام الرابع والخامس والسادس من بدء تحرك العدو.

وأجرينا دراسة دقيقة لأوضاع القمر والمد والجزر وتيقنا من أن العدو سيُفضل عبور البحر في الليل والنزول إلى الأرض عند الفجر، وها نحن أولاً نعرف أن ما تيقنا به كان على صواب أيضاً، ولم نجد لدينا ذرة من الشك في مقدرتنا على تحطيم كل ما ييسر للعدو النزول في دوفر البحرية أو في القطاع الساحلي الممتد من دوفر إلى بورتسماوث وإلى بورتلاند، وكانت أفكارنا جميعاً – نحن الذين نتولى القيادة – تسير في اتجاه وتوافق تأمين مما يثير الإعجاب لتوجيه ضربة إلى عدونا تخلف دوياً في كافة أنحاء العالم، ولم يكن في استطاعة أي إنسان إلا أن يحس بالحماسة ويشعر بالتأثر من هذا الجو الذي يولي بعزم هتلر وعتاده.

وكان من بيننا من يتحرق شوقاً إلى قيام هتلر بمحاولته، يحدوهم إلى ذلك العوامل المجردة التي تؤكد لهم مدى تغير مجرى الحرب لومُني

هتلر بتدمير محاولته وتحطيم أمانيه. وكنا قد انتهينا خلال شهري تموز وآب من السيطرة الجوية على سماء بريطانيا، وكانت قواتنا متفوقة تماماً وبصورة خاصة في سماء القطاعات الواقعة في الجنوب الشرقي لبلادنا، وأخذت المعدات الدفاعية الدقيقة، والمراكز المنيعة والحصون الشماء وحواجز مكافحة الدبابات، وحواجز الطرق إلى غير ذلك تملأ كل مكان. وتوهجت سواحلنا بالإجراءات الدفاعية والبطاريات كما توفر لدينا عدد من المدمرات العاملة في الأطلنطي مع ما في هذا الإجراء من ثمن باهظ تكبدته قوافلنا التجارية في الأطلنطي كما شيدنا عدداً آخر منها ليزيد استحكام الدفاع عن السواحل، وقد أحضرنا بارجة التدريب (سنتوريون) وإحدى الطرادات إلى بلايموث وظل أسطولنا في ذروة قوته، وفي قدرته أن يعمل مع تجنب كثير من الأخطار.

وبهذا كنا على أتم الاستعداد لمواجهة أي شيء ... وأخيراً اقتراب موسم الزوابع الاستوائية المعروفة في شهر تشرين الأول، وكان شهر أيلول هو الشهر الذي يتحتم على هتلر أن يوجه فيه ضربته إذا واتته الجرأة الكافية حيث يكون في صالحه ظواهر المد والجزر والقمر في أواسط الشهر المذكور.

وأرى أن الوقت قد حان لانتقل بالقارئ إلى معسكر الأعداء، حتى أطلعه على مدى استعداداته وخططه، كما وقفنا عليها في هذه الآونة.

❊ ❊ ❊

الفصل السابع

عمليـــة أســـد البحـــر

يتحدث تشرشل في هذا الفصل عن إحدي أهم العمليات البحرية وهي عملية أسد البحر فيقول: لم تكد تنشب الحرب في 3 أيلول عام 1939، حتى بدأت البحرية الألمانية، كما تشير الوثائق المصادرة بعد الحرب، عن الدراسات اللازمة لغزو بريطانيا. وقد رأت عكس ما ارتأيناه، رأت إن السبيل الوحيد هو إتمام الغزو عبر المياه الضيقة لبحر المانش، ولم يقدر الألمان أي احتمال آخر، ولو كنا قد علمنا بالحقيقة هذه آنذاك لاسترحنا كثيراً حيث يواجه الغزو عبر المانش أكثر سواحلنا تحصينا، وهي الجهة البحرية القديمة المواجهة لفرنسا حيث الموانئ المحصنة، وحيث قواعد المدمرات الرئيسية، وأغلب المطاردات ومحطات الإشراف الجوي للدفاع عن لندن، ولم نكن نعتمد في أي جزء من أجزاء الجزيرة اعتمادنا على هذا الجزء في المسارعة إلى العمل بقوة ضخمة للأعداد في حال قيام الأسطول الألماني بغزو بريطانيا، وفي نفس الوقت طلب تركيز الكثير من الأوضاع، وفي مقدمتها الإشراف الكامل على سواحل فرنسا وبلجيكا وهولندا وموانيها ومصبات أنهارها وهذا هو سبب نوم المشروع طيلة فترة ما قبل الحرب ...

وفجأة برزت الافتراضات بصورة تثير الاستغراب، وتمكن رايدر بالرغم من بعض وساوسه من التقدم إلى الفوهررر مساء معركة دنكرك واستسلام فرنسا بمشروع نال إعجابه، كما تحدث في الحادي والعشرين من أيار مع

هتلر في الموضوع ذاته وفي العشرين من حزيران تحدث إليه لا عن اقتراح الغزو بل عن نسبة التأكد من أنه في حال صدور الأمر بالغزو فإن إعداد التفاصيل المتعلقة بالمشروع لن يتم بطابع العجلة، وكان هتلر بدوره تساوره الظنون في النجاح فعقب قائلاً، أنه يقدر تماماً الصعوبات المحتومة التي سيواجهها مشروع كهذا، وكان هتلر يتعلق بالأمل الواهي من أن إنجلترا قد تطلب الصلح وتنشده، ولم تنتبه القيادة الألمانية إلى فكرة الغزو إلا في آخر أسبوع من حزيران. وفي الأسبوع الثاني من تموز صدرت الأوامر الأولى بتجهيز خطة للغزو كأنه أمر محتمل الوقوع، وتقضي هذه الأوامر بأن الفوهرر قد علق غزو إنكلترا على توفر بعض الشروط الخاصة وفي طليعتها السيطرة الجوية.

وأصدر هتلر في 16 تموز توجيهاً منه يقول أنه بالرغم من المأزق العسكري الحرج لإنكلترا فإنها لم تظهر أية رغبة في التفاهم، ومن أجل هذا عزمت على إعداد عملية النزول في إنكلترا لتنفذ في الوقت المناسب، وينبغي أن تتم الترتيبات اللازمة للخطة كلها قبل منتصف شهر آب، وكانت الإجراءات العملية لتنفيذ هذه الإشارة قد بدأت في كل مكان. فقد كانت خطة الأسطول الألماني تتسم بالميكانيكية بوجه عام، فتحت ستار نيران المدفعية الساحلية من كاليه في اتجاه دوفر، وتحت حماية مدفعية قوية على طول الساحل الفرنسي المقابل للمضيق، كانت خطة البحرية تقضي بإقامة نطاق ضيق عبر المانش في أقصر مسافة ممكنة وإحاطته من الجانبين بسياج من الألغام مع قيام الغواصات بحماية خارجية، وكان من المتفاهم عليه أن ينقل الجيش في مراكب عبر القنال على أن تمونه سلسلة طويلة من الإمدادات، وإلى هنا ينتهي دور الأسطول الألماني. وعلى قيادة الجيش معالجة بقية المشكلة.

فإذا قدرنا أنه كان في استطاعتنا بفضل تفوقنا البحري الهائل أن نقضي على حقول الألغام بالقطع البحرية الصغيرة تحت ستار قوة جوية ماهرة وضرب الغواصات المحتشدة من الجانبين لحماية الحقول لاتضح لنا أن هذه الخطة كانت خطة متداعية منذ بدايتها، وكان في استطاعة أي إنسان يعرف أنه بعد انهيار فرنسا لم يكن هناك مفر من امتداد أجل الحرب وتزايد الأخطاء إلا إذا اضطرت بريطانيا إلى التسليم. وكان الأسطول الألماني قد تأثر بمعركة النرويج ولم يعد في إمكانه، بوضعه الحالي، أن يقدم إلى الجيش إلا بمساعدة جزئية ضئيلة، ومع ذلك فقد جهز الأسطول خطة ولم يكن في إمكان أحد أن يقول أن حسن الحظ قد هبط عليه فجأة. وكانت القيادة العليا الألمانية قد اعتبرت غزو إنكلترا في بادئ الأمر شيئاً يثير القرف في النفوس، ولم تكن قد دبرت أية خطط أو استعدادات لتنفيذه، كما لم يتلق جنودنا تدريباً على العمليات الخاصة به. لكنه بعد أن توالت أسابيع من نشوة الانتصارات الرائعة وجدت القيادة في نفسها الجرأة والشجاعة للقيام بأية مهمة. ولم يكن اقتحام البحر بأمان مسؤولية تتعلق برجال القيادة من الناحية الإدارية ولكنهم كانوا على ثقة من أن الجيش إذا بلغت قواته الضخمة شاطئ بريطانيا في سلام وأمان فإن مهمة إحراز النصر على بريطانيا تصبح أمراً يسيراً.

وقد شعر الأميرال رايدر في شهر آب بوجوب الانتباه إلى أن عبور القنال يتضمن مخاطر كبيرة، وإلى إمكانية فقدان الجيش كله في هذه المحاولة.

وعندما تولى الأسطول مهمة نقل الجيش العابر، أصبحت البحرية الألمانية تدور في حلقة مفرغة من القلق المستمر، وقابل قادة الأسلحة

الثلاثة الفوهرر في 21 تموز، فأبلغهم أن الحرب قد شارفت على المرحلة الفاصلة إلا أن إنكلترا لا ترغب في الاعتراف بذلك، وما زالت تأمل أن تدور عجلة القدر ... ثم تحدث عن الإمدادات التي تصل إلى إنكلترا من الولايات المتحدة، كما أشار إلى احتمال تبدل في العلاقات السياسية في ألمانيا وروسيا. واستطرد قائلاً أن تنفيذ عملية "أسد البحر" الخطة الأكثر جدوى في التعجيل بنهاية الحرب، وبعد حديث طويل مع الأميرال، بدأ هتلر يكشف خطورة ما تخفيه عمليات عبور المانش بما فيه من تيارات ومد وجزر، وبما في البحر من غموض. ثم وصف عملية "أسد البحر" بأنها عملية في منتهى الجرأة والمغامرة واستطرد يقول: "وبالرغم من قصر المسافة فإن العملية ليست مسألة اجتياز نهر، لكنها اقتحام بحر كبير يسيطر العدو عليه. وليست العملية إجراء فردياً في العبور، كما حدث في النرويج، إذا لم تكن هناك عناصر المفاجأة، ولكننا هنا سنواجه عدواً مستعداً للدفاع وقد صمم على القتال وفرض سيطرته على المنطقة البحرية التي يجب علينا استخدامها، وستقتضينا عملية الجيش نحواً من أربعين فرقة وربما يكون نقل الإمدادات أصعب شيء في هذه العملية، إذ ليس في مقدورنا أن نعتمد على أي نوع من المؤن يتيسر لنا الحصول عليه داخل إنكلترا، وكان الأساس الأول في نجاح الغزو هو السيطرة الكاملة في الجو واستخدام مدفعية قوية في مضيق دوفر والحماية عن طريق الألغام ..." ثم تابع هتلر حديثه بقوله "والطقس عامل حيوي أيضاً، فهو في بحر الشمال وفي المانش يشتد في النصف الثاني من شهر أيلول، كما يتكاثف الضباب في منتصف شهر تشرين الأول لذلك يتحتم علينا إنهاء عملية الغزو قبل الخامس من أيلول، فبعد هذا التاريخ يصعب علينا أن نضمن قيام تعاون بين الطيران والأسلحة الثقيلة، فهذا التعاون من الطيران يعتبر

عملاً هاماً وحاسماً في تحديد الموعد.

وقد نشب نقاش حاد تخلله شيء من العنف بين أركان الحرب الألمان، حول عرض الجبهة وعدد المراكز التي يجب أن تهاجم، وقد طلب الجيش أن تتم سلسلة من عمليات الإنزال على طول الساحل الجنوبي لإنكلترا الذي يمتد من دوفر إلى "لايم ريجيز" إلى القرب من بورتلاند. وطالب بإنزال قوات مساعدة في رامسجيت إلى الشمال من دوفر. وأعلن أركان البحرية أن أصلح مكان للعبور هو المكان الواقع ما بين فورلاند الشمالية وجزيرة وايت. وعلى هذا الأساس جرى تجهيز مائة ألف جندي لإنزالهم في هذه المنطقة على أن يلي ذلك مائة وستين ألف جندي آخرين في أماكن أخرى تمتد من دوفر غرباً إلى خليج لايم. وأعلن الجنرال هود رئيس الأركان أنه من المحتم إنزال أربع فرق على الأقل في منطقة برايتون، كما طالب بإنزال قوات إضافية بين ريل ورامسجيت على أن يجري توزيع ثلاثة عشر فرقة أن أمكن وفي وقت واحد في أماكن متعددة على طول الجبهة، كما طلب سلاح الطيران سفناً كافية لتنقل اثنين وخمسين مدفعاً من المدافع المضادة للطائرات مع حملة الإنزال الأولى.

لكن رئيس أركان البحرية بين استحالة القيام بعمليات واسعة وسريعة كهذه العمليات، قرر أنه لا يستطيع عملياً حراسة أسطول الإنزال في هذه المسافة الممتدة من البحر، وإن على الجيش اختيار أفضل مكان ضمن هذه الحدود المذكورة. إذ ليس لدى الأسطول قوة لحماية أكثر من عملية عبور واحدة في وقت واحد، حتى لو كانت لنا السيادة على الجو، وهو يرى أن أضيق مكان في مضايق دوفر هو أكثرها سهولة من ناحية الحماية بطلب نقل المائة والستين ألف جندي في المرحلة الثانية في عملية واحدة

وهذا يحتاج إلى ألف سفينة تبلغ حمولتها مليون طن. ثم أضاف رئيس أركان البحرية أنه حتى في حالة توفر هذا العدد الخيالي فإن موانئ الإبحار لا تستطيع استيعاب مثل هذا العدد الضخم، أما ما يمكن عمله فهو القيام بنقل الفصائل الأولى من الفرق الأربع لتشييد رؤوس جسور ضيقة على أن تقوم بنقل الفصائل الباقية المتوجب إنزالها لنجاح العملية. وأشار أيضاً إلى أن الإنزال على جبهة واسعة يعني إيجاد فرق في أوقات المد العالي بين مختلف الأماكن المختارة يتراوح بين الثلاث ساعات والخمس ساعات ونصف. وعلى هذا يتوجب أن نختار بين أمرين: أما أوضاع المد غير المناسبة في بعض الأماكن وأما الرجوع عن فكرة إنزال القوات في مناطق مختلفة في وقت واحد. وكان الرد على هذا الاعتراض من المد للصعوبات. ومر وقت طويل ضاع خلال تبادل المذكرات ... وأخيراً التقى الجنرال هولدر ورئيس أركان البحرية في اجتماع بينهما لأول مرة عقد في 17 آب، وقال هولدر في هذا الاجتماع: "إني أرفض اقتراحات الأسطول رفضاً قاطعاً، فمن وجهة نظر الجيش تعتبر العملية بهذا الوضع انتحارية. إذ أن إرسال القوات بالشكل الذي اقترحتموه معناه إلقاؤها في مفرمة اللحم، تماماً كما نلقي اللحم في المفرمة." وأجابه رئيس أركان البحرية بقوله أنه هو أيضاً لا يمكنه قبول فكرة النزول على جبهة واسعة، إذ أن ذلك لا يعني إلا شيئاً واحداً، هو التضحية بالجنود أثناء عبورهم، وتم الوصول، أخيراً، إلى حل وسط قام به هتلر نفسه ولم يقتنع الجيش أو البحرية، فقد صدر الأمر من القيادة العليا في السابع والعشرين من شهر آب يقضي بأن على عملية الجيش أن تتسق والحقائق التي توجبها شروط الحمولة المحدودة في البواخر وسلامة العبور والإنزال. وقد تم نبذ فكرة النزول في منطقة ريل رامسجيت، ولكن تقرر أن تمتد الجبهة من فولكستون إلى

بوجور. وهكذا لم يتم الاتفاق النهائي قبل نهاية شهر آب، فكل شيء بالطبع متوقف على النصر والتفوق في المعركة الجوية الناشبة منذ ستة أشهر ...

وتم تجهيز الخطة النهائية على ضوء طول الجبهة التي جُددت في النهاية كما عهد بالقيادة العسكرة إلى رونشتادت، لكن النقص في عدد السفن قلل من عدد القوات فأضحت ثلاث عشرة فرقة أساسية واثنتي عشرة فرقة أخرى احتياطية، وتم القرار على إبحار الجيش السادس عشر من المرافئ الواقعة بين بولون وروتردام، وأن تنزل بالقرب من هايث وهيسنجر وايستبورن، على أن يبحر الجيش التاسع من المرافئ الواقعة بين بولون والهافر وأن يهاجم المناطق بين برايتون دورتيج. وقد جهزت الخطة على أساس الاستيلاء على دوفر من ناحية البر وأن يزحف الجيشان بعد ذلك على الخط الممتد من كانتربوري إلى أشفورد فيفيلد واروندايل، كما تنزل إحدى عشرة فرقة في المراحل الأولى فقط. وتمنت القيادة العليا الألمانية أن تتمكن القوات المهاجمة في الأسبوع الأول من التقدم إلى جريفسن وريفيت وبورفيلد وبورتسماوث، وأن يقف الجيش السادس الاحتياطي على أهبة الاستعداد لتعزيز القوات المهاجمة أو لتوسيع رقعة الهجوم إذا قضت الظروف إلى ديماوث. ولا ريب أن القيادة الألمانية لم تفتقر إلى الجنود الشجعان المسلحين أحسن تسليح افتقارها إلى سفن للنقل ولسلامة العبور.

ووقع عبء المرحلة الثقيل في الهجوم على أركان البحرية، ولم يكن في حوزة ألمانيا ما يزيد على حمولة مليون ومائتي ألف طن من السفن المجهزة تجهيزاً كاملاً ونقل القوات الغازية يحتاج إلى أكثر من ضعف هذه الحمولة، كما يؤدي إلى الكثير من المشكلات الاقتصادية. وعندما حل شهر أيلول تمكنت القيادة البحرية من أن تعلم أنها استطاعت أن تضع

يدها على 168 باخرة مجموع حمولتها سبعماية ألف طن و 419 قاطرة وسفن لصيد الأسماك و 1600 زورقاً بحرياً. وكان بالإمكان نقل هذا الأسطول العتيد بعد تجهيزه في بواخر مجموع حمولتها سبعمائة ألف طن و 419 قاطرة وسفن لصيد الأسماك) وفي اليوم الأول من أيلول بدأت عملية اندفاع الملاحة الضرورية للغزو جنوباً وكانت قواتنا الجوية تراقبها وترصد تحركاتها وتقصفها بعنف على طول الجبهة من انتوبرب إلى الهافر. وسجلت أركان البحرية الألمانية إن دفاعنا المستمر من الساحل وتركيز غارات طائراتنا على مرافئ إبحار سفن عملية "أسد البحر" ومواصلة أعمال الاستكشاف توحي جميعها بأننا على علم بالغزو القريب.

وذكرت تقارير أركان البحرية الألمانية أيضاً، أنه ما زالت الطائرات البريطانية من قاذفات للقنابل وطائرات لبث الألغام تواصل أعمالها بصفة دائمة، وعلينا أن نقر أن غارات الطائرات البريطانية كانت موفقة وإن لم تكن فاصلة في عرقلة نقل السفن الألمانية إلى المرافئ.

وبالرغم مما حدث من تدمير وتعويق فقد استطاعت البحرية الألمانية إتمام الجزء الأول من مهمتها الخطيرة، ولم تتجاوز خسائرها العشرة في المئة من مجموع قوة الغزو الكاملة، وهي نسبة أقل بكثير مما قدرته القيادة الألمانية، أما ما تبقى على أهبة الاستعداد فلم يكن بأقل من الحد الأدنى الذي قدرت القيادة حتمية وجوده للقيام بالمرحلة الأولى من العملية. وقد ألقى الجيش والأسطول الألماني العبء كله على عاتق السلاح الجوي، وكانت حماية الممر بما يلازمها من بث الألغام التي بمثابة الأسوار موكلة إلى السلاح الجوي الألماني ضد التفوق الظاهر لعمليات المدمرات البريطانية والسفن الصغيرة. أي أن الخطة كانت قائمة على إلحاق الهزيمة بالطيران الإنكليزي والسيطرة المطلقة لألمانيا على الجو، لا فوق المانش

وجنوب شرقي آسيا فقط بل فوق مناطق العبور والإنزال كذلك. وهكذا أوكل السلاحان الألمانيان القديمان مهمة الخطة إلى ماريشال الرايخ غورنغ.

وقد رحب غورنغ بقبول هذه المهمة، لثقته المطلقة بالتفوق العددي للطيران الألماني، وأنه لن تمضي أسابيع معدودة من القتال الشديد حتى تنزل الهزيمة المنكرة بالدفاع البريطاني ويتم تدمير مطاراته في كنت وسكس ومن ثم تسيطر ألمانيا على المانش ... وقد ظن غورنغ أيضاً أن قصف إنكلترا من الجو وخاصة العاصمة لندن سيدفع بالشعب البريطاني المنحل الذي يفضل العافية إلى الرضوخ وطلب الصلح، هذا بالإضافة إلى أن نذر الغزو وكانت قد بدت في الأفق القريب لكن البحرية الألمانية لم تجارية في تفاؤله هذا وكانت شكوكها عميقة الجذور. لأن عملية "أسد البحر" لا يمكن إلا أن تكون إجراء أخيراً، فأوصت في شهر تموز بتأجيلها حتى ربيع عام 1941، إلا إذا أجبرت الغارات الجوية وحرب الغواصات الرهيبة الإنكليز على مفاوضة الفوهرر بالشروط التي يفرضها، أما الفيلد مارشال كايتل والجنرال يودل فقد كانا مغتبطين من تفاؤل قائد الجو الأعلى غورنغ.

لقد عاشت ألمانيا أياماً مجيدة رائعة انتشى فيها هتلر بخمرة النصر قبل أن تذل له فرنسا في هدنة كومبين، وسار الجيش الألماني الظافر تحت أقواس النصر وعبر الكاب. فهل بقي هناك شيء يعجزون عن تنفيذه؟ فلم التردد إذن في الإقدام على مجازفة مضمونه؟ وهكذا فإن الأسلحة الثلاثة التي تشترك في إنفاذ عملية "أسد البحر"، لفتت نظر كل منها إلى الجانب المضيء في الدور الذي ستقوم به وترك الجانب المظلم إلى الآخرين.

وبمرور الأيام تضاعفت الشكوك وقامت العراقيل، وكان قرار هتلر الصادر في 16 تموز قد حدد إنهاء جميع الاستعدادات قبل منتصف شهر آب لكن كافة الأسلحة وجدت أن تنفيذ هذه الخطة في الوقت المحددة غير ممكن. وقبل هتلر في نهاية شهر تموز تحديد موعد 15 أيلول كموعد مبكر للغزو، بينما أجل قراره الأخير القاضي بتحديد موعد البدء في العمل حتى تتضح نتائج معركة الجو التي حمي وطيسها ...

وأبلغت البحرية في 30 آب القيادة العليا، أن استعدادات أسطول الغزو يستحيل أن تتم في 15 أيلول بالنسبة للإجراءات المضادة التي أقدمت عليها بريطانيا وعلى هذا تأجيل البدء في الغزو حتى 21 أيلول مع اشتراط عشرة أيام كإنذار مسبق، وهذا يعني ضرورة إصدار الأمر الأول في 11 أيلول. وأبلغت البحرية مرة أخرى في العاشر من أيلول القيادة العليا مدى الصعوبات الكثيرة التي تجابهها نتيجة لرداءة الطقس وأعمال بريطانيا المضادة، وبالرغم من أن التجهيزات البحرية المطلوبة قد تتم فعلاً قبل 11 أيلول، إلا أن الشرط الأساسي الذي يحتم السيطرة المطلوبة قد تتم فعلاً قبل 11 أيلول، إلا أن الشرط الأساسي الذي يحتم السيطرة المطلقة على جو القنال لم يتحقق بعد. وقد أدى ذلك إلى أن أصدر هتلر قراره في 11 أيلول بتأجيل صدور الأمر التمهيدي لثلاثة أيام أخرى. وبذلك يكون الغزو قد تأجل إلى الرابع والعشرين، كما تأجل مرة ثانية في الرابع عشر ثلاثة أيام أخرى وفي السابع عشر من أيلول تأجل إصدار هذا الأمر إلى أجل غير مسمى لأسباب هامة في نظرهم ونظرنا أيضاً.

وقد علمنا من الأخبار الواردة إلينا في 7 أيلول أن تحركات السفن الصغيرة ما زالت مستمرة في الغرب وفي الجنوب، ولما كانت هذه

المرافئ تحت وطأة الغارات البريطانية القاسية فقد كان من المعقول ألا تنتقل إليها السفن الكبيرة إلا قبيل الغزو، وتضاعفت القوة الضاربة للسلاح الجوي الألماني بين أمستردام وبريست حتى بلغت مائة وستين قاذفة قنابل وصلت من النرويج إلى هذه المنطقة، كما رأينا مجموعات من طائرات الانقضاض ذات المدى القصير في المطارات الأمامية الواقعة في خليج كاليه وقد اعترف أربعة من الجواسيس الألمان الذين تم اعتقالهم قبل مضي بضعة أيام من نزولهم من أحد زوارق التجديف على الساحل الجنوبي والشرقي من إنكلترا أنهم جاءوا ليكونوا على استعداد في أية لحظة أثناء الأسبوعين القادمين، وليرسلوا بتقارير خاصة عن تحركات الوحدات البريطانية الاحتياطية في ايبويس ولندن وريدنج وأوكسفورد. وكانت أوضاع القمر والمد بين الثامن والعاشر من شهر أيلول مناسبة للغزو من الساحل الجنوبي الشرقي. لذلك قرر رؤساء أركان الحرب عندنا أنهم يتوقعون الهجوم في أية لحظة، وإن على قواتنا الدفاعية أن تقف على أهبة الاستعداد لمواجهة أي طارئ عاجل.

ولم يكن في القيادة العامة حينذاك جهازاً يستطيع إعلان حالة الطوارئ المحددة، ومع ذلك فقد صدرت كلمة السر "كروmويل" التي يقصد بها أن عملية الغزو محتملة في أية لحظة، صدرت الكلمة إلى القوات في الساعة الثامنة من مساء السابع من شهر أيلول، وإلى القيادتين الجنوبية والشرقية، للعمل الفوري السريع للفرق الساحلية الأمامية، وجميع الوحدات في منطقة لندن، وإلى الفيلقين الرابع والسابع من قوات الاحتياط التابعة للقيادة.

وتكررت الكلمة إلى جميع القيادات الأخرى، للعلم بها فقط، في جميع أنحاء المملكة المتحدة، وعندما وصلت هذه الكلمة إلى قادة الحرس

الوطني في بعض أنحاء البلاد، قاموا بدافع من أنفسهم باستدعاء قوات الحرس لدق أجراس الكنائس. ولم أكن أنا ورؤساء أركان الحرب قد علمنا بأن كلمة "كرومويل" قد استخدمت فعلاً، ولذا فقد صدرت أوامرنا في الصباح التالي بضرورة إيجاد مراحل انتقالية يتضاعف فيها الحذر في المناسبات المُقبلة دون إعلان أن الغزو قد حدث، وفي استطاعة كل إنسان أن يتخيل ما أثاره هذا الحادث من هرج ومرج وفوضى، وإن لم يشر إليه سواء في الصحف أم في البرلمان ... وعلى كل فقد كان هذا الحادث إشارة تدريب لكل من يعنيهم الأمر.



والآن وبعد أن تتبعنا مراحل إعداد القيادة الألمانية العليا حتى وصلت إلى القمة، فقد أصبح في مقدورنا أن نعرف كيف تغير الموقف من الزهو بالانتصار المبكر إلى قيام حالة من الشك، ثم إلى فقدان كل ثقة في النتيجة، وقد شاهدها القائد البحري وأيدر في شهري تموز وآب وحاول ما استطاع تثقيف زملائه من قادة البحر والجو وتبصيرهم بمتاعب الحرب البرمائية الواسعة النطاق ومشقاتها، فقد أحس الأميرال بضعفه واحتياجه إلى عامل الوقت لاستكمال المعدات، وإن كان تنفيذ الخطة الواسعة النطاق التي وضعها هولدر هي إنزال قوات ضخمة في وقت واحد في منطقة مترامية الأطراف، وكان غورنغ بخياله الجامح مصراً في الوقت نفسه على إحراز النصر الساحق بقواته الجوية وحدها وأبى أن يساهم بدور متواضع في الإعداد لخطة مشتركة تهدف إلى تحفيز قوات المقاومة.

ويتضح من الوثائق والسجلات إن القيادة الألمانية العليا لم تعمل بانسجام وتعاون في سبيل الهدف المشترك ولم تواجه مشاكل الأسلحة

المختلفة. فقد كان الاحتكاك فيما بينهما واضحاً منذ البداية، وطالما كان في مقدور هولدر أن يلقي بالمسؤولية على كاهل رايدر فإنه لم يحاول أن يوجد الانسجام بين خططه الشخصية وبين الإمكانيات العملية، وكان من المحتم أن يتدخل هتلر، وقد تدخل بالفعل لكن تدخله لم يعمل على تحسين العلاقات بين القوات المسلحة، وكانت سمعة الجيش في ألمانيا قد ارتفعت إلى ما فوق السحب، وكان القادة العسكريون ينظرون بتعال إلى زملائهم من قادة البحرية.

وقد يكون من الصعب على أي إنسان أن يقاوم الأدلة التي تنهض على تأكيد أن الجيش الألماني لم يكن راضياً عن وضعه تحت إشراف البحرية في عملية رئيسية كهذه وعندما سئل الجنرال يودل بعد انتهاء الحرب عن هذه الخطط أجاب وهو نافذ الصبر "كانت خططنا تشبه تماماً الخطط التي وضعها يوليوس قيصر.

وربما يكون في هذا القول الصادر عن جندي ألماني موثوق به بالنسبة لعمليات البحار، ما يلقي الضوء على أن الجندي الألماني لم تتضح في ذهنه المشكلات الخاصة بعمليات الإنزال والأخطاء الناجمة عن نقل قوات بحرية كبيرة وتوزيعها على ساحل قد أجيد الدفاع عنه.

أما نحن في بريطانيا فضلاً عما كنا نعانيه من نقص، فقد خبرنا البحر ووقفنا على مشكلاته، فالبحر منذ قرون عديدة جزء من كياننا، وتقاليده لا تستثير بحارتنا فحسب بل الشعب البريطاني بأسره. ولعل هذا التفهم هو الذي مكنا أكثر من أي عامل آخر من النظر إلى خطر الغزو بكل ثقة وهدوء. وقد خضع التخطيط الذي وضعناه لإشراف رؤساء أركان الحرب الثلاثة برئاسة وزير الدفاع مما أدى إلى إيجاد نظام متناسق

ككتلة واحدة وإلى التعاون التام الذي لم نر له مثيلاً في الماضي وإلى التعرف المتبادل إلى كافة المصاعب. وعندما آن الأوان لنبدأ نحن في عمليات غزو عظيمة واسعة النطاق من البحر، كان عملنا آنذاك مرتكزاً على أساس وطيد من الاستعداد الشامل لأداء العمل ومن الإحاطة الكاملة بكل الاحتياجات التكميلية للإقدام على مشروعات واسعة لها هذه الدرجة الكبرى من الخطورة.

ولو كان للألمان في عام 1940 قوات برمائية جيدة التدريب مستكملة مختلف المعدات الحربية البرمائية الحديثة لما قدر لمهمتها النجاح أمام قواتنا البحرية والجوية، والألمان لم يكن لديهم شيء من ذلك لا من ناحية المعدات ولا من ناحية التدريب وهما عاملان ضروريان في مثل هذه الحرب. وكلما زادت رغبة هتلر والقيادة العليا في المغامرة ضعفت آمالهم فيها، ولم يكن في استطاعتنا أن نصل إلى معرفة أوضاع بعضنا البعض وتقديرات كل منا، ولكن كلما مر أسبوع ابتداء من أواسط تموز وانتهاء منتصف أيلول كان الغموض الذي يكتنف الموقف بالنسبة للبحرية البريطانية والألمانية وللقيادة العليا الألمانية ورؤساء أركان الحرب البريطانية وبالنسبة لهتلر ولمؤلف هذا الكتاب ينجلي رويداً رويداً. ولو قدر لنا الاتفاق على نفس المستوى في القضايا الأخرى لما وجدت ضرورة لقيام حرب، فقد اتفقنا بادئ ذي بدء على أن المصير سيتقرر في الجو، كان السؤال الذي يعرض لنا ولهم في وقت واحد هو كيف ستنتهي هذه المعركة الدائرة في الجو؟ وكان الألمان يتساءلون هل يصمد الشعب البريطاني لنيران الغارات الجوية التي كان تأثيرها قد بولغ في تقديره في تلك الأيام؟ أو أنه سينهار تحت وطأتها ويفرض على حكومته الاستسلام. وكان ماريشال الرايخ ذا أمل كبير وثقة بالنتيجة بينما كنا نحن لإنهابها.

الفصل الثامن

معركـــة بريطانيـــا

يتحدث تشرشل في هذا الفصل عن معركة بريطانيا الكبرى فيقول:

ذكرنا سابقاً أن مصيرنا أصبح مرتبطاً بإحرازنا النصر الجوي، وإن القادة الألمان قد أدركوا أن نجاح عملية غزوهم لبريطانيا يتوقف على السيطرة الجوية في سماء القنال، وفي بعض الأماكن على الساحل الجنوبي لبلادنا، على أنه لم يكن في مقدور الألمان القيام باستكمال استعداداتهم في مرافئ الإبحار، وحشد سفن النقل، وتطهير المعابر من الألغام ثم القيام ببث ألغام أخرى دون أن تكون لديهم الوقاية من غارات السلاح الجوي البريطاني. أي أن الأمر الفصل كان للسيادة الجوية في سماء مناطق العبور والإنزال ومن أجل هذا كان لا بد من تدمير السلاح الجوي الملكي وسائر المطارات الممتدة على طول الطريق بين لندن والبحر، ونحن نعلم الآن من الوثائق التي حصلنا عليها أن هتلر أبلغ الأميرال رايدر في 31 تموز: "إنه إذا لم يتمكن سلاحنا الجوي من القيام بعملية تدمير المطارات العدوة بالإضافة إلى موانئه وقواته البحرية خلال مدة ثمانية أيام، فإن عملية الغزو ستتأجل بالضرورة حتى أيار من العام المقبل". وهذه المعركة التي كان علينا أن نخوض غمارها، على أني لم أحس بخوف لحظة واحدة – ولو عن طريق التصور – من التجربة العظمى التي كنا نواجهها، وكنت في الرابع من حزيران قد أدليت للبرلمان ببيان هذا نصه:

"إن الجيش الفرنسي العظيم قد اضطر إلى التراجع، واضطرب حل

أموره نتيجة الهجوم الذي قامت به بضعة ألوف من السيارات المدرعة فلا يدافع عن قضية الحضارة بضعة ألوف من الطيارين بمهارتهم وإخلاصهم!! وأرسلت إلى سمطس في 9 حزيران الثاني أقول وأني أرى الآن بوضوح أن هتلر بشكل قاطع سيشن هجوماً على هذه البلاد، فيدمر سلاحه الجوي في هذا الهجوم".

والآن جاءت الظروف مواتية ...

ولا شك أن كتباً كثيرة قد صدرت لتوضح مدى الصراع الجوي بين السلاحين البريطاني والألماني، وهو الصراع الذي يكون معركة بريطانيا، وقد استطعنا الآن التعرف إلى آراء القيادة الألمانية العليا، وإلى ردود الفعل لديها في المراحل المتباينة، ويظهر أن خسائر الألمان في بعض المعارك الرئيسية، كانت أقل بكثير مما خيل إلينا، وأن تقارير الجانبين في وقتها كانت تتسم بكثير من المغالاة، ولكن لم يكن هناك خلاف على الخطوط الرئيسية لذلك الصراع المعروف الذي كانت تتوقف عليه حياة بريطانيا وحرية العالم قاطبة.

كان السلاح الجوي الألماني قد التحم في معركة فرنسا بكل ما لديه من قوة واضحة في حاجة إلى الراحة بعد هذا القتال، تماماً كما حدث للأسطول الألماني بعد معركة النرويج، كذلك كان الأمر بالنسبة لنا إذ أن ثلاثة أسراب من مجموع كل أربعة من أسراب طائراتنا المحاربة كانت قد أسهمت في وقت أو آخر في معارك القارة، ولم يكن في مقدور هتلر إلا أن يعتقد أن بريطانيا سترحب بعرض للصلح، بعد انهيار فرنسا.

وكان هتلر يشبه في ذلك المارشال بيتان وفيجان وغيرهما من القادة الفرنسيين العسكريين والسياسيين، الذين لم يدركوا ما لدى دولة تقوم

في جزيرة من موارد مستقلة وما حبتها الطبيعة به من شمم. لقد كان من شأنه شأن هؤلاء الفرنسيين الذين استهانوا بعزيمتنا وارداتنا، وقضى هتلر شهر حزيران في تحوير الأوضاع لتتمشى مع الأحوال التي وجد نفسه فيها تدريجياً، وفي خلال ذلك كان الطيران الألماني يقضي فترة من النقاهة وإعادة التنظيم استعداداً للمهمة الجديدة، ولم يكن ثمة شك في خطر هذه المهمة، إذ كان على هتلر أن يختار واحدة من اثنتين، إما أن يغزو إنكلترا ويحتلها أو يخوض غمار حرب طويلة الأمد، تنطوي على كثير من الأخطار والمشكلات، على أن احتمال نصر جوي يقضي على المقاومة البريطانية كان ماثلاً في أذهانهم مما يجعل الغزو الفعلي أمراً غير محتم إلا باحتلال بلاد مغلوبة على أمرها. واستطاعت القوة الألمانية الجوية خلال شهر حزيران ومطلع شهر تموز أن تنظم نفسها وتبث النشاط والحيوية في صفوفها، وأن تنتشر في جميع المطارات الفرنسية والبلجيكية التي يحتمل بدء الهجوم منها، واستطاعت الغارات الاستطلاعية والتجريبية الوقوف على حقيقة المقاومة التي ستجابهها ومدى طاقتها.

وشرعت في 10 تموز بشن أولى هجماتها الضخمة الكبيرة التي تعد بحث بدء معركة بريطانيا، وهناك تاريخان مهمان يرتفعان أيضاً في هذه المعركة هما 15 آب و 15 أيلول، وكانت ثمة مراحل ثلاث متتابعة ومتداخلة في الوقت ذاته حين الغزو الألماني، وقد اتسمت المرحلة الأولى بين 10 تموز و 18 آب بالتركيز على القوافل البريطانية في المانش وعلى الموانئ الجنوبية الواقعة بين دوفر وبلايموث حيث تقرر حصر سلاح الطيران البريطاني وإيقاعه في معركة حاسمة والقضاء عليه، وكذلك تدمير الموانئ التي تقرر النزول فيها. وفي المرحلة الثانية الواقعة بين 24 آب و 27 أيلول كان من المحتم تمهيد الطريق إلى لندن وذلك بتحطيم

السلاح الجوي البريطاني ومنشآته لتأمين الهجمات المتواصلة العنيفة على العاصمة وقطع طرق المواصلات من الشواطئ المهددة بالغزو. أما غورنغ فلا شك أنه كان يرى في هذه الغارات غرضاً أكبر وهدفاً أبعد وهو إحداث الاضطراب الكامل في أكبر مدن العالم وشل حركتها، وإيقاع الفزع الأكبر في بريطانيا حكومة وشعباً، واضطرارهما أخيراً إلى الخضوع لإرادة ألمانيا، واتجه أمل الجيش الألماني والأسطول إلى الرغبة في أن يكون غورنغ مصيباً فيما رآه، ولكن مع مرور الوقت، وتغير الأحوال رأى قادة السلاحين أن السلاح الجوي البريطاني لم يقض عليه، وأن أمهلهم في عملية "أسد البحر" قد تبدو في سبيل تحقيق ما أراده غورنغ من تدمير لندن، وأخيراً عندما انتابتهم خيبة أمل في كل شيء، وعندما تأجل الغزو إلى أجل غير معلوم لأن الشرط الحيوي الأساسي وهو السيطرة على الجو لم يتحقق، بدأت المرحلة الثالثة والأخيرة. فقد تبدد حلمهم في النصر الذي بدا كسراب خادع وسلاح الطيران البريطاني ما زال حياً، مما حدا بغورنغ في شهر تشرين الأول أن يقوم بشن غارات عمياء رعناء على لندن وغيرها من مراكز الإنتاج الصناعي.

ليس هناك وجه للمقارنة بين طائراتنا المقاتلة وطائراتهم، فالطائرات الألمانية أسرع وأقدر على الارتفاع، أما طائراتنا فأقدر على المناورات وأفضل تسليحاً، وكان طيارو ألمانيا على ثقة من تفوقهم العددي، كما كانت الانتصارات التي أحرزوها في بولندا والنرويج والأراضي المنخفضة وفرنسا تشعرهم بالعزة والكبرياء. أما طيارونا فكانوا واثقين بتفوقهم الشخصي، وكانوا يتحلون بتلك العزيمة التي تعتبر من صفات الشعب البريطاني وتبدو في وقت الأزمات والعواصف. وقد كان الألمان متمتعين بمزية إستراتيجية هامة، أحسنوا استغلالها. فقد توزعت قواتهم وانتشرت في جبهة واسعة

للغاية، وكان في وسعها أن تشن هجمات علينا بأعداد كبيرة مع اتخاذ كافة الوسائل لتشتيت أفكارنا حتى لا يتسنى لنا أن نعرف مواقعهم الحقيقية، وكان الطيران الألماني قد جمع في شهر آب 2669 طائرة بينها 1015 قاذفة قنابل، و 346 طائرة من طائرات الانقضاض. وأصدر الفوهرر في 5 آب أمراً يحمل الرقم 17 يقضي بتوسيع جبهة الحرب الجوية ضد بريطانيا، ولم يكن غورنغ واثقاً من عملية "أسد البحر"، بل ركز اهتمامه على الحرب الجوية "المطلقة" ولم تكن هذه القيادة تعتبر تحطيم سلاحنا الجوي الهدف الأساسي بل تعتبر تحول الحرب الجوية بعد بلوغها الذروة إلى شن الهجوم الشامل على بوارجنا وسفننا. وقد عبرت هذه القيادة عما تشعر به من أسف لأن غورنغ لا يهتم كثيراً بتركيز غاراته على الأهداف البحرية، كما أحنقها التأجيل المتكرر للغارات الجوية. وفي 6 آب أبلغت القيادة البحرية القيادة العامة بأن بث الألغام في بحر المانش أصبح من المتعذر القيام به نتيجة لضغط التهديد البريطاني المتواصل في الجو، وقد تركز القتال الجوي المتواصل طيلة شهر تموز ومطلع شهر آب على قاعدة "كنت" البحرية وساحل القنال، وقد تأكد غورنغ ومستشاروه إن غاراتهم قد شغلت كل أسرابنا المقاتلة في ميدان المعركة في الجنوب، فقرروا القيام بغارة في وضح النهار على مدننا الصناعية الواقعة في الشمال، وكانت المسافة تعد طويلة على مقاتلاتهم من الطراز الأول وهي (المسرز شميث 109) فاضطروا إلى المغامرة بطائراتهم القاذفة على أن تصحبها طائرات (المسرز شميث 110) وهذه بصرف النظر عن مقدرتها على الطيران إلى مسافات أبعد، فهي غير مجهزة بأسلحة القتال، وهو أمر له أهميته في هذا الوقت، ومع ذلك فقد نجحت المغامرة.

وهكذا قامت في الخامس عشر من آب نحو مائة قاذفة قنابل، وأربعون

طائرة مسرز شميث 110، بشن هجوم على مدينة تاينيسان، وفي الوقت نفسه كانت أكثر من ثمانماية طائرة تشن هجوماً على قواتنا الجنوبية لحصرها في منطقتها، إذ خيل لهم أنها متجمعة في هذه المنطقة. لكن التوزيع الذي وضعه داودنج لطائراتنا المقاتلة بدأ يظهر أثره، فقد كان داودنج يفكر في مثل هذا الخطر فسحب سبعة أسراب من طائرات "الهاريكين" و "السبتفاير" من معركة الجنوب المحتدمة للاستجمام قليلاً ولحماية الشمال في نفس الوقت، وقد أحس رجال هذه الأسراب ببالغ الأسى لابتعادهم عن ميدان الحرب مضطرين، إذ أكدوا لقيادتهم أن القتال لم يجهدهم ولم ينل من نشاطهم، وها هم أولاً يفاجئون بما لا يخطر على بالهم، فقد أصبح في مقدورهم أن يلتقوا بالمهاجمين بعد اجتيازهم الساحل واستطاعوا إسقاط أربعين طائرة ألمانية أغلبها من قاذفات القنابل الثقيلة من طراز (هينكل 111) التي تنقل الواحدة منها أربعين رجلاً مدرباً، ولم يصب طيارينا بأي جراح سوى اثنين. وليس هناك مجال للشك في سعة أفق المارشال داودنج وتفكيره السديد في توجيه الطائرات المحاربة مما يستحق عليه كل ثناء وتقدير، ولكن عظمة هذا الرجل تتجلى في احتفاظه بهذه القوة من طائراتنا المحاربة في الشمال أثناء الأسابيع الطويلة من اشتعال الحرب في الجنوب. وهذا النوع من القيادقت يعد مثلاً على العبقرية في فن الحرب.

وأعقب هذا اليوم الفاصل أن أضحت مدن الشمال في مأمن من الغارات الجوية وبعد يوم 15 آب اليوم الذي بلغ فيه الصراع الجوي أشده، فقد حدثت خمس معارك رئيسية على جبهة مساحتها خمسمائة ميل. كان حقاً يوماً رائعاً، فقد التحمت جميع أسرابنا الاثنين والعشرين في موقعه في الجنوب. وبعضها عاود المعركة مرتين أو ثلاثاً، وكانت خسائر الألمان في الجنوب والشمال قد بلغت ستاً وسبعين طائرة، مقابل أربع وثلاثين

من جانبنا. ولا شك في أن هذا الرقم يعد كارثة بالنسبة للسلاح الجوي الألماني.

وليس هنا مجال للشك في أن قادة الجو الألمان قد هالتهم هذه الهزيمة الساحقة التي انطوت على أسوأ النذر بالنسبة للمستقبل، وكان السلاح الألماني قد ركز اهتمامه في الإغارة على ميناء لندن، ذي الأرصفة الطويلة التي تقف عليها مختلف أنواع البواخر، وإذلال كبرياء المدينة باعتبارها من أكبر مدن العالم وأوسعها، على أن تحديد الهدف لا يهم الطيار مما يجعل مهمته أسهل وأيسر.



قام اللورد بيفربروك خلال تلك الأسابيع الطويلة من القتال المتواصل والقلق الذي لا نهاية له، بمساعدات واضحة، فمن الضروري إدخال تجديد على أسرابنا المقاتلة وتزويدها بطائرات مضمونة، وقد حال ضيق الوقت دون الأخذ والرد والإطالة في البحث والشرح بالرغم من ضرورة ذلك في كل نظام هادئ رتيب. وكانت طباع اللورد بيفربروك مناسبة كل المناسبة للضرورة الملحة، فلقد كانت حيويته ونشاطه من بواعث الإقبال على العمل، وقد اغتبطت لذلك كثيراً فقد اعتمدت عليه ووثقت في مساعدته فلم تخب هذه الثقة مرة واحدة، وها قد دنت الساعة لإظهار عبقريته واستعداده الشخصي مع ما يصحبها من قدرة على الإقناع تمكنه من تذليل شتى الصعاب. وكنا نلقي في جحيم المعركة بكل مواردنا، فقد تدفقت علينا الطائرات الجديدة أو ما تم إصلاحه من أسرابنا التي اغتبطت حينما طالعتها هذه الأعداد الكبيرة غير المتوقعة، وأخذت ورش الصيانة والإصلاح تضاعف من جهدها وقوة طاقتها، حينئذ تجلت لي قيمة الرجل وأهميته فدعوته في الثاني من شهر آب بعد موافقة الملك إلى الاشتراك

في عضوية وزارة الحرب، وفي الوقت نفسه كان ولده الأكبر ماكس اتيكن قد تصدر قيادة الطائرات المقاتلة وأحرز انتصاره السادس.

وكان أرنست بيفن وزير العمل والخدمة الوطنية من الوزراء الذين حرصت على الإكثار من لقائهم في تلك الفترة الحرجة نظراً للمهمة الحيوية التي كان يقوم بها من إدارة اليد العاملة في البلاد، وبعث الحيوية والنشاط فيها. وكان جميع العمال في مصانع الذخيرة مستعدين لتلقي توجيهاته، وانضم هو الآخر إلى عضوية وزارة الحرب في شهر آب. وضحى العمال النقابيون بأرباحهم وحقوقهم التي أحرزوها بعد جهد طويل والتي كانوا يولونها أعظم الرعاية، ضحوا بها من أجل المصلحة الوطنية وهم يرون بقية الثروات والامتيازات والممتلكات التي يملكها الغير قد ضحوا بها هم الآخرين. وكنت أنا على وفاق تام مع بيفر بروك وبيفن في أسابيع الأزمة التي خضناها، وقد وقع خلاف بين الرجلين فيما بعد، وهذا مما يؤسف له فقد نتج عن اختلافهما كثير من الصدام، أما في تلك المرحلة من الكفاح الذي بلغ ذروته، فقد كنا جميعاً نعمل يداً واحدة، وليس في مقدوري إلا أن اثني كل الثناء على ولاء المستر تشمبرلين وثبات جميع الزملاء وكفايتهم، فإلي الجميع تحياتي.

ولم يدرك غورنغ حتى نهاية شهر آب أي أثر سيء للصراع الدائر في الجو، فقد كان على ثقة هو ورجاله من أن المطارات البريطانية وصناعة الطائرات، وقوة سلاح الطيران البريطاني المحاربة قد منيت بكوارث ساحقة، وكانت هناك فترة خلال شهر أيلول تحسن فيها الطقس فازداد أمل السلاح الألماني في إحراز نتائج فاصلة، وامتحنت المطارات حول ندن بغارة جوية عاتية، وقامت ثمان وستون طائرة ليلة 6 أيلول بالإغارة

على لندن تبعها في الليلة التالية هجوم آخر قامت به ثلاثمائة طائرة في وقت واحد، وفي ذلك اليوم كما حدث فيما تلا ذلك من أيام حيث أتممنا تعزيز المدفعية المضادة للطائرات. في ذلك اليوم دارت معارك شديدة ومتواصلة في سماء العاصمة، وكانت القوة الجوية الألمانية توقن بالنتيجة بسبب مغالاتها في تقدير خسائرنا.

وكان ميزان القتال الذي وقع بين 24 آب و 6 أيلول قد رجح ضد طائراتنا المحاربة، فقد اتخذ الألمان في تلك الأيام الفاصلة بصورة مستمرة قوات ضخمة لتشن غارات على مطاراتنا في جنوب إنكلترا والجنوب الشرقي، وكانوا يهدفون إلى تدمير الجهاز الدفاعي عن العاصمة في أثناء النهار التي استبدت بهم اللهفة لمهاجمتها، وكان العمل المتواصل في هذه المطارات ودوام تحركات أسرابنا منها، أكثر أهمية لنا من حماية العاصمة التي منيت بحملات من القصف الجوي، غرضها الأول نشر الرعب وإثارة الفزع. وكانت هذه المرحلة فاصلة في الصراع بين الحياة والموت بالنسبة لكلا الفريقين المتنازعين، ولم نكن نفكر حينذاك بالدفاع عن لندن أو غيرها من المدن بقدر ما كنا نتساءل لمن سيكون النصر؟ وقد ساد قيادة الطائرات المحاربة في (ستاجور) إحساس بالقلق وخاصة في مقر قيادة المجموعة الحادية عشرة في أوكسبريدج، إذ منيت خمسة من مطارات المجموعة الأمامية وستة من مراكز الجبهة بأضرار جسيمة وكذلك محطة قطاع بجين هيل إلى الجنوب من لندن، حتى أن سرباً واحداً هو الذي استطاع العمل وحده مدة أسبوع كامل، ولو استمر العدو في هجماته الثقيلة على الأماكن القريبة وهدم غرف العمليات فيها، وقطع اتصالاتها الهاتفية لاضحت جميع تنظيماتنا الدقيقة في القيادة الجوية معرضة لأشد الأخطار، ولم يكن دليلاً على مجرد توجيه الإساءة إلى لندن بل على وهن

إشرافنا على سمائنا في هذا المكان الحيوي الحساس. وقد فرضت زيادة عدد من هذه المحطات في الثامن والعشرين من آب وخصوصاً مانستون وبجين هيل القريبة من منزلي، كانت المحطتان متداعيتين وطرقهما مملوءة بالحفر، وعندما غير العدو هجومه في السابع من أيلول إلى لندن، أدركت قيادة الطائرات المحاربة هذا التغيير واستشعرت قيادتنا الكثير من الراحة لذلك، وكان على غورنغ أن يستمر في هجماته على مطاراتنا التي تعتمد عليها قوتنا الجوية المحاربة في ذلك الوقت، لكن بتخليه عن قواعد الحرب المألوفة، وما تمليه الروح الإنسانية من قواعد مقررة، ارتكب أجسم الأخطاء وأبشعها. وكانت هذه الفترة الواقعة ما بين 24 آب و 6 أيلول من الأيام التي شقت على قيادة طائراتنا المقاتلة إلى أقصى حد، وكانت القيادة قد منيت بخسارة ما يقرب من مائة وثلاثة من الطيارين خلال أسبوعين بالإضافة إلى مائة وثمانية وعشرين أصيبوا بجراح خطيرة، كما تحطمت حوالي 466 طائرة من طراز الهاريكين والسبيتفاير أو أصيبت بأضرار جسيمة، وإذا اعتبرنا أن عدد الطيارين في قوتنا المحاربة كان في هذه الآونة ألف طيار، بدا لنا أن سلاحنا الجوي قد فقد ربع رجاله تقريباً.

ولم يكن في وسعنا ملء هذا الفراغ الذي نشأ عن فقدانهم، إلا باستحضار مائتين وستين طياراً جديداً ينقصهم التدريب وإن لم تنقصهم الحماسة، نقلوا من وحدات التدريب قبل أن يستكملوا مدتهم الدراسية في كثير من الأحيان، وتسببت الهجمات الليلية على لندن خلال عشرة أيام بعد السابع من أيلول والتي استهدفت الأرصفة ومراكز السكك الحديدة في قتل عدد كبير من المدنيين وإصابة الكثير بجراح، لكنها برغم ذلك اعتبرت بمثابة نعمة هبطت علينا من السماء، أرسلت إلينا على حين كنا في أشد الحاجة إليها لنأخذ أنفاسنا.

وعلينا أن نعتبر الحرب الجوية قد بلغت ذروتها في الخامس عشر من أيلول، فقد شن سلاح الطيران الألماني – بعد غارتين متواليتين في 14 من الشهر نفسه – أكبر هجوم جوي مركز في رائعة النهار على مدينة لندن. لقد صارت إحدى المعارك الفاصلة في الحرب، وقد حدثت في يوم من أيام الأحد كمعركة "واترلو" تماماً، وكنت في ذلك اليوم في تشيكرز. وطالما قمت – قبل هذا اليوم – بزيارة لمقر المجموعة الحادية عشرة من الطائرات المقاتلة لأرى بنفسي سير إحدى المعارك الجوية التي لا يحدث فيها الكثير، وأحسست في ذلك النهار أن الطقس مناسب لعدونا، ولذلك فقد ركبت سيارتي إلى أوكسبردج حيث زرت مقر الجمعية التي تتكون من حوالي خمسة وعشرين سرباً تختص بالدفاع عن ايسكس وكنت وساكس وهامشاير وجميع المداخل المؤدية إلى لندن، وكان نائب مارشال الجو بارك يقوم بقيادة هذه المجموعة منذ حوالي ستة أشهر، وكان عليها يتوقف مصيرنا إلى درجة عظيمة، ومنذ أن ابتدأت معركة دنكرك أسند إلى بارك إدارة كافة أعمال الطيران في النهار في جنوب إنكلترا وقد بلغت استعداداته حد الكمال، وتسللت مع زوجتي إلى غرفة العمليات الحربية المحصنة ضد القنابل والواقعة على بعد خمسين قدماً تحت الأرض. ومن المعلوم أن تفوق طائرات السبيتفاير والهاريكين إنما يرجع إلى وجود هذا الجهاز الدقيق من الإشراف، وامتداد شبكة أسلام التليفون تحت الأرض قبل الحرب بفضل توجه التعليمات والأوامر من مقر القيادة العليا للطائرات المحاربة في ستاجور، لكن القيادة الفعلية لأسراب الطائرات قد عهد به إلى المجموعة الحادية عشرة التي كانت تتولى الإشراف على سائر الوحدات الموزعة في شتى محطات الطائرات قد عهد بها إلى المجموعة الحادية عشرة التي كانت تتولى الإشراف على سائر الوحدات الموزعة

في شتى محطات الطائرات المحاربة في مختلف أنحاء البلاد. وكانت غرفة عمليات المجموعة تشبه المسرح الصغير، وطولها يبلغ ستين قدماً، وتتكون من طابقين، وقد اخترنا مقاعدنا في الحلقة الوسطى وأمامنا على المائدة أفردت الخريطة الضخمة وقد التف حولنا حوالي عشرين شاباً وفتاة تم تدريبهم ومعهم مساعدوهم من موظفي التليفونات وأمامنا يقع لوح أسود كبير بطول الجدار كله، وقد قسمته المصابيح الكهربائية إلى ستة أعمدة يمثل كل منها محطة من المحطات الست، ولكل منها أيضاً عمود إضافي مقسم بخطوط أفقية. وهكذا كانت المصابيح المنخفضة تكشف عن الأسراب الواقفة على أهبة الاستعداد والمستعدة للطيران خلال دقيقتين، ثم تعلوها تلك المصابيح التي توضح الأسراب المتأهبة للعمل خلال خمس دقائق، ثم تعلوها تلك التي يتم استعدادها في عشرين دقيقة، وهكذا بالنسبة إلى تلك التي تقوم بالطيران أو التي شاهدت العدو أو المشتبكة معه في هذه اللحظة أو تلك التي في طريقها إلى قاعدتها. وهناك غرفة صغيرة على الجانب الأيسر تشبه المقصورة في المسرح يجلس فيها أربعة أو خمسة ضباط وامرأة وشاب، وقد كان الرادار آنذاك في بدايته، ومع ذلك فقد كان كافياً لتوجيه الإنذار بالغارات حين تقترب من السواحل، وكان المراقبون من خلال مناظيرهم وتليفوناتهم المتنقلة. مصدر كل المعلومات عن الطائرات المغيرة، وهكذا كانت القيادة تنهال عليها ألوف الرسائل والإشارات في أثناء وقوع الغارة. وكان يجلس عدد كبير من الرجال المدربين في غرف تمتلئ بهم في مقر القيادة الكائن تحت الأرض، يحلون رموز تلك الرسائل ويلخصونها بأقصى سرعة وينقلون من دقيقة إلى أخرى النتائج التي يصلون إليها إلى الذين يضعون ويخططون للمعركة وهم جالسون حول المائدة الرئيسية، وإلى الضباط المشرفين

على سير العملية من مقصورتهم التي أشرنا إليها.

وفي الناحية المقابلة (مقصورة) ثانية يحتلها عدد من ضباط الجيش الذين يقومون بنقل أعمال المدفعية المضادة للطائرات وقد كان لدينا منها تحت إشراف هذه القيادة مائتا مدفعاً، وكان من الضروري جداً أن تتوقف هذه المدفعية عن العمل لبضع ساعات أثناء الليل في بعض المناطق، إذ أن طائراتنا المقاتلة تكون في ذلك الوقت قد اشتبكت في القتال مع العدو، وكنت على علم بهذا النظام، فقد أطلعني داودنج على عمل الجهاز كله قبل أن تبدأ الحرب بعام عندما زرته في ستاغور، ولقد مر النظام بمراحل من التحسين والإصلاح منذ تلك الزيارة وصار الآن أداة حيوية من أدوات الحرب لا نظير لها في أي بلد من بلاد العالم. وقال لي بارك عندما نزلنا إلى المقر في الطابق الأسفل: "لا أستطيع التخمين عما يحدث اليوم، كل شيء هادي".

ولم يكد يمضي ربع ساعة على هذا الكلام، حتى كان منظمو الخطة قد بدأ تحركهم، إذ أبلغوا أنه حوالي أربعين طائرة تحركت، للإغارة من المحطات الألمانية في منطقة دييب، وأخذت المصابيح تضيء في الصف الأدنى مشيرة إلى الأسراب التي وقفت على أهبة الاستعداد، ثم وصل خبر آخر يقول إن عشرين طائرة مغيرة أخرى تستعد، ولم تمض عشر دقائق أخرى حتى صار من البين إن معركة قاسية في طريق الوقوع وبدأ الجو يحتشد بطائرات من الجانبين، وتتابعت الإشارات، أربعون طائرة، ستون طائرة، وكان اتجاه سير الطائرات المغيرة يبدو أمامنا على الخريطة من وقت إلى آخر في علامات توضح اتجاهاتها، بينما كانت على اللوحة المواجهة تضيء المصابيح، مشيرة إلى طيران أسرابنا بصورة متتابعة

حتى لم يبق منها على الأرض على أهبة الاستعداد أكثر من عدد قليل، وقد ظلت هذه المعارك الجوية التي يعلق عليها الكثير - أكثر من ساعة بعد وقوعها - وقد كان عدونا ما تزال لديه القوة التي مكنته من إرسال هذه الدفعات المتوالية من الطائرات إلى قلب الهجوم، وكان على أسرابنا التي تم طيرانها كلها لتكون لها السيادة على الجو أن تعود إلى قواعدها بعد سبعين أو ثمانين دقيقة من طيرانها لتتزود بالوقود أو الذخائر، ولو تمكن العدو في أثناء ذلك من حشد طائرات جديدة في حومة القتال لاستطاع تدمير العديد من طائراتنا وهي على الأرض ولذا فقد كان هدفنا الرئيسي دائماً أن نوجه أسرابنا بحيث لا يتجمع عدد كبير منها على الأرض في وقت واحد.

وسرعان ما أوضحت الأضواء الحمراء أن معظم أسرابنا ملتحمة مع العدو، وكنت أسمع همساً متصلاً بين القائمين بالتخطيط، وهم ينقلون الإشارات من مكان لآخر ليوضحوا تطور المعركة وتغير الأوضاع. وكان نائب مارشال الجو يصدر التعليمات العامة موجهاً طائرته المقاتلة التي تترجم فوراً إلى تعليمات تفصيلية يوجهها ضابط شاب يجلس في وسط الغرفة إلى كل محطة من المحطات.

وكنت أجلس بجواره، وسألت عن اسمه بعد سنوات، فقيل لي أنه اللورد ويلوبي دي بروك. وقد التقيت به لثاني مرة في عام 1947 عندما استجبت لدعوة من نادي الفرسان، وكان عضواً في مجلس إدارته لمشاهدة حفلة سباق الدربي. وقد استغرب كثيراً لأنني لم أنس لقائي الأول به. وكان في ذلك الحين يصدر التعليمات والأوامر للأسراب الفردية بالتحليق في الجو والقيام بأعمال دورية على هدى من النتائج الظاهرة على الخريطة.

وكان مارشا الجو آنذاك يسير في الغرفة جيئة وذهاباً وهو يلحظ بعين حذرة متنبهة كل حركة وخطوة في اللعبة، مراقباً بنفسه رجال جهازه التنفيذي ومتدخلاً إذا اقتضى الأمر بكلمة حاسمة لتعزيز نقطة مهددة. ولم تمر لحظات حتى صارت جميع أسرابنا ملتحمة في المعركة، ولم يبق سرب واحد في الاحتياطي، وتحدث بارك في تلك الأثناء تلفونياً إلى داودنج في ستاغور، فطلب منه أن يضع ثلاثة أسراب من المجموعة الثانية عشرة تحت تصرفه احتياطاً للطوارئ، وفيما إذا وقع هجوم رئيسي آخر، خلال قيام أسرابه بالتزود بالسلاح والذخائر، وقد تم فعلاً هذا، وكانت الأسراب ألزم ما تكون لحماية لندن ومطارات الطائرات المحاربة حيث أن المجموعة الحادية عشرة كانت قد استنفذت كل قواها.

واستمر الضابط الشاب الذي اتخذ من هذه الأمور مسألة روتين في إعداد أوامره المنسقة مع تعليمات قائده العام، بلهجة هادئة، وسرعان ما انطلقت الأسراب الإضافية الثلاثة إلى ميدان المعركة مرة أخرى، وشعرت بقلق القائد الذي كان يصطنع الهدوء في وقفته وراء مقعد مساعده، وكنت حتى هذه الأثناء أشهد التطورات صامتاً، فسألته: "هل تملك قوات أخرى احتياطية؟" فأجابني نائب المارشال: "كلا ... لم يبق لدينا في الاحتياطي أي شيء". وقد كتب في تقريره فيما بعد أنني ظهرت حينذاك بمظهر المتجهم العبوس، وربما أكون حقاً قد قطبت جبيني، وعبس وجهي، إذ ماذا يكون الأمر لو فاجأت أربعة طائرة جديدة أو خمسون أسرابنا وهي على الأرض تتزود بالوقود لتعود إلى التحليق من جديد. إن الميزان حينذاك كان في كفة القدر، وكانت قدراتنا محدودة، والأخطار التي تتعرض لها جد كبيرة ... ومرت خمس دقائق أخرى، وأغلب طائراتنا المحاربة تعود إلى الأرض لتتزوج بالوقود، ولم يكن في وسع مواردنا الحالية أن تضمن لها الحماية الجوية الكافية، وعرفنا أن طائرات العدو أخذت تعود من حيث

أتت، وبدأت العلامات على الخريطة تظهر اتجاه الطائرات الألمانية نحو الشرق ولم يبد أثر لأي هجوم جديد، وبعد عشر دقائق من انتهاء المعركة بدأنا نرتقي السلم نحو سطح الأرض، وحينما وصلنا كانت صفارات الأمان تدوي في الأسماع منبئة بانتهار الغارة.

وقال بارك: "أسعدنا يا سيدي، أنك رأيت المعركة، للحقيقة لقد كنا في الدقائق العشرين الأخيرة نكاد نختنق من المعلومات التي عجزنا أمامها، ولعلك يا سيدي شهدت القيود المفروضة على مواردنا الحالية، وقد تحملت الموارد اليوم أكثر مما نستطيع".

وسألته عما إذا كان شيء من نتائج المعركة قد وصل إليها، وذكرت أن الهجوم قد رد بصورة رائعة وفعالة، فأجاب بارك بأنه غير راض وأن طائراته لم تستطع أن تسقط العدد الذي كان يتوقعه، وكان من المستبعد أن يكون العدو قد اجتاح خطوطنا الدفاعية في كل مكان تقريباً، وقد سرت الأبناء بأن عشران من القذائف الألمانية قد استطاعت تحت حراسة المحاربات من التسلل إلى لندن، ولكن الصورة الصادقة عن النتائج لم تتضح تماماً، كما لم تصل إلينا أية أرقام نهائية عن الخسائر أو الأضرار.

وكانت الساعة قد شارفت على الرابعة والنصف من بعد الظهر، عندما رجعت إلى تشيكرز، فمضيت بعد ذلك إلى فيلولني، ويبدو أن المسرحية التي عاينتها في مقر قيادة المجموعة الحادية عشرة قد أنهكت قواي حتى أنني لم أصح من نومي إلا في الثامنة مساء، وحينما دققت الجرس حضر لي جون مارتن رئيس أمناء سري ومعه موجز أخبار المساء من جميع أنحاء العالم ... كانت أخباره تدعو إلى القلق، فقد سار هذا الأمر سيراً خاطئاً هنا، وتأخر ذاك هناك، والرد غير مقنع عن آخره، أو أن الأطلنطي قد ابتع قطعة من قطعنا البحرية، ومضى جون مارتن يقول: "إننا قد حققنا في الجو ما نهدف إليه، فقد أسقطنا مائة وثلاثاً وثمانين طائرة عدوة مقابل

خسارتنا التي لم تبلغ الأربعين.

وبالرغم من أن المعلومات التي بلغتنا من العدو بعد الحرب تشير إلى أن خسائره في هذه المعركة لم تزد عن ست وخمسين طائرة، إلا أن الخامس عشر من أيلول كان قمة معركة بريطانيا حقاً، وبدأت قيادة طائراتنا القاذفة في تلك الليلة القيام بهجمات مركزة على كافة موانئ العدو من بولون إلى انتوبرب، وقد أنزلت بالميناء الأخير خسائر بالغة، وها نحن نعلم الآن أن الفوهرر قد قرر في السابع عشر من أيلول تأجيل عملية "أسد البحر" إلى أجل غير مسمى، وتم أخيراً في الثاني عشر من تشرين الأول تأجيل هذا الغزو نهائياً إلى الربيع التالي.

وقرر هتلر في تموز عام 1941 تأجيل الغزو مرة أخرى حتى ربيع عام 1942 عندما تكون الإغارة على روسيا قد انتهت ... وكان هذا الحلم ضرورياً مع كل ما فيه من عبث واستحالة. وفي الثالث عشر من شباط عام 1942 اجتمع الأميرال رايدر بهتلر للمرة الأخيرة للبحث في عملية "أسد البحر" واضطره أن يقرر العدول عنها نهائياً، ومن ذلك يتضح أن الخامس عشر من أيلول عام 1940 كان نقطة تطور هامة. ولا شك في أننا كنا متهاونين في تقدير خسائر العدو، وفي الحقيقة كنا نسقط طائرتين أو ثلاثاً للعدو مقابل طائرة واحدة تهوى من طائراتنا، وفي هذا ما يكفينا. وقد استطاعت قواتنا الجوية أن تحقق النصر، بدلاً من أن يحيق بها الدمار على يد العدو. وكان هناك عدد من الطيارين الجدد لا ينقطع، وبالرغم من الإصابات التي لحقت بمصانع طائراتنا - وهي العامل الفعال في قدرتنا على شن حرب طويلة الأجل، إلا مجرد إمدادنا بحاجاتنا العاجلة فحسب، بالرغم من ذلك فلم تشل حركتها نهائياً، وبقي عمالها من فنيين

وغير فنيين وراء مخارطهم تزدحم بهم المصانع غير مبالين بالنيران التي تتوهج من حولهم، فكانوا أشبه ما يكونون بالمدافع التي تواصل عملها دون انقطاع. وكان هوبرت موريسون في وزارة التموين يشجع الجميع على مواصلة الجهد، كل في حدود عمله، وكان يحفزهم بكلمة: "هيا، إلى العمل" فلا يمتنع أحد عن الإسراع بتلبية ندائه، وقامت قيادة مقاومة الطائرات المغيرة برئاسة الجنرال بايل، ببذل كل عون مستطاع إلى معركة الدفاع الجوي، لكن اشتراكها الرئيسي كان متأخراً، أما فرقة المراقبة فكانت تواصل عملها ليل نهار لا تعرف التعب وبدون أن يتأثر إخلاصها، أما قيادة الطائرات المقاتلة التي تعتمد عليها المقاومة كل الاعتماد، وقد اقنعتنا بقدرتها على الصمود المتواصل أشهراً عديدة أمام الإجهاد المستمر، حقاً لقد أدى كل فريق واجبه أحسن الأداء.

واستمرت أرواح طيارينا وشجاعتهم، وهم يخوضون غمار المعركة في منتهى القوة والروعة، وهكذا أنقذت بريطانيا، وأصبح علي أن أقف في مجلس العموم وأقول: "لم يسبق قط في تاريخ الصراع الإنساني أن أحسن مثل هذا العدد الضخم من الناس ما في أعناقهم من دين جسيم نحو عدد قليل من الناس مثلما نحس به جميعاً اليوم نحو طيارينا".



الفصل التاسع

الحـــرب الخاطفـــة

يتحدث تشرشل في هذا الفصل عن الهجوم الجوي الألماني علي بريطانيا فيقول: لا شك في أن الآراء التي تروى عن الهجوم الجوي الألماني على بريطانيا هي آراء متناقضة ذات أهداف متباينة، وخطط مبتورة، ففي خلال هذه الأشهر كلها، كان يقلق راحتنا، ليتخذ أسلوباً جديداً، ولكن هذه المراحل جميعها متداخلة وليس في المستطاع الفصل بينها بتواريخ دقيقة محددة. فالمرحلة الواحدة منها تسلم إلى المرحلة الثانية وتتداخل فيها، وكانت العمليات الأولى تهدف إلى الالتحام مع قواتنا الجوية في معارك فوق المانش والساحل الجنوبي ثم تحول القتال إلى سماء المقاطعات الجنوبية وخصوصاً في كنت وساسكس حيث أراد العدوان أن يحطم قوتنا الجوية، ثم أخذ يتجه نحو لندن قليلاً قليلاً حتى أصبح يحلق في قلب سمائها حيث أضحت المدينة هدفه الرئيسي، وأخيراً عندما أحرزت لندن النصر، انتقل القتال إلى سماء المدن في الأقاليم وإلى شريان الحياة البريطاني خلال الأطلنطي عن طريق ميرس وكلايد.

وقد شهدنا الهجمات الألمانية العنيفة على مطارات الساحل الجنوبي في الأسبوع الأخير من شهر آب. والأسبوع الأول من شهر أيلول، وفي السابع منه تسلم غورنغ قيادة المعركة الجوية وجعل الغارات ليلية، ونقل مكان المعركة من مطارات "كنت وساسكس" إلى عمارات لندن وأبنيتها، أما الغارات النهارية فلم تنقطع وإن كانت ثانوية، حدث هذا باستثناء غارة

نهارية ضخمة أخرى، لكن الطابع العام للهجوم الألماني قد تغير تماماً، وقصفت لندن بصفة متواصلة لمدة سبع وخمسين ليلة دون انقطاع مما جعل أكبر مدن العالم تواجه تجربة تجربة خطيرة بل محنة قاسية، ولم يكن في مقدور أي إنسان أن يتنبأ بالنتائج، ولم يسبق قط أن تعرضت هذه البلدان لمثل هذا القصف الجوي الراعد، كما لم يسبق أبداً أن واجه العدد الضخم من الأسراب والمشكلات والمصاعب التي أحدثها هذا القصف الرهيب ونكباته.

وقد قمنا بغارة على برلين رداً على هذه الغارات المتواصلة على لندن في نهاية شهر أغسطس آب، بالرغم من المسافات الشاسعة التي كان على طائراتنا أن تجتازها، ولم تكن مثل هذه الغارة شيئاً مذكوراً بالنسبة للغارات الألمانية المركزة على لندن والمطارات القريبة الفرنسية والبلجيكية. ولكن وزارة الحرب رأت نفسها في وضع يحتم عليها الثأر رفعاً للروح المعنوية، وتأكيداً لتحدينا للعدو، وكنت على ثقة من صحة هذا الرأي وجدواه، إذ أني أعلم أن هتلر يثير اضطرابه صمود بريطانيا وإظهار قوتها، وإن كان هتلر في أعماق نفسه يعجب بشعبنا، وبالطبع واتته الفرصة حين قمنا بغارتنا الثأرية على برلين فأعلن ما انطوت عليه نفسه من رغبة في تحويل لندن وغيرها من المدن البريطانية إلى أطلال ورسوم حين صرح في الرابع من أيلول قائلاً: "إن هجومهم على مدننا سيدفعنا إلى إزالة مدنهم من الوجود".

وقد بذل هتلر أقصى ما يستطيع من جهد.

وشاركت في الغارات الليلية المتواصلة على لندن بين 7 أيلول و 3 تشرين الأول أكثر من مائتي طائرة ألمانية في كل غارة، وكانت الهجمات

التمهيدية العديدة التي نزلت بمدننا الإقليمية قد فرضت علينا أن نوزع مدفعيتنا المضادة للطائرات بصور فعلية، وعندما أصبحت لندن الهدف الرئيسي للمرة الأولى لم تكن تحتوي على أكثر من اثنين وتسعين مدفعاً، ورأينا أن الأجدى ترك الجو حراً لطائراتنا الليلية المقاتلة تحت قيادة المجموعة الحادية عشرة، وكان من بين تلك الطائرات ستة أسراب من طراز "بلنهايم" وطراز "ديناياننت" وكان الاشتباك الليلي ما يزال في بدايته ولذلك فإن خسائر العدو كانت طفيفة ومحدودة ...

وهكذا استمرت مدافعنا المضادة متوقفة عن العمل في الليالي الثلاث الأولى، وبالرغم من عدم دقة الوسائل التي تستخدمها المدافع المضادة، فقد اضطرنا إزاء ضعف طائراتنا الليلية المحاربة ومدى ما نواجهه من مشاكل في حاجة إلى الحل، واضطرنا إلى أن نعطي لرجال هذه المدفعية الحرية التامة في إطلاق نيرانهم على أهداف غير واضحة متخذين أي أسلوب يختارونه لتحديد الهدف ودقته ... وبعد ثمان وأربعين ساعة، تمكن الجنرال بايل، المشرف على قيادة المدافع المضادة من زيادة عددها في العاصمة بجلب عدد من مدن الأقاليم، وهكذا أخليت السماء من طائراتنا المقاتلة، وقامت المدافع المضادة بمهمة الدفاع. ومكث أهل لندن، ثلاث ليال متعاقبة، ملازمين مساكنهم أو معسكراتهم غير المعدة، محتملين أعنف الغارات حتى كانت ليلة السابع عشر من أيلول حين انطلقت مدافعنا المضادة فجأة تضيء لها السبيل المصابيح الكاشفة المتوهجة، وبالرغم من دويها العظيم فلم تنزل بالعدو أضراراً جسيمة إلا أنها أعلت الروح المعنوية بين أبناء العاصمة، واستمرت المدافع المضادة منذ ذلك الوقت تتابع إطلاق نيرانها بصفة منتظمة ومتواصلة، ومهد التمرين وإلحاح الحاجة إلى زيادة التصويب دقة، وأخذ عدد الطائرات المصابة من سلاح

العدو يتكاثر ليلة بعد أخرى، وكانت المدفعية تلوذ بالصمت أحياناً حين تنطلق الطائرات الليلة المقاتلة لتخوض عمار المعركة، بعد أن تحسنت أساليبها، وظلت الغارات الليلية بل النهارية متواصلة إلى الحد الذي كانت تشن فيه هذه الغارات مجموعات صغيرة من الطائرات بل طائرة واحدة أحياناً، وطالما أطلقت صفارات الإنذار، ودوى صوتها فترات متلاحقة طيلة ساعات اليوم بأكمله. ولكن أهل لندن الذين يبلغون في ذلك الوقت سبعة ملايين قد رتبوا حياتهم على وضع يلائم تلك الأحوال الشاذة.



ويواصل تشرشل حديثه عن تلك الأوقات العصيبة قائلاً:

ولتنوير القراء ورغبة مني في الترفيه قليلاً عنهم، والتخفيف من وقع هذه التجربة القاسية على مشاعرهم، أورد هنا بعض ملاحظاتي الشخصية عن غارات لندن، متيقناً أن لدى الآلاف من أبناء العاصمة كثيراً من الحكايات التي تفوق في إثارتها هذه الملاحظات.

فعندما أخذت طائرات العدو في قصف العاصمة كنا نرى أن نواجه هذه الغارات بالتهوين وعدم الاكتراث، فاستمر كل إنسان في حي "الوست إند" يعمل ويلهو، ينام ويأكل كما تعود، دون أن يغير شيئاً من مجرى حياته العادية، فالمسرح مزدحم بالمشاهدين والشوارع المظلمة تموج بالمارة، ولعل هذا الموقف كان رد فعل صائب للرعب الذي بدأ في العناصر الانهزامية في باريس، عندما تعرضت المدينة لأول هجوم جوي في شهر أيار. وأذكر أني كنت على مائدة العشاء ذات ليلة مع صحبة خيرة، عندما حدثت غارات مستمرة قوية، وكانت نوافذ قصر "ستورانواي" – حيث كنا نجلس – تطل على – جرين بارك – الذي أنارته أضواء المدافع المضادة وانفجار

القذائف المضادة، وهيء لي أننا كنا نغامر بأرواحنا، دون ما ضرورة أو مبرر. وبعد أن تناولنا العشاء انتقلنا إلى عمارة شركة الصناعات الكيميائية الإمبراطورية وهي تطل على الجسر، وكان منظر النهر يأخذ بنفوسنا ونحن نطل عليه من الشرفات العالية ورأينا على الأقل عشر حرائق تشتعل في الجانب الجنوبي، وبينما كنا نقف تساقط عدد من القنابل الثقيلة، انفجرت إحداها بالقرب مني فدفعني صديق إلى وراء عمود حجري راسخ القواعد، وأكدت لي هذه الحادثة الفكرة التي خطرت ببالي وهي أن نكيف حياتنا مع الوضع الجديد، وأن نفرض على متع حياتنا كثيراً من القيود.

وسقطت القنابل مرات عديدة على مجموعة من الأبنية الحكومية على أن دور الحكومة في "داوننج ستريت" قام ببنائها قبل مائتين وخمسين عاماً المتعهد الاستغلالي الذي ما زال اسمه محفوراً على أسس ضعيفة واهنة. وخلال أزمة ميونيخ أقيمت المخابئ لسكان رقمي (10 و 11) من هذا الشارع، كما دعمت الأسقف بأعمدة جديدة قوية، وأنشئت سقوف أخرى داخلية، وكان الظن أن هذه الأسقف الجديدة تستطيع أن تصمد فيما إذا نسفت الأبنية أو انهارت، لكنها لا تحتمل على أية حال الإصابة المباشرة، وقد تم في الأسبوعين الأخيرين من أيلول نقل مقر رئاسة الوزارة إلى مكاتب جديدة أكثر تحملاً وصلابة، مطلة على ميدان "سانت جيمس" وكنا ندعو هذه الأبنية باسم (الملحق) وقد ظللت مع زوجتي خلال الأيام الباقية من الحرب في هذا البناء، ننعم بالهدوء والراحة، وكنا نوقن أن هذه الأبنية القوية المشيدة من الأسمنت في وسعها أن تصد الحديد والفولاذ وعلقت زوجتي عدداً من صورنا في غرفة الاستقبال التي كنت اقترح عليها أن تظل بلا صور، ولكنها نفذت فكرتها، وتغلبت علي بالطبع، وساعدتها الأحداث. وكان منظر لندن رائع الجمال حين نراها من سطح (الملحق) على مقربة

من القبة في الليالي الساجية، وقد هيأوا لي مكاناً على السطح، فوقه سقف متين، كي أتمكن في ضوء القمر من مراقبة الغارات الجوية، وتحت هذا المكان أقيمت غرفة الحرب حيث زودت ببعض الأثاث الصالح للنوم، وحيث لا تجد القنابل إليها منفذاً. وكانت القنابل في تلك الأيام أصغر بالطبع من القنابل التي طالعتنا في المراحل الأخرى من الحرب، وبالرغم من ذلك كانت حياتنا في داوننج ستريت في الفترة التي سبقت بناء هذا المسكن الجديد مثيرة للغاية، إذ كان كل منا يحس وكأنه قد دفع به إلى مركز قيادة إحدى الفرق في ميدان القتال.

ولست أنسى مساء يوم السابع عشر من تشرين الأول حيث كنا نتناول عشاءنا في غرفة الحديقة في داوننج ستريت رقم 10 عندما انطلقت الغارة الليلية المألوفة، وكان يشاركني العشاء أرشي سنكلير وأوليفر ليتلتون. وكانت النوافذ الفولاذية مغلقة، وحدثت بعض الانفجارات المدوية بالقرب منا، وسقطت قنبلة على مكان استعراض حرس الفرسان، وهو لا يبعد عنا بأكثر من مائة ياردة، وكان دويها هائلاً، وعلى حين غرة شعرت بهاتف سماوي ... ينبهني إلى الخطر الماثل. فالمطبخ عال ومكشوف وبه نافذة زجاجية يبلغ طولها خمسة وعشرين متراً، والساقي والفتاة يقدمان لنا العشاء دون تأثر بدوي الانفجارات، وخلف النافذة توجد السيدة لانذمير الطباخة وسائر الخدم قلت لهم أن يسرعوا إلى المخبأ، ثم عدت إلى مكاني بالمائدة، فلم تمر ثلاث دقائق حتى فوجئنا بدوي هائل وأصوات دمار جد قريبة وشعرنا بهزة عنيفة مما يؤكد أن البيت نفسه قد أصيب وجاء مفتش المباحث الملحق بخدمتي ليخبرني بفداحة الخسائر، فقد أصيب المطبخ، ومخزن التموين ومكاتب القسم المالي ...

وذهبنا إلى المطبخ لنشاهد ما جرى، فلم نر إلا أنقاضاً! فقد سقطت القنبلة على بُعد خمسين ياردة على القسم المالي، فدمرت كل ما في المطبخ، وتحول إلى أنقاض، وتهشمت النافذة الزجاجية الكبيرة وتطايرت شظاياها في كل جوانب المطبخ، ولو ظل به أحد إلى أن حدث الانفجار لغدا أشلاء مبعثرة، ولا شك في أن الهاتف السعيد الذي خطر لي جاء في وقته المناسب. أما مخبأ القسم المالي في الساحة فقد أصابته قذيفة مباشرة فتناثرت أجزاءه، واستشهد تحت أنقاضه أربعة حراس كانوا يقومون ليلاً بأعمال الحراسة، وعلى أية حال فلم يكن في مقدورنا أن نحدد عدد المفقودين، فقد دفن الجميع تحت ركام الأنقاض ... ولما كانت الغارة متواصلة، فقد لبسنا خوذنا وارتقينا الدرج إلى سطح الملحق لنشاهد المنظر كاملاً، وقبل ذهابي لم أستطع مقاومة الرغبة في أن أغري الطباخة والخدم بالتوجه إلى المطبخ، وبالطبع أصيبوا بالهلع من رؤية مكانهم وقد استحال إلى ركام. وصحبت أرشي إلى سطح الملحق، وكان المساء ساكناً والجو صافياً، وكانت لندن بكاملها تجاهنا، ورأيت معظم حي (بال مال) تأتي عليه النيران، وعلى أية حال كانت ثمة خمس حرائق مضطرمة في الجانب المقابل من المدينة على طول النهر... ثم أخذت الغارة تنزاح غمتها شيئاً فشيئاً إلى أن دويت صفارة الأمان، وإن ظلت الحرائق مشتعلة في المدينة ... ونزلت إلى مسكني الجديد في الطابق الأول من الملحق فوجدت الضابط دايفيد فارجسون، رئيس مراقبي مجلس العموم، والذي يقطن في نادي كارلتون، وقد أخبرنا أن دار النادي قد تهدمت، وكنا قد تخيلنا ذلك بأنفسنا بمجرد أن شاهدنا اندلاع النيران، وكان فارجسون في النادي عندما دوى الانفجار، وحوالي مائتين وخمسين من الأعضاء والموظفين، وقد حدث الانفجار بقذيفة ضخمة مباشرة، أطاحت بواجهة

المدخل من جهة شارع (بال مال). وكان الأعضاء يزدحمون في قاعة التدخين، فتهاوى السقف عليهم، وعندما شاهدت الأنقاض في اليوم التالي أخذتني الدهشة لأن أحداً ممن كانوا في القاعة لم يقتل، وإنما نجا الجميع رغم الأنقاض والدخان وكأنما حدثت معجزة، ولئن أصيب بعضهم بجروح إلا أنهم نجوا من الموت جميعاً. وعندما علمت بالحقائق مفصلة في مجلس العموم، قال زملاؤنا الوزراء من حزب العمال مازحين: "إن الشيطان لا يمس أنصاره بسوء". وقد انتشل المستر كانتان هوغ والده، وهو وزير مالية سابق، انتشله من بين الركام، كما حمل اينياس والده انخيزاس في حرب طروادة. ولم يجد فارجسون مسكناً يأوي إليه في تلك الليلة، فأعددنا له سريراً في الطابق الأرضي من الملحق، لقد كانت هذه الليلة بصورة عامة مثيرة للفزع، وكان من الغريب حقاً بالنظر إلى إصابات المباني ألا يزيد عدد القتلى عن خمسمائة شخص وعدد الجرحى عن ألفين أو ثلاثة آلاف.

ومضيت للمرة الثانية إلى زيارة رامسغيت، وشن علينا الهجوم فمضوا بي إلى النفق الكبير الذي يقيم فيه عدد كبير من الناس بصفة مستمرة، وعندما غادرنا النفق بعد ربع ساعة تقريباً، بدأنا نتأمل الخرائب التي ما زال يتصاعد الدخان من جوانبها، وقد تهدم فندق صغير دون أن يصاب أحد من نزلائه بأذى على الرغم من تحوله إلى تل من الركام والحجارة كانت تتناثر خلالها قطع الأثاث المحطم، وأدوات الطبخ، وراعنا صاحب الفندق وزوجته والطباخون والخدم، وهم يولون حول فجيعتهم في مصدر رزقهم ومأوى حياتهم ... وعندئذ قررت بكل مالي من نفوذ وإمكانيات أن أصدر أمراً بالتعويض الفوري الكامل، وعندما عدت بالقطار أمليت على وزير المالية كنغزلي وود الرسالة التي توضح هذا المبدأ الهام وهو أن كافة الخسائر التي تحدثها الغارات يجب أن تكون على مسؤولية الدولة. وإن

الحكومة تلتزم بتعويضها حتى لا يقع عبؤها على كاهل الذين يصابون في بيوتهم أو أعمالهم، بل على كاهل الشعب كله تحقيقاً للعدالة فقد أثار هذا القرار فزع كنغزلي وود بما ينطوي عليه من التزام لا نهائي. ولكني أكدت له ضرورة القيام بهذا الإجراء، ولم يمض أسبوعان على ذلك حتى كانت وزارة المالية قد جهزت مشروع التأمين الذي قدر له أن يقوم بدور فعال في حياتنا ... وقد واجهت وزارة الخزينة مشاعر مضطربة ومقاومة إزاء هذا المشروع، فقد ظنت في بادئ الأمر أنه سيستنزف الخزينة حتى الإفلاس، ولكن بعد أيار عام 1941، حيث توقفت الغارات الجوية أخذت المكاسب تنهال على خزينة الوزارة بفضل هذا المشروع الذي اعتبرته أنا في حينه عملاً من أعمال التوفير والبراعة السياسية، وفي أواخر مراحل الحرب صعدت الأرقام ثانية إلى جانب الخسارة وتكبدنا ما لا يقل عن ثمانماية وتسعين مليوناً من الجنيهات في شؤون التعويض وبالرغم من كل ذلك فقد كنت غير مستاء لما يحدث.



ويواصل تشرشل حديثه في مذكراته عن تلك الفترة العصيبة قائلاً:

وأصبح من المحتم في هذه الفترة الجديدة من الحرب، أن نستفيد بغاية ما نستطيع من العمل، ليس في المصانع فقط بل في الدوائر الحكومية بلندن كذلك، بالنسبة لتعرضها لهجوم جوي مستمر ليل نهار. فكان الموظفون في البداية عندما تدوي صفارات الإنذار يسرعون إلى الطوابق الأرضية حيث تستخدم كملاجئ للوقاية، وكان يثير زهونا أن تتم هذه العملية في هدوء ونجاح، وفي أحوال كثيرة لم تكن الغارة تعني أكثر من هجوم من بضع طائرات أو حتى طائرة واحدة، وطالما عوقت هذه

الطائرات فلم تصل إلى العاصمة، وهكذا يتوقف العمل في جميع المصالح الحكومية الإدارية والتنفيذية بسبب غارة صغيرة تافهة. لذلك فقد فكرت في أن يستخدم الإنذار على مرحلتين. مرحلة التنبيه المبدئي ومرحلة الخطر الفعلي الذي لا تنطلق صفاراته إلا حين يحل الخطر ويصبح في حالة مداهمة فعلية، فقبل اقتراحي ونسقت الخطة على أساسه.

وكان البرلمان أيضاً في أشد الحاجة إلى الإرشاد بالنظر إلى مواصلة عمله في تلك الأيام المليئة بالخطر، وكان أعضاء المجلس يوقنون بأن واجبهم يحتم عليهم أن يكونوا مثلاً للشعب، ولا شك في أن الحق كان بجانبهم في هذا اليقين، ولكن كان علي أن أوجه انتباههم إلى ضرورة اتخاذ الحيطة والحذر نظراً إلى الأخطار المحدقة، واستطعت إقناعهم في جلسة سرية بوجوب اتخاذ الإجراءات الوقائية الضرورية، فاتفقوا على كتمان مواعيد الجلسات. وإيقاف النقاش حين تدوي صفارات الإنذار، وصاروا يختبئون بنظام إلى المخابئ المفعمة والتي لم تكن معدة كما يجب.

ولا شك في أن مواصلة البرلمان البريطاني أداء مهمته وتصريف الشؤون في تلك الآونة كان يعتبر صفحة مشرقة في تاريخه وذيوع شهرته، والنواب عادة أكثر الناس حساسية بالنسبة لمهامهم في هذه الظروف، فكان من اليسير على أي إنسان أن لا يحسن الحكم على حقيقة تصرفاتهم، فعندما تنزل الأضرار بإحدى القاعات كانوا ينتقلون إلى قاعة أخرى، وكنت أواجه صعوبات في إقناعهم بضرورة الأخذ بوسائل الحكمة والموعظة الحسنة لكن جميع النواب في هذه الفترة قد نهجوا نهجاً ينم عن التعقل ووزن الأمور والحرص على الكرامة. ومن حُسن الطالع أن الانفجار الذي حدث بعد عدة شهور وأطاح بقاعة مجلس الشيوخ، حدث ليلاً حينما كانت القاعة خالية من أي إنسان.

ولقد أعطانا تفوقنا على الغارات النهارية إحساساً بالراحة والهدوء النفسي، أما في خلال الشهور الأولى فقد سيطر عليَّ الشعور بالقلق وإني لا أعتقد أن أي دكتاتور قد حاز من السلطات الفعلية في بلاده مثل تلك التي خولت لوزارة الحربية البريطانية، وكنا عندما نعبر عما نريده يعطينا نواب الشعب تأييدهم فيطيع الناس رغباتنا بسعة أفق وحرية. وعلى الرغم من ذلك لم نحاول مرة مصادرة الحريات. وإذا تحدانا النقاد رأينا المجلسين يصوتان ضدهم بأغلبية ساحقة، وإذا ما قورن هذا بأساليب الدول الجماعية، بدا لنا أن برلماننا كان يخولنا هذه السلطة ضد الناقدين بلا أدنى اضطهاد أو كبت أو إيحاء أو استعمال للشرطة وأجهزة الأمن السرية، ولا شك في أن هذا كان يثير زهونا واعتزازنا، ويؤكد لنا أن الديمقراطية البرلمانية أو على الأصح ما يحق أن نسميه السلوك البريطاني في الحياة العامة قد استطاع الصعود والانتصار والبقاء بالرغم من كل المحن القاسية، ولم يستطع التهديد بالإبادة وإفناء أعضاء برلماننا أن يرهب أحداً، وكان من حسن الحظ أن هذا التهديد لم ينفذ ولم تحدث الإبادة.



وحل منتصف شهر أيلول، ففاجأنا العدو باستعمال نوع جديد ومدمر من وسائل الحرب علينا، فقد بدأت الطائرات تلقي بقذائف تنفجر بعد مرور بعض الوقت مما وضعنا أمام مشكلة حساسة وغريبة.

وهذه القذائف المتفجرة من تلقائها فقد أصبحت منتشرة، وصارت مشكلة تحتاج إلى التفكير، وقد وجهت اهتمامي إلى القنابل المؤقتة منذ عام 1918 عندما استعملها الألمان لأول مرة ضدنا بصورة شاملة

ليرغمونا على عدم استخدام القطارات في زحفنا على ألمانيا، وكنت قد اقترحت أن نستخدمها في النرويج وقناة كيبل ومنطقة الراين، ولا شك في أن هذا السلاح من أكثر أسلحة الحرب فعالية بالنسبة إلى ما يشيعه من التوجس والقلق والارتياب. وهكذا دار الزمن لنذوق نحن طعم هذا السلاح، فأنشأنا هيئة خاصة للتصرف، وعهدنا إلى مجموعات خاصة شكلت في كل مدينة وبلدة ومقاطعة لتتبعه، وسارع المتطوعون يبذلون جهودهم لمكافحة هذه القنابل، وتكونت فرق كان بعض منها حسن الحظ وكان للأخرى سوء المصير. وقد استطاع رجال من هذه الفرق النجاة من العاقبة الوبيلة لهذا السلاح، والعيش إلى نهاية الحرب، بينما نجا البعض الآخر قبل أن يلقوا حتفهم، وكنت حين أشاهد أعضاء هذه الفرق أينما ذهبت في رحلاتي وتجولاتي، أرى وجوههم مغايرة تماماً لكل الوجوه التي أعرفها أو رأيتها بالرغم مما يتحلون به من شجاعة وتفان وصبر، فعلى هذه الوجوه تبدو واضحة الشحوب، ومعالم الإجهاد، وسماته الضخمة والجهد، فضلاً عن بريق العيون وزرقة الوجوه وجفاف الشفاة، فإذا ما تذكرنا الأيام المضنية التي عشناها، فيجب أن لا نستعمل كثيراً كلمة (أوقات كئيبة) إذ تكاد الكآبة كلها تخص أفراد هذه الفرق وحدهم.

وواجب علي أن أسرد هنا ما حدث لإحدى هذه المجموعات كمثال لما كانت تواجهه سائر المجموعات، كانت هذه المجموعة تضم اللورد سافولك وسكرتيرته وسائقه العجوز، وكانوا يسمون أنفسهم "الثالوث المقدس" وقد شاعت أخبار جرأتهم، وذاع الكثير عن شجاعتهم، وقد استطاعوا أن يتخلصوا من أربع وثلاثين قنبلة لم تنفجر، بروح طيبة مرحة، لكن القنبلة الخامسة والعشرين قد ثارت لزملائها، فانفجر معها اللورد وثالوثه المقدس. ولكن الإيمان يملأ نفوسنا بأن أرواحهم عرفت مستودعها الأمين

في دار الخلود ...

وقد توصلنا بفضل كل فرد في هذه المجموعات، وبالتضحيات النبيلة التي بذلوها إلى أن نتحكم في هذا الخطر الجديد.

❊ ❊ ❊

ويواصل تشرشل حديثه عن تلك الفترة الزمنية العصيبة التي واجهها هو وشعبه قائلاً:

من الشاق علينا أن نعقد مقارنة بين الاختبار القاسي الذي مر به سكان لندن في شتاء عام 1940 – 1941، وبين الاختبارات التي عاناها الألمان في سنوات الحرب الثلاث الأخيرة، فقد غدت القنابل أشد هولاً والغارات أكثر قسوة، ولكن من ناحية ثانية – كان الإعداد الطويل، وما اشتهر عن الألمان من دقة قد ساعدهم على إنشاء وحدات كاملة من الملاجئ المحصنة ضد القنابل، وكان يفرض على كل ألماني الالتجاء عند قيام الغارات كعمل عادي رتيب، وعندما اجتزنا ألمانيا في النهاية شاهدنا أنها قد أصبحت بكاملها خرائب وأطلالاً، ولكننا شاهدنا أيضاً عمارات مشيدة ما تزال صامدة على الأرض وملاجئ حصينة كان السكان ينامون فيها كل ليلة بالرغم من تساقط دورهم وخراب كل ما يملكونه على سطح الأرض، أما في لندن، فعلى الرغم من أن الغارات كانت أقل قسوة، إلا أن وسائل التأمين والوقاية كانت أبطأ تطوراً فإذا استثنينا الأقبية لم نجد عندنا أماكن للوقاية والتأمين. حقاً لقد كان ثمة طوائف أرضية، وطوابق تحت الأرض تستطيع أن تجابه الضربات المباشرة، ولكن عددها كان قليلاً لدرجة ملحوظة وكانت الغالبية من سكان لندن يمضون الليل في الخنادق الخاصة ببيوتهم تحت سيل من قذائف العدو، مستمتعين بما اشتهر عن

الإنكليز من حبهم للاسترخاء بعد يوم من العمل المثمر الجاد، ولم تكن ثمة أية وسائل للوقاية إلا من شظايا القذائف. لكن الانهيار النفسي لم يكن شيئاً بجانب الاحتمال البدني، وحقيقة لو كانت قذائف عام 1943 قد أسقطت على لندن في عام 1940 لانتهينا إلى وضع قد دمر فيه كل تنظيم بشري، ولكن لكل شيء وقته المعين، ونسبه المحدودة، ولا يملك إنسان القول بأن لندن التي لم تجرب الخضوع قط، كانت محصنة ضد الاستسلام.

ولم تكن الحكومة قد شيدت قبل الحرب أو في الفترة السابقة أية أماكن محصنة ضد القنابل، تستطيع هيئتها المركزية أن تلجأ إليها لمواصلة الأعمال، فقد درست خطط لتحويل أعمال العاصمة بعيداً عن مدينة لندن، وفعلاً انتقلت فروع الحكومة بأكملها من جميع الوزارات والدوائر إلى هاروغيت وشبلتيفهام وغيرها، واستولت السلطات على المساكن الكافية في مناطق شاسعة لسكن جميع الوزراء وكبار الموظفين، أما في هذه الآونة وطائرات العدو تواصل عدوانها فقد انعقد عزم الحكومة والبرلمان ورغبتها الأكيدة على البقاء في لندن دون مناقشة، وكنت أشاركهما نفس هذه المشاعر، وكنت مثل غيري يخيل لي أن الدمار سيكون عاماً، بحيث يصير الانتقال وتوزيع الأعمال أمراً محتماً، ولكن بالنسبة إلى ما حدث بالفعل، فقد امتلأ بعكس هذا الإحساس، وظللنا في تلك الأشهر نعقد اجتماعاتنا الوزارية ليلاً في غرفة الحرب في الطابق الأسفل. ولم أكن أتخيل مدى ما يتحمله المستر تشمبرلين من عناء هذا السير بالنظر إلى العملية الجراحية التي أجريت له، ولكن لم يستطع أي شيء أن يقعد به عن هذه الاجتماعات التي كان يتسم فيها بكثير من الهدوء البارد والتصميم الأكيد، والتي كانت آخر ما شهده من اجتماعات.

ونظرت ذات مساء في أواخر شهر أيلول عام 1940 من باب دواننغ ستريت الذي يطل على الطريق، فشاهدت العمال يقومون بوضع أكياس من الرمال تجاه النوافذ المنخفضة من بناء وزارة الخارجية المواجهة لنا، وسألتهم عما يقومون به، فقيل لي أن المستر نفيل تشمبرلين في أمس الحاجة إلى العلاج من حين لآخر بعد العملية التي أجريت له، وكان من غير الميسور أن يقوم بهذا العلاج في ملجأ داوننغ ستريت رقم 11 لأن عشرين شخصاً على الأقل يتجمعون فيه أثناء قيام الغارات، ولذلك فقد رؤي تهيئة ملجأ صغير خاص به وظل حريصاً على عاداته اليومية، لابساً خير ثيابه، بادياً غاية في الأناقة وانسجام الهندام. ولذلك قررت أن استخدام سلطاتي فذهبت إلى الطريق الممتد بين رقمي 10 و 11 وحين رأيت السيدة تشمبرلين قلت لها: "ينبغي ألا يوجد هنا في هذه الظروف، ويجب أن تبتعدي به حتى تعاوده الصحة وسأرسل إليه يومياً بالأبناء". وذهبت السيدة للقاء زوجها، وبعد ساعة أرسلت لي تقول "لقد أبدى استعداده لتنفيذ مشيئتك ... سنرحل الليلة". ولم التق به ثانية، ولكني على يقين أنه كان يرغب في الموت أثناء قيامه بواجبه ولكن القدر شاء غير ذلك.



ونتيجة لوفاة المستر تشمبرلين حدثت بعض التغيرات الوزارية الهامة، فقد أظهر المستر هربرت موريسون نشاطاً ملموساً كوزير للتموين، كما قابل السير جون اندرسن الهجمات على لندن بإدارة في منتهى الصمود والكفاية، وتبين لي في مطلع تشرين الأول أن الهجوم المتواصل على أعظم مدن العالم كان من القسوة والعنف بحيث خلف الكثير من المشاكل السياسية والاجتماعية لدى أهل المدينة الذين واجهوا أقسى الظروف.

مما يفرض علينا أن نعهد إلى برلماني حازم صاحب خبرة وتجربة في شؤون وزارة الداخلية التي أصبحت في تلك الآونة وزارة الأمن الداخلي كذلك، فلندن هي التي تعاني قسوة الغارات، وهربرت موريسون واحد من أهلها، وهو ملم بكل جانب من جوانب إدارتها، وكانت له خبرة لا تبارى في حكم مدينة لندن. إذ كان رئيساً فيما سبق لمجلس مقاطعتها، وكان الشخصية البارزة في كافة أمورها وكنت في ذات الوقت في احتياج للسير جون اندرسن ليمثل الحكومة في مجلس الملك الخاص، ليقوم كما يملي عليه منصبه الجديد بالإشراف على الكثير من الأمور الداخلية في مجال أوسع باعتباره رئيساً للجنة الشؤون الداخلية التي يعهد إليها بالكثير من المشاكل تخفيفاً لأعباء مجلس الوزراء. وأتاحت لي هذه التغيرات التي خففت العبء عن كاهلي أن أحشد اهتمامي لتصريف شؤون الحرب، التي تبين لي أن زملائي يميلون إلى توسيع مسؤولياتي بشأنها وزيادة اختصاصاتي ولذلك فقد رغبت إلى هذين الوزيرين اللامعين أن يحل كل منهما محل الآخر، ولم يكن ما قدمته لهربرت موريسون طريقاً مفروشاً بالورود وليس في مقدور هذه الصفحات بحال ما أن توضح المصاعب الجمة في إدارة لندن وحكومتها في ذلك الوقت الذي كان يضحي فيه عشرة آلاف مواطن أو عشرون ألفاً كل ليلة بدون مأوى نتيجة للهجوم الجوي المستمر، عندما كان حذر السكان وحرصهم وحده بمثابة حرس أولي يقاوم حدوث الحرائق على أسطح المنازل التي قد يتعذر القضاء عليها، وعندما اكتظت المستشفيات بمشوهي القنابل من الرجال والنساء، وعندما ظل مئات الآلاف من البشر المنهكين يكدسون كل ليلة في هذه الخنادق التي تحتاج إلى الأمان والوسائل الصحية، وعندما كانت طرق المواصلات بالقاطرات وغيرها تغلق باستمرار، وعندما كانت المجاري

والقوة الكهربائية والغاز تدمر تدميراً، وعندما يجب أن تظل - بصرف النظر عن ذلك - روح لندن المناضلة صامدة عالية. وأن يتيسر نقل حوالي مليون مواطن في كل يوم ليلاً ونهاراً من مساكنهم إلى المصانع وبالعكس، كان يجب علينا كل هذا، ولم يكن في مقدورنا أن نعرف مدى هذه المحنة ومتى تنتهي، ولم يكن لدينا ما يشير إلى أنها لن تستمر أو لن تزداد سوءاً. وعندما حدثت المستر موريسون عن رغبتي بالنسبة للمهمة الجديدة كان يدرك جيداً ما ينطوي عليه هذا العرض من خطورة ومشاكل، فاستمهلني بضع ساعات ليفكر، ولم يلبث أن جاءني قائلاً أنه سيكون فخوراً بالقيام بكل هذه المهمات، وهزني إعجاباً به هذا القرار الذي يدل على كل صفات الرجولة.

وبعد أن تمت هذه التعديلات الوزارية أدى تغيير العدو لوسائله إلى أن تتأثر سياستنا العامة، فقد كانت الغارات تستخدم القنابل الشديدة الانفجار، لكن في ليلة 15 تشرين الأول وكان القمر بدراً، نزلت بنا أقسى غارات جوية في ذلك الشهر، وأسقطت الطائرات الألمانية فضلاً عن حمولتها المعروفة من القذائف المتفجرة حوالي سبعين ألف قذيفة حارقة وكنا حتى هذه الأثناء نبث الشجاعة في سكان العاصمة ونحثهم على اللجوء للخنادق وقت حدوث الهجوم، وكنا نفتش عن كل وسيلة ممكنة لتأمين وقايتهم. ولكن بعد هذه الليلة اضطررنا أن نطلب إليهم الصعود إلى سطوح المساكن بدلاً من اللجوء إلى الخنادق أثناء الهجوم. وكان على وزير الداخلية الجديد أن ينفذ هذه السياسة، فأعد على الفور تشكيلاً هائلاً لمراقبي الحرائق، ومقاومتها على مدى واسع يكفي مدينة لندن بكاملها، فضلاً عن إجراءات أخرى اتخذت من المدن الإقليمية في أقصر مدة ممكنة. وكانت مراقبة الحرائق عملاً اختيارياً في أول الأمر، ولكن اشتداد الحاجة لمزيد

من الأفراد والإحساس بحتمية قيام كل إنسان بواجبه في مثل هذه المحنة القاسية ليشارك في آلامها، فرض علينا أن نلزم المواطنين بالمشاركة في أعمال المكافحة، وقد أدى ذلك إلى مزيد من نشاط كافة المواطنين على جميع ألوانهم ومستوياتهم. وصممت النساء على المساهمة بقدر حيوي في هذه الخدمة واتخذت التدبيرات على نطاق واسع للقيام بتدريبات عامة، ولتعويد مراقبي الحرائق مكافحة كل أنواع القذائف المحرقة التي يسقطها الأعداء وقد تفوق الكثيرون في أداء هذه الخدمة حتى استطاعوا أن يخمدوا ألوف الحرائق قبل شبوبها، وسرعان ما صارت تجربة الصعود إلى أسطح المنازل ليلة أثر أخرى تحت وطأة النيران المشتعلة ودون أدنى إجراء وقائي آخر سوى الخوذة النحاسية أمراً مألوفاً.

ورأى المستر موريسون أن يجمع الفرق المحلية للإطفاء التي يبلغ عددها حوالي ألف وأربعمائة فرقة في تشكيل قومي موحد لمقاومة الحرائق، وأن يزود هذا التنظيم بحرس شعبي كبير للحرائق من المدنيين المدربين المتطوعين للعمل في أوقات فراغهم، وكان حرس الحرائق أول الأمر يتألف من المتطوعين أيضاً. ولكن ما لبث أن تقرر بالإجماع تحويله إلى خدمة إلزامية، وقد استطعنا بواسطة الجهاز القومي لمكافحة الحرائق من استخدام النقل الآلي، وأحدث الأجهزة وأدق التدريبات في أعمال رسمية تشرف عليها مجموعة من العسكريين. أما أسلحة الدفاع المدني الأخرى فقد كانت تضمن وجود مجموعات على استعداد للتوجيه إلى أي مكان في خلال دقيقة واحدة، وقد اكتفي باسم سلاح الدفاع المدني عن الاسم القديم الذي عرف قبل الحرب بقوات الاحتياط من الغارات الجوية وزود رجال السلاح الجديد بملابس عسكرية خاصة تبث الشعور في نفوسهم بأنهم يؤلفون السلاح الرابع من قوات التاج المسلحة.

وقد اغتبطت لأن لندن قد صمدت أمام الموجات المتتالية من الغارات الجوية على مدننا. أن لندن تشبه فيما أرى حيواناً هائلاً من حيوانات ما قبل التاريخ في وسعها أن تتحمل الأذى المخيف، ثم تظل رغم جراحها النازفة عتبة الصمود تموج بالحياة والحركة. وقد كثرت خنادق أندرسن في إحياء الطبقات العاملة المكونة من بيوت ذات طابقين. وقد بذلنا كل ما في وسعنا لتكون هذه الخنادق صالحة للإقامة والحياة، مع الحرص على تخفيفها من الرطوبة أثناء الأمطار.

❊ ❊ ❊

ويواصل تشرشل حديثه قائلاً:

وللمرة الأولى منذ حوالي شهرين لم تدو في الجو صفارة الإنذار ليلة الثالث من تشرين الثاني في لندن، فاستغرب الكثيرون جو الهدوء السائد وبدأوا يتساءلون ما الخبر؟ وفي الليلة التالية شنت الغارات على نطاق واسع حتى عمت أكثر الجزر البريطانية، وظل هذا بصفة مستمرة إلى بعض الوقت واتضح أن الألمان قد جددوا وسائلهم الهجومية، وبالرغم من أن لندن استمرت كهدف أساسي إلا أن جهوداً ملحوظة كانت تبذل لتشل العمل في المراكز الصناعية البريطانية. وقد أرسل العدو أسراباً جديدة مدربة على ابتكارات جديدة في الملاحة الجوية لتهاجم مراكز حساسة في الجزيرة، فمثلاً تمرنت فرقة خاصة من الطائرات الألمانية على تدمير مصانع آلات الطائرات "رولز رويس" في ("هلينجتون" قرب غلاسكو، ولا شك في أن هذه الخطة الجديدة لم تكن تعني مجرد التغيير. فقد قرر العدو تأجيل غزو بريطانيا إلى حين، ولم يكن قد انتهى من تدبير هجومه على روسيا بعد، كما لم يفكر فيه أحد غير هتلر والمقربين إليه.

وهكذا كانت أشهر الشتاء الباقية مجرد فترة تمرينات بالنسبة لسلاح الجو الألماني على التكتيكات الجديدة في الهجوم الليلي والإغارة على التجارة البحرية فى بريطانيا. أما الغاية من ذلك فهي تدمير إنتاجنا العسكري. وكان أجدى للألمان لو ظلوا على هجومهم في ناحية واحدة حتى آخر الشوط فربما وصلوا إلى نتيجة حاسمة، ولكن الحيرة والتردد كانا طابعهم في ذلك الوقت لأن ثقتهم بأنفسهم كانت غير كاملة.

وبدأت هذه الوسائل الجديدة في الهجوم بغارة جوية عارمة على كوفنتري ليلة الرابع عشر من تشرين الثاني، وقد اتضح لغورنغ أن مدينة لندن شاسعة الأبعاد إلى الدرجة التي لا تتيح له نتائج فاصلة، بينما كان في مقدوره أن يزيل من الوجود مدن الأقاليم ومراكز إنتاج الذخيرة، وقد بدأ الهجوم في الساعات الأولى من الليل وتواصل حتى الفجر واشترك فيه حوالي خمسمائة طائرة ألمانية أسقطت حوالي ستمائة طن من القذائف الشديدة الانفجار عدا ألوف القنابل المحرقة. وكانت تلك الغارة أقسى ما دهمنا من غارات ثقيلة مدمرة بصورة عامة، فقد هوجم قلب كوفنتري، وأصيبت الحياة بالشلل التام في المدينة، وقد قتل حوالي أربعمائة شخص كما أصيب بجراح عدد أضخم من هذا بكثير. وأذاعت ألمانيا أن جميع مدننا ستلقى نفس المصير، ومع هذا فلم يعطل العمل بمصانع الطائرات أو قطع الماكينات الأخرى، كما لم تمت حركة أهل المدينة بالرغم من عدم مجابهتهم قبل ذلك لمثل هذه الغارات. ولم يمر أسبوع حتى كانت لجنة تجديد الأبنية قد قامت بأعمال رائعة تيسر عودة الحياة إلى طبيعتها في المدينة.

وشن العدو ليلة 15 تشرين الثاني هجوماً آخراً على لندن استخدم فيه

عدداً ضخماً من الطائرات في ضوء القمر الساطع فأصيبت العاصمة بكثير من الخسائر وخاصة في كنائسها ونصبها التذكارية، وكانت بيرمنجهام هدف العدو الثالث، فشن عليها هجومه لثلاث ليال متتابعة بين 19 و 22 تشرين الثاني فأصيبت المدينة بخسائر فادحة في الأرواح والممتلكات، ووصل عدد القتلى إلى حوالي ثمانمائة والجرحى أكثر من ألفين،، ولكن روح بيرمنهجام وحياتها قاومتا المحنة، وارتفع المليون من أهلها بتنظيمهم ووعيهم وفهمهم إلى أعلى مما نزل بهم من آلام. وتحولت وجهة الغارات في آخر أسبوع من الشهر نفسه ومطلع شهر كانون الأول إلى الموانئ فتعرضت برستول وساوثها مبتون وليفربول لهجات قاسية، ومرت بلايموت وشفليد ومانشستر وليدز وجلاسكو بالمحنة ذاتها بشجاعة نادرة ولم يعد يعنينا أن يوجه العدو ضربته فإن الشعب كله واجهها بإيمان وصبر وعزيمة.

وبلغت الغارات ذروتها مرة ثانية حين شن العدو هجومه على مدينة لندن يوم الأحد في 29 كانون الأول، فقد جمع الألمان فيها كل ما حصلوه من خبرات، فكان الهجوم مفعماً بالقذائف المحرقة التي ركزت قسوة نيرانها على حي "السيتي". وكانت هذه الغارة مدبرة لتقع حين ينحسر الماء عن النهر بسبب الجزر، فتهدمت سدود المياه في بداية الأمر بسبب ألغام شديدة الانفجار أسقطتها المظلات، وكان الضرر الذي أصيبت به محطات السكة الحديدية والأرصفة فادحاً وهدمت ثماني كنائس وشبت الحرائق في "غيلدهول" وفي كاتدرائية القديس بولس، ولم تنج من الدمار إلا بجهود خارقة تفوق حد الوصف، وأخذنا نرى الخراب يجتاح العالم البريطاني، ولكن عندما زار الملك والملكة هذه الأماكن المصابة قوبلا بحماس بالغ أشد مما كانا يقابلان به في أية زيارات أخرى.

وظل الملك صامداً في غضون هذه الأشهر الطويلة من التجربة القاسية والتي لم تنته بعد في قصر باكنجهام، وقد شيدنا خنادق ملائمة في الطابق الأسفل من القصر، ولكن أعمال البناء استلزمت الكثير من الوقت، وكثيراً ما حضر الملك خلال اشتداد الغارة من قصر باكنغهام. وقد أنقذ جلالته والملكة بأعجوبة من الموت ذات مرة. ففي حديقة القصر أنشئ ميدان خاص للرماية، كان جلالته وغيره من أفراد الأسرة المالكة، وكبار رجال الحاشية يتدربون على الرماية فيه بالمسدسات ومدافع التومي، وقد قدمت للملك غدارة أميركية قصيرة المدى، كانت واحدة من مجموعة وصلتني وكان سلاحاً قيماً.

وبدل الملك في تلك الأثناء موعد لقائي الرسمي بجلالته من الساعة الخامسة مساء كل يوم ثلاثاء كما جرت عادته في خلال الشهرين الأولين منذ توليت الحكم، إلى أن أتناول الغذاء معه في نفس اليوم من كل أسبوع. وكنت في هذه الزيارات التي قد تحضرها الملكة، أعرض على جلالته شؤون الحكم، وكثيراً ما اضطررنا إلى حمل صحاف الطعام وأقداح الشراب إلى الخندق الذي كان لا يزال في حالة الإعداد فنستكمل طعامنا فيه، وأصبحت هذه الزيارات الأسبوعية عادة رتيبة، وبعد مرور الأشهر الأولى، أمر جلالته أن يبعد الخدم جميعاً من هذه الاجتماعات وأن نمارس نحن خدمة أنفسنا بأنفسنا، وقد تكشف لي خلال السنوات الأربع والنصف التالية من الحرب أن جلالته كان يطلع بكثير من الاهتمام على جميع البرقيات والوثائق الرسمية التي أقدمها إليه، ويقرر العرف الدستوري البريطاني إن من حق الملك أن يطلع على كل شيء يقع تحت اختصاصات وزرائه، وأن يقدم المشورة إلى حكومته بدون قيد ولا شرط، وكنت حريصاً جداً على أن أطلعه على كل شيء، وكثيراً ما بدا لي خلال اجتماعاتنا

الرسمية الأسبوعية أنه قد قام بدراسة كافة الوثائق التي لم أكن قد درست بعضها بعد، وأنني لأقول أن من حسن الطالع لبريطانيا أنه كان على عرشها في مثل هذه السنوات المصيرية ملكان خيران كملكنا ومليكتنا، وأني كواحد من الذين يؤمنون بالملكية الدستورية، نظرت ببالغ التقدير إلى الشرف الذي أسبغه علي صاحب الجلالة بهذه الصلات التي وثق عراها معي كوزيره الأول، وأنني لا أرى لذلك نظيراً في تاريخنا إلا في أيام الملكة آن ورئيس حكومتها مارلبورو.

وهكذا أبلغ بنا العام إلى نهايته ....، وإن كنت قد استطردت - راغباً - بعيداً عن شؤون القتال الخاصة، وسيرى القارئ إن كل هذا الدوي وتلك الزعازع لم تكن إلا رفيقاً على الطريق يسير مع إجراءاتنا الهادئة التي حرصنا عليها في إدارة جهودنا الحربية. وتوحيد سياستنا ودبلوماسيتنا، وعلي أن أقر هنا أن هذه الخسائر التي منينا بها والتي لم تكن مميتة، كانت في اعتبارنا نحن المقيمين في قمة الموقف دافعاً فعالاً للتعبير عن آرائنا، وتوطيد زمالة بارة بيننا وتدعيم أسس أعمالنا الجوهرية الواعية، وربما يكون من غير الحكمة على كل حال أن افترض بأن الغارات التي شنت علينا لو تزايدت إلى عشرة أو عشرين ضعفاً أو حتى بنسبة ضعفين أو ثلاثة فإن هذه الانطباعات السليمة، كانت ستوجد بصورة مؤكدة، وعلى النحو الذي أوضحت.



الفصل العاشر

الإعـــارة والتأجيـــر

أطل علينا فجر جديد، وصليل الأسلحة يملأ الجو، لكن مصدره هذه المرة كان مختلفاً عما سبق. فقد دارت الانتخابات الأميركية للرئاسة في الخامس من تشرين الثاني، وبالرغم مما تتسم به من حيوية وصلابة تتميز بها هذه المصارعة الحادة التي تحدث مرة كل أربع سنوات، وعلى الرغم من الخلافات التي تثار حول الشؤون الداخلية بين الحزبين الرئيسيين، إلا أن كبار الزعماء في كل من الحزبين الديمقراطي والجمهوري كانوا يجمعون على تقدير قضيتنا العظمى والاهتمام بها، فأعلن المستر روزفلت في 2 تشرين الثاني بمدينة كليفلاند أن سياسته تؤمن ببذل كل مساعدة فعالة للشعوب التي ما زالت تكافح العدوان عبر المحيطين الأطلنطي والهادي. كما صرح منافسه المستر ويندل ويلكي في نفس اليوم في خطاب ألقاه بحديقة ماديسون بأنهم جميعاً جمهوريين وديمقراطيين ومستقلين مصممون على مؤازرة المقاومة البريطانية الباسلة وأنهم يتعهدون للشعب البريطاني بأن يستخدم متى شاء ثمار صناعتهم. ولا شك في أن هذا الشعور الوطني النبيل كان الطريق المخلص لحياة الولايات المتحدة وحياتنا نحن أيضاً.

ومع ذلك فقد كنت أحس بالقلق العظيم، وأنا أترقب النتيجة، فليس في مقدور كل من يتولى الرئاسة، أن يكون مسلحاً بالخبرة والمعرفة كما يتمتع بها فرانكلين روزفلت، وليس في مقدور أي شخص سواه أن يحوز نفس المواهب والكفايات، وكنت قد وثقت علاقتي الشخصية به، وحافظت

على تنميتها ورأيت أنها قد بلغت أسمى مراتب الثقة والصداقة إلى الدرجة التي أصبحت بها ذات أهمية في تفكيري، وكنت لهذا أحس بالقلق إزاء كل ما يهدد هذه الزمالة، وقد تم توطيدها بعناية وعل مهل، وأنفر من فكرة قطع هذا الاتصال في أحاديثنا ومباحثاتنا لأبدأ من جديد مع شخص آخر صاحب عقلية وشخصية مختلفين، ولم أحس منذ أيام بمثل ما أحس به الآن من قلق، ولذلك فقد كانت غبطتي عظيمة عندما علمت أن الرئيس روزفلت قد أعيد انتخابه.

وكنا حتى تلك الساعة نلجأ فيما نحتاجه من الذخيرة للمصانع الأميركية بحرية وحيوية، وإن كان ذلك يتم بعد التفاوض معها.

وأدت زيادة رغباتنا وتعدد مطالبنا إلى التناقض أحياناً، مزاحمة الرغبات الأمريكية ذاتها، مما كان ينذر بحدوث اصطدام على المستويات الخفيضة بالرغم من توافر حسن النية لدى الطرفين. وكتب المستر ستيتينيوس يقول:

"إن في إمكان سياسة موحدة من أجل تحقيق غايات المقاومة أن تؤدي أغراض هذه المهمة التي تواجهنا الآن". ومعنى هذا أن لحكومة أميركا أن توصي وحدها بصنع الأسلحة التي نحتاجها من أميركا، وخرج الرئيس روزفلت بعد توليه الرئاسة بثلاثة أيام بنظرية جديدة تقرر الأفضلية في توزيع إنتاج الأسلحة الأميركية، على أن يكون خمسون في المائة من إنتاج أميركا للأسلحة مخصصاً لاحتياجات أميركا الدفاعية، وخمسون في المائة للقوات - البريطانية والكندية. وأصدر مجلس الأفضلية الأميركي في نفس اليوم موافقته على رغبة بريطانيا في إعداد أثني عشر ألف طائرة في الولايات المتحدة فضلاً عن رغبتنا السابقة في أحد عشر ألف طائرة

أخرى، ولكن من أين نأتي بالأموال الضرورية لنغطي ثمن الأسلحة التي نحتاجها من المصانع الأميركية؟

وأمضى اللورد لوثيان في أواسط تشرين الثاني يومين في ديتشلي معي، وكان قد ركب الطائرة من مقر عمله في واشنطن إلى الوطن. وكنت قد استمعت إلى نصيحة بأن لا أمضي في تشيكرز جميع نهايات الأسابيع. خصوصاً عندما يكون القمر بدراً، خشية أن يعطف علي العدو بلطفه الخاص، وكان السيد رونالد تري وزوجته قد استقبلاني أحسن استقبال، أنا وموظفي، في بيتهما الكبير الجميل الذي يقع على مقربة من أوكسفورد ولا تزيد المسافة على أربعة أو خمسة أميال بين ديتشلي وبلنهايم، وهكذا التقيت بسفيرنا في واشنطن في هذا الجو الآمن، وكان يعرف شتى جوانب الموقف الأميركي ولم يكن قد حصل على شيء سوى النية والثقة من واشنطن، وكان قد اتصل منذ قليل بالرئيس الذي توثقت بينهما أطيب العلاقات، وكان فكره مشغولاً بمسألة الدولار، وهي مسألة كئيبة بلا شك.

فعندما خاضت بريطانيا غمار الحرب، كان في حوزتها حوالي 4500 مليون دولار إما على صورة دولار بالفعل، أو ذهب أو استثمارات أمركية من المستطاع أن تتحول إلى دولارات، وكانت الوسيلة الوحيدة المستطاعة لتزيد هذه الموجودات، هي التوسع في استخراج الذهب في الإمبراطورية البريطانية وخاصة في جنوب أفريقيا، وبذل كافة السبل لزيادة الصادرات إلى أميركا وخاصة الكماليات كالويسكي والمنسوجات الصوفية الرائعة والخزف. وقد استطعنا بهذه الوسيلة زيادة حصيلتنا بحوالي ألفي مليون دولاء في خلال ستة عشر شهراً منذ بداية الحرب، وكنا في السابق تتجاذبنا الحيرة بين حاجة ملحة إلى العتاد من أميركا، وبين فزعنا من نقصان

دولاراتنا الموجودة لدى أميركا، وكان السير جون سيمون وزير المالية في حكومة المستر تشمبرلين يتحدث كثيراً عن المصير المؤسف لأرصدتنا الدولارية، ويوجه أنظارنا إلى ضرورة الحرص عليها، وكنا على أية حال متفقين على ضرورة الحد من مشترياتنا الأميركية بقدر المستطاع. وكنا نبدو كما قال مرة المستر بوفيز، رئيس لجنة المشتريات للمستر ستيتينوس "وكأننا نحيا في جزيرة منقطعة بكمية محدودة من الطعام الذي نحاول الإبقاء عليه أطول مدة ممكنة".

وكان يقصد بهذا إعداد ترتيبات واسعة المدى لزيادة أموالنا، وكنا قبل الحرب نمارس حريتنا في الاستيراد، وندفع بالعملة التي نريد، وعندما قامت الحرب اضطررنا أن نوجد هيئة لتعبئة الرصيد الخاص من الذهب والدولار والنقد الأجنبي، وأن نقف دون تحقيق رغبات ذوي النوايا المنحرفة في تحويل رأسمالهم إلى البلاد التي يحسون أنها أكثر .أكثر أمناً من بلادهم، وأن نقلل من قيمة الواردات غير الضرورية وغير ذلك من وسائل الإنفاق الأخرى، وفضلاً عن عزمنا على الإبقاء على أموالنا. كان علينا أن نضمن استمرار الآخرين في قبول عملتنا، وكانت بلاد الكتلة الإسترلينية معنا، فهي تحتم سياسة الإشراف ذاتها على النقد التي تحتمها، وهي تريد التعامل الدائم بالإسترليني، وقمنا بإبرام عقود خاصة مع الآخرين تلزم بأن ندفع لهم بالإسترليني الذي يقدرون على التعامل به في أي مكان داخل حدود الكتلة الإسترلينية، كما ضمنوا الإبقاء على فائض الإسترليني لديهم، وأن يحرصوا في مبادلاتهم على هذه الشروط مع السويد والأرجنتين، ثم ما لبثت إن اتسع نطاقها فشملت بلاداً أخرى في القارة وفي جنوب أميركا.
وقد تم تنسيق هذه الخطة بعد ربيع عام 1940، ولا شك في إن مما هو جدير بالثناء وبإطراء الإسترليني نفسه أننا استطعنا الإبقاء عليه في

مثل هذه الظروف القاسية، وقد قدرنا بهذه الوسيلة على الاستمرار في معاملاتنا التجارية مع غالبية البلاد في العالم بالإسترليني، وأن نبقي على ما لدينا من دولار وذهب ثمين لمعاملاتنا الحيوية مع أميركا.

وعندما أصبحت الحرب واقعاً مرعباً في أيار 1940، أدركنا على الفور أننا نشهد ميلاد حياة جديدة للعلاقات الإنكليزية الأميركية، فمنذ أن توليت تأليف الوزارة، وعهد إلى السير كنغزلي بوزارة المالية، بدأنا نسير في طرق أكثر يسراً، وهي أن توصي باحتياجاتنا ورغباتنا بغض النظر عن المصاعب المالية المقبلة، تاركين للآلهة الخالدة أن تتولاها بعنايتها، ولقد كان من الزيف في شؤون الاقتصاد ومن الخداع بالنظر للروية والعقل أن نترك الفرصة للقلق ونحن نواجه معركة حياة أو موت، منفردين، لا نصير لنا ولا معين ونقع تحت وطأة هجوم جوي مستمر، ونتعرض لأهوال غزو يذيقنا من ويلاته، أن نترك الفرصة للقلق يستولي علينا من جراء نفاد أرصدتنا الدولارية لدى أميركا. وكنا قد شعرنا بالتحول الكبير في الرأي العام الأميركي وشعرنا بالإدراك الجديد الذي سرى لا في واشنطن وحدها بل في جميع أجزاء الولايات المتحدة، بأن مصير أميركا وثيق الصلة بمصيرنا نحن، وفضلاً عن هذا فقد سرى تيار من العطف والإعجاب ببريطانيا بين صفوف الشعب الأميركي ووصيتنا برقيات مودة من واشنطن مباشرة، وعن طريق كندا، لمسنا في غضونها التشجيع والمؤازرة، والإحساس بأن شيئاً ما في الأفق سيتحقق عن قريب. ولقيت قضية الحلفاء في المستر مورغنتا ووزير الخزانة الأميركية نصيرها وحاميها الذي لا يكل من الذود عنها، وبسبب ورود الطلبات الفرنسية إلينا في شهر حزيران تضاعف معدل إنفاقنا في النقد الأجنبي. زيادة على ذلك إننا رغبنا من جديد في صنع طائرات ودبابات وسفن تجارية من مختلف الأنواع، وحثثنا على إنشاء

مصانع ضخمة جديدة في أميركا وكندا.

وإلى شهر تشرين الثاني قد قمنا بدفع الثمن لكل ما وصلنا من آميركا وكنا قد بعنا ما قيمته (335) مليون دولار من السندات والأسهم الأميركية التي قمنا بمصادرتها من ذويها في لندن مقابل الدفع بالإسترليني، وكنا قد قمنا أيضاً بدفع ما يزيد على (4500) مليون دولار نقداً، وأصبح كل ما لدينا ألفي مليون معظمها في صورة استثمارات غير قابلة للبيع الفوري في الأسواق، وظهر أن ليس في وسعنا أن نسير على هذا المنوال، لأننا أنفقنا كل ما في حوزتنا من الذهب والنقد الأجنبي فلن نستطيع أن ندفع الثمن لنصف احتياجاتنا من المصانع الأمريكية، فكيف يكون الأمر والحقيقة إن امتداد زمن الحرب وشمولها يضطرنا إلى أن نحتاج من المصانع الأميركية عشرة أضعاف ما احتجنا إليه الآن. وعلينا فضلاً عن كل هذا أن نبقي على شيء في أيدينا لنواجه به مطالبنا اليومية المتجددة.

وكان لوثيان واثقاً من أن الرئيس ومستشاريه يفكرون جدياً في خير الوسائل لمعاونتنا. أما وقد انتهت المعركة الانتخابية، فقد دقت ساعة العمل، وكانت المباحثات دائمة في واشنطن بين ممثل لوزارة حربيتنا هناك – السير فريد ريك فيلبس – وبين المستر مورغنتاو، ورغب إلى سفيرنا في أن أحرر رسالة مفصلة للرئيس توضح كل أوضاعنا، وهكذا كتبت بالمشاوة معه في ذلك اليوم، الأحد في ديتشلي، رسالة خاصة إلى الرئيس، ووزارة الخزانة لدراستها، ثم توافق عليها وزارة الحرب فإنها لم تكن معدة لإرسال قبل رجوع لوثيان إلى واشنطن. وتمت الرسالة في صورتها الأخيرة، ثم أرسلت بتاريخ 8 كانون الأول إلى المستر روزفلت فوراً، فانتهت – وهي من أهم ما أحرزته في حياتي – إلى صديقنا العظيم وهو يمخر عباب البحر

الكاريبي على ظهر البارجة الأميركية "توسكالوزا" مع أصدقائه وخاصته، وأبلغني هاري هوبكنز، بعد ذلك وكنت لم أتعرف به بعد أن الرئيس قرأ الرسالة مراراً على ظهر البارجة وهو جالس على مقعده، وأنه أمضى يومين في دراستها، إلى أن وضحت أمامه مراميها. لقد ظل في أحضان تفكير عميق، يتمتم لنفسه في صمت.

ونتج عن كل هذا قرار عظيم، فالقضية لم تكن عدم معرفة من الرئيس لحقيقة ما نريد، وإنما كانت في أي الوسائل يجب أن يسلكها لتؤمن بلاده بالمسير معنا، وليقتنع الكونجرس بضرورة ما يرى. ويقول ستيتينروس أن الرئيس كان في أخريات الصيف الماضي قد رأى في إحدى جلسات لجنة الدفاع الاستشارية في موضوع الموارد الملاحية أن ليس من المحتم أن يبذل البريطانيون أموالهم. وليس من المحتم أيضاً أن يستدينوا منا لهذا الغرض، ولكن – مع أنه لا يوجد ما يحول دون تنفيذ كل ذلك – في مقدورنا أن نأخذ الباخرة التي تم صنعها، وأن نؤجرها لهم أثناء استخدامهم لها.

ويظهر أنه كان هناك قانون صدر في عام 1892، يدع لوزير الحربية حرية تأجير ممتلكات الجيش ما دام يرى في ذلك مصلحة عامة بشرط أن يكون الجيش في احتياج إليها مدة خمس سنوات، وكانت هناك حالات طبق الجيش فيها هذا القانون، وأجر بعض ممتلكاته من حين لآخر.

وهكذا انبثقت فكرة "التأجير" في ذهن الرئيس روزفلت لتلبية احتياجات بريطانيا. بدلاً من تقديم قروض غير محدودة، ربما قد يؤدي ذلك إلى درجة يصعب معها الدفع والتسديد، وسرعان ما انتقلنا من المجال النظري إلى المجال العملي. وظهرت في هذا الزمن الذي أعلن فوراً وهو الإعارة والتأجير.

وعاد الرئيس من رحلته في البحر الكاريبي في 16 كانون الأول

بمشروعه العميق في مؤتمر صحفي عقد في اليوم التالي، وقد أوضحه في بساطة عندما قال: "لنفرض أن منزل جاري قد شب فيه حريق، وكنت أملك في حديقتي خرطوماً طويلاً يبلغ أربعمائة قدم أو خمسمائة، وكان في استطاعة جاري إذا منحته خرطومي أن يوصله بصنبور مياهه ويتغلب على النار المشبوبة، فماذا ترون واجبي في ذلك الحين؟ إنني لن أخاطبه قائلاً في مثل هذه الظروف: اسمع يا جاري، لقد كلفني هذا الخرطوم خمسة عشر دولاراً وعليك أن تدفع ثمنه أولاً ... كلا ... إنني لن أفعل ذلك، وإنما سأقول له ... أنا لا أريد الخمسة عشر دولاراً ولكنني أريد خرطومي بعد أن تخمد الحريق ... واستطرد قائلاً: "لا ريب عند أي أميركي يرى أن أفضل سب الدفاع العاجل عن أميركا، هي أن تنتصر بريطانيا في الدفاع عن نفسها، ولذلك – فضلاً عن مصلحتنا التاريخية والحاضرة في المحافظة على الديمقراطية كشيء جوهري – فإن في غاية الأهمية – من الناحية الذاتية أيضاً – وبالنسبة للدفاع الأميركي أن نبذل كل ما نستطيع لمعاونة بريطانيا في الدفاع عن نفسها..." ثم ختم كلمته قائلاً: "إنني أحاول أن أمحو حاجز الدولار". وعلى هذه الأضواء، تم إعداد مشروع الإعارة والتأجير عاجلاً ليعرض على الكونغرس، وقد وصفت هذا الجهد فيما بعد أمام البرلمان في أحد البيانات قائلاً: "أكرم عمل قام به أي شعب في التاريخ" وفي الوقت الذي تمت فيه موافقة الكونغرس على هذا القانون، تغير الوضع كاملاً بصورة عاجلة، فقد أعطانا القانون الحرية في أن نبرم الصفات الضخمة بكافة احتياجاتنا تحت رعاية اتفاق الإعارة والتأجير. ولم ينص على إعادة الدفع، كما لم يكن ثمة حساب رسمي يسجل بالدولار أو الإسترليني. ونكتفي بهذا القدر من مذكرات السياسي الداهية تشرشل... الرجل الثعلب ...

فهرس المحتويات